شجرة اللبخ

عزة رشاد

رواية

شجرة اللبخ

*

شجرة اللبخ

رواية

الطبعة الأولي : ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠٤٤١/ ٢٠١٣

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٣٠٦-٣٠-١

الغـــــلاف: حاتم سليمان

إستشارى النشر : د. سمير مندى

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١٣ شارع ٢٥٤ – دجلة– المعادى – القاهرة.

تليفـــون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني: www.kotobkhan.com

شجرة اللبخ

روايــة

عزة رشــاد

للنشر والتوزيع

مفتتح

ظهيرة يوم حار، تقذف شمس "بؤونة" أشعّتها الملتهبة عموديًا، فيتشقق سطح الأرض وينحني ظهر النهر الذي أوشك على الجفاف، وتتدلّى أغصان الأشجار نحو الأرض مستسلمة لمصيرها، ويتفصّد العرق فوق جباه أبناء "درب السوالمة"، فيما يمسح الولد "عِتمان" وجهه بظهر كفه، ويلحق بهم محدقًا في الكتلة البشرية المتحركة بأبخرة العرق المختلط بروائح روث الدواب التي تثير الغثيان، في نفس اللحظة التي ينتبه فيها إلى هتاف الشيخ "دياب" إمام المسجد: "إنما الكرامة في الاستقامة"، ويلمح النعش وهو يسبق المشيّعين، فيركض الولد ابن الاثني عشر ربيعًا في جلبابه المشلوح بعد أن رأى ما جرى مرددًا: النعش طار. تتردد العبارة بسرعة فوق ألسنة النسوة في شوارع وأفنية وحواري القرية، ثم تنزلق الحكايات من بين رذاذ الشهنفة وخيوط المخاط عن نعوش الأسلاف التي طارت، مثل نعش "الشيخ عامر"

الناسك الذي اعتزل متاع الدنيا أكثر من عشرين عامًا، وأقام وحيدًا في كهفه بقرية "كوم الجمر" المجاورة، دون زوجة أو خادم، مستغرقًا في العبادة والتفكر، لم يعرف أحد من أين يأتيه طعامه وشرابه، فقال الناس: يطعمه ربّه ويسقيه، حتى وافته المنيّة فطار نعشه وعجز مشيعوه عن اللحاق به، ومثل نعش "ستنا الندية" السيدة "زهيرة" الذي أَبَى أن يتحرّك نحو المقابر، وأرغم حامليه على التحرّك نحو الفلاة، حتى توقف عند جبل "العميان" وأرغمهم على دفنها هناك وتشييد ضريح لها، اكتشفوا فيما بعد أنه مجاور لعين ماء سخيّة، دسّ صبي من قافلة بدو عابرة عددًا من نوى البلح تحت طبقات الأرض المتاخمة لها، ولما رأوا بنفس المكان في العام التالي نخلتين تفصلهما سبعة أمتار، إحداهما مؤنثة والأخرى مذكرة، انبرى والد الصبي في إقناع أرباب قبيلته ببَركة المكان وسخائه، فدقّوا أوتاد الخيام، ثم تعلّموا الفلاحة واستساغوا الاستقرار، ورضوا بما قسم الله لهم من رزق حلال، وما زال أحفادهم يروون أراضيهم من ذات العين فيما يعرف اليوم بـ"مرسى الرحال" -نسبة لكبيرهم "مجاهد الرحال"- الذي يظهر نخيله الباسق في امتداد الأفق، بينما أهالي "درب السوالمة" يواصلون الحكي، انتهاء إلى الكرامة التي بانت لـ"رضوان بك البلبيسي" مؤكدة صلاحه وبلوغه منزلة عليا، وعندما ينهي الصبي "عتمان" مهمته في ربوع القرية ويصل إلى باب السراي -

التي كانت عيناه ترمشان لمجرد النظر إليها ولو من بعيد، ويدور حولها دون أن يجرؤ على الحلم بدخولها- يجد بنفسه هذه المرة الحماسة والجرأة لدفع الباب والوثب فوق "نجيلة أوغسطين" اليانعة المبطّنة لأرضية الحديقة، ثم فوق درجات السُلم لينتهي ملتصقًا بباب الغرفة الممتلئة بنساء متّشحات بالسواد، تتوسطهن "أم الخير"، المقرفصة فوق السجادة، تؤدّي، بتمايل جذعها، وَصلات عديدها ونواحها: مع السلامة يابويا، مع السلامة ياخويا، مع السلامة يا سيدي البيه.

سعاد

تلتمع العيون الباكية لنساء العزبة اللائي التففن حول "سعاد هانم" يواسينها، فيما هي شاردة مع كربها لا تصدق أنه مات، "رضوان بيه" زوجها وبطل حياتها الذي أحبته وكرهته، وخافته وتمنّت رضاه وأحيانًا موته، لا تصدق أنها لن تجده بقربها مرة أخرى، لا تصدق أنها حرمت منه إلى الأبد، وأنها لن تكون مضطرة للنهوض مبكرًا للإشراف على ترتيب البيت، والتأكد من شراء الطلبات حتى لا يؤنّبها بنظرة أو كلمة، لن تكون مضطرة لانتزاع الضحكة من فمها قسرًا، حتى لو كانت في غاية الكآبة، حتى يُسرّ لمرآها، لكنها أيضًا ستفتقده، بل بدأت تفتقده بالفعل.. أرنبة أنفه الطويل التي تكون أول ما يلامس جلدها عندما يقترب ليدس رأسه بين ثدييها، الإيقاع المنتظم لشخيره الذي يطمئنها على استقرار العالم فتغطّ في النوم، وفوق هذا، لا يمكنها أن تنكر

ارتياحها لإشفاقه عليها في بعض لحظات ضعفها، عندما تغلبها دموعها، إشفاق له قيمته عندما يصدر من رجل رزين ذي هيبة لم تعرفها من قبل، فلم تكن بعد قد امتلكت ذاكرة عندما مات أبوها، لتخبرها إن كان مهيباً أم لا، ترك "البنية" آخر العنقود لأم طيبة ودستة من الصبيان، أصغرهم كان يكبرها بعشرة أعوام، وأكبرهم يحملها فوق كتفيه ويلف بها البلدة، وأحيانا يأخذها إلى مزلقان السكة الحديد في انتظار القطار الآتي من العاصمة، الذي يهدئ السائق سرعته، ريثما يناول الكمساري أخاها الجرنال، ثم يعودان، وهي ما زالت تدلّي ساقيها فوق كتفيه، لفناء الحارة، فيسرع إليه الجيران ليقرأ عليهم آخر أخبار الحكومة والخديوي وما يتسنّى مترجماً من برقيات دولية تكشف أحوال بورصة القطن التي عليها تتوقف مصائر أولئك الذين يرفعون أذيال جلابيبهم ويحزمونها فوق خصورهم، ويقضون ثلاثة أرباع أعمارهم في مصارعة الأرض بالفأس، لا تعرف إن كانت بالفعل تتذكر هذه التفاصيل، لكنها تميل لاعتبارها علقت بذهنها من حكايات إخوتها، تبدأ ذاكرتها عند رائحة كرنب مسلوق تهفهف فوق نار الكانون، وصبية سمراء ذات عينين عسليتين، وشعر بني كثيف ينادونها بـ"ست البنات"، تتعلّم -بأناةٍ سيتأكد لها مستقبلاً أنها صفة أصيلة بتكوينها- لفَّ "صوابع" المحشي بما لا يزيد على حجم إصبع كفّها الصغيرة.

- البنت الخايبة بايرة.

تقول الأم للصبية التي تحلم بالشاطر حسن، وتحفظ مواويل العشق والصبابة، لكي تستميت في معاونتها في إعداد صنف مختلف كل يوم، وفقًا لاختيار واحد من الدستة "الإخوة": صينية الرقاق، دقّية القارومة، عجّة السبانخ، طنجرة البصارة، طاجن الرز باللحم والبهارات، وسرعان ما تصير ست البنات طباخة ماهرة.. "ياكلوا صوابعهم وراء أكلها"، محبوبة، مدلّلة، دون أن تطلب، يأتونها بكل ما يمكن أن تتوق إليه فتاة في عمرها: ثياب، عطور، مواد للزينة، حلوى غزل البنات أو براغيت الست، مطمئنة في حضن أمها وذكرى أبيها الذي تركهم مستورين بثلاثة أفدنة من أجود الأرض، كما ترك لهم بيتًا ملأه إخوتها بالفرح والضحكات، بيتًا صغيرًا لا يزيد على حجم جناح واحد في سراية رضوان بيه البلبيسي التي تجلس فيها على كرسي الصالون المُذهب، لتأخذ العزاء من زوجات المزارعين اللائي أبين إلا أن يجلسن على الأرض، تمايل جذوعهن، متناغمة مع تنهدات حزينة وزفرات حارة، وعندما تتطلّع سعاد إلى وجه إحداهن -تجاسرت ومدّت يدها وضغطت يد الهانم مواسية: ربنا يصبرك يا هانم- يلفتها جمال ونضارة محدّثتها، ترمقها من بين دموعها.. "تبدو أكثر شبابًا عما كانت عليه في الفترة التي كانت فيها تخدم بالسراية"، وبقلق:

- زمانهم بيقولوا كنّا مطلّعين عينيكي يا "نبوية" وفُقتي بعد ما سيبتينا.

منذ عشرة أعوام أم خمسة عشر؟ يأخذها الفكر، لكن الشابة التي تبدو قد حدست حيرتها تميل عليها هامسة:

- خدّامتك "قمر" بنت نبوية. أمي مابقيتش تقدر تمشي. سامحيها يا هانم.

تسامحها بهزة من رأسها، وتتساءل في نفسها: هل بإمكانها أن تسامح بنفس السهولة الزمن الذي أسقط منها سهوًا أكثر من ربع قرن؟ كانت قبله في مثل جمال ونضارة هذه الـ"قمر" بل ربما كانت تفوقها استبشارًا عندما وضع أخوها كفه على رأسها مداعبًا: مبروك يا عروسة. أخبرتها أمها أنها ستكون سعيدة مع البيه ابن الأصول الذي يجلّه الجميع، وأنها محظوظة بالعيش *"عيشة الهوانم"* في سراية عظيمة، يأتمر بأمرها الخدم والحشم فلا تتعب أو تحتاج لشيء. لم ينتبه أحد إلى جهلها بالمعنى الحقيقي لأن "تدخل على ضُرّة"، بتوابع أن تكون هذه الضرة جميلة وذكية وشرسة، واسمها "صافيناز"، يجري في أحد عروقها دم أناضولي، يعود لجدّ أمها الذي تدّعي أنه كان أحد رجال "محمد علي باشا"، ورثت عنه أنفًا مرتفعًا ونظرة متأففة تكسر عين سعاد وتوقف اللقمة في زورها، حتى نشف عودها وبهت لونها، فتشهق أمها عندما تراها بعد عام من زواجها، وتسألها إن كان البيه بخيلًا؟ تهزّ سعاد رأسها نفيًا، ثم تلتفت

نحو أخيها ترجوه أن تبقى معهم وألا تعود للسراية، وتكتفي بعبارة واحدة: خلّيني هنا أحسن. لم تشأ الخوض في تفاصيل تتحرّج من ذكرها لأخيها وتثق كذلك أنه لن يفهم ما تعنيه بشأن تبدّل رضوان من رغبته فيها، إلى رغبته فقط في ولد منها، أو من غيرها إذا استحكم الأمر، أو بشأن عواطفه التي يشحذها لحفل الاستهلال، ثم السأم الذي يصيبه بعد ذلك، فيلقاها صامتًا زائغ النظرات، ثم يأتيها بآلية سقيمة، فقط من أجل الولد، ماذا تقول عن ضرّتها صافيناز التي سعت للتودّد إليها، فلم تجنِ سوى تأفّف الهانم -مما اعتبرته جهل "سعاد: الفلاحة" بالإتيكيت واللياقة- وتعمّدها إغاظتها بسطوتها على خدم السراية، بل وعلى صاحبها نفسه، كما باستعراض المجوهرات التي يخصّها بها، أخوها هو الآخر لم يستفسر، بل استنكر:

- مكانك مع راجلك. يعني إيه تسيبي بيتك! قصدي سرايتك.

- سرايتي!

ولا حتى السرير الذي تنام عليه أحسّت أنه سريرها، فكل الفرش والبياضات والأغطية تختارها "الهانم" من كتالوج يرسله لها التاجر "يعقوب" مع أحد صبيانه. تنظر سعاد لأمها مستنجدة، غير أن المرأة التي صمدت كالجبل وتحملت عبء دستة الصبيان حتى كبروا، وصار

لكل منهم حياته سرعان ما حطت وأصابها المرض والوهن، ولم يعد ثمة قيمة لكلمتها ولا لنظرة ملتاعة تودّع بها ابنتها التي تشعر بمرارة الخذلان، خذلها أخوها الذي حسبته سيقيم الدنيا ولن يقعدها إلا بعد أن يرد لها اعتبارها، بعدما خذلها الرجل الذي تسكن سرايته، الذي جفلت منه كرجل غريب لحظة انغلق عليهما الباب في ليلة الزفاف، لكن مرحه ولطافته جعلاها تشعر بالألفة، لن تنسى كيف اقترب رويدًا رويدًا، حتى أحست ببذرة الحب تتفتق في قلبها، ليلة عرفت فيها الحب ناضجًا مكتملًا، وتمنّت لو يكون العمر كله مثلها، أحبّت رقته في ملاطفتها، توقه لاكتشاف كل سر من أسرار كيانها، وجْده وهو يرتقي بها صوب ملكوت التحقق الذي لوّنه فراش الزوجية بلون وردي، ملتحمًا بها يقودها لاكتشاف كل شبر في جناته، فيما يهمس ابتهال جسده: أنا لك، لك وحدك. نامت راضية، حامدة شاكرة لفضل الله، تدعوه أن يُسعِد أخاها كما أسعدها بتزويجها من هذا الملاك الذي قادها نحو هذه الجنة، لكنها في الصباح فتحت عينيها فوجدت مكانه شاغرًا، ووجدت بابًا يتوارى وراءه من حسبته ملاكها بصحبة امرأة أخرى طوال اليوم، والأيام التالية.

- خبر إيه يا ست الستات! ما إنتي وخداه على ضُرّة. وبعدين ده شرع ربنا. تقول "شفاعة".

تتنهّد سعاد، وتبتسم لشفاعة عاجزة عن الرد، تلوم نفسها على أنها تزوّجت من رجل متزوج، وعلى أنها أحبّت هذا الرجل حبًا حقيقيًا لا يقبل القسمة ولا المشاركة ولا المساومة، لكنها لا تستطيع أن تلوم نفسها على أنها لم تصل حتى لمرتبة "زوجة ثانية"، بل تتأكد، كل يوم أكثر من سابقه، أنها لا شيء، أنها موجودة تحت الطلب للرجل الذي تغلق صافيناز باب جنتها دونه فقط في أيام "حمو" رحم الصبية السمراء، تحرص صافيناز على معرفة مواقيت سعاد كي تساعد رضوان على تحقيق حلمه، فيأتي منتبهًا لتفاصيل العمل "لقاء الزوجية" المثمر، يؤدّي واجبه بتؤدة وتركيز، ثم ينهض من فوقها، وفي لمح البصر يكون عند الباب، يؤكّد عليها، قبل أن يخرج، أن تمكث لفترة على ظهرها، كأن هناك عفريتًا سيقفز خارجها لو تحرّكت -تفكر- عفريتًا يعاقبها البيه لأنها بعد عام كامل من الزواج لم تأتِه إياه، هذا الانضباط هو الذي ساعد سعاد على تفسير نظراته الغريبة لها في أثناء زيارته الأولى لأسرتها، ففي الدقائق القليلة التي سمح لها أخوها بالظهور أمامه، كانت تختلس النظر إلى وجهه، إلى شامة صغيرة بين حاجبيه اللذين يرتفعان مع بعض الكلمات، إلى ابتسامته المتدرجة في الاتساع، والاستواء اللافت لأسنانه، عدا أنها اندهشت عندما أحست بعينيه تنزلقان بعيدًا عن وجهها.. إلى صدرها ثم استقر جلّ تركيزه عند بطنها، حسبته يستحي

النظر في عينيها، ثم أخبرتها شفاعة "بعد العيش والملح والعِشرة الطويلة" بأنه ارتاح لمرآها، لكونها ليست هزيلة ولا سمينة بما يؤثر في رحمها، أي ما من سبب ظاهري قد يمنع الحبَل، عدا أن هذا الرحم راوغ ثلاثتهم عامًا كاملًا، أمعن البيه خلاله في تجاهل وجود سعاد التي اكتسى وجهها بسحنة نكدة، ولم يشفع له عندها ما ذكرته "شفاعة" عن كونه مضطرًا لتبجيل صافيناز هانم التي "ليست مجرد زوجة"، بل صاحبة فضل -فعلاقات أقاربها بذوي السلطة والنفوذ هي التي يسّرت له الحصول على لقبٍ، كان أنداده يلفّون السبع لفّات كي يحصلوا عليه، كما ساعدته في تأمين وتوسيع ثروته- وبينهما مصالح وخطط ومشاريع بلغت من الأهمية ما جعل المرحومة لبيبة هانم، نفسها، لا تجرؤ على رفع عينيها في صافيناز، رغم كونها حماتها. تحسّ سعاد بالغبن، بالهوان، وهي تمدّ يدها وتفتح باب السراي "سجنها أو ملجأها الوحيد" بعد أن طردها، تقريبًا، أخوها" وتقسم مع أول خطواتها أنها ستأخذ من الدنيا حقها "تالت ومتلّت"، لن تعود سعاد "العَيِّلة" قليلة الحيلة، ولن تستنجد بأحد.. حتى أقرب الناس إليها، تمسح من فوق خدها دموعًا لا تقلّ سخونتها عن التي تذرفها على البيه رفيق حياتها وهي تميل برأسها نحو ظهر كرسي الأبيسون، دموعًا تتدفق أسرع مع وصول "وجيدة هانم" -زوجة "حشمت بيه الطرابيلي"، صديق رضوان المقرب- الذي يؤجج شجون

سعاد ويربك الحضور فتنهض إحدى المعزيات لتحضر لها وسادة رقيقة تضعها على الكرسي وراء ظهرها، ثم تنهض البنت "قمر" لتستعجل صينية القهوة، فيما تتلقف وجيدة سعاد في حضنها، وتنخرطان في نحيب مكتوم: المرحوم غالي بس ما يغلاش على اللي خلقه. شدي حيلك يا سعاد هانم. تتوقف أم الخير لبرهة كافية كي يثب الصبي عتمان -الذي ظل مرابطًا عند الباب في انتظار هذه الفرصة- ويضع فمه في أذنها، فتشهق متأثّرة: النعش طار!! وسرعان ما تدور تفاصيل المعجزة بين الأفواه، تصغي سعاد متعجبة من البيه "زير النساء" الذي تحوّل بقدرة قادر إلى ولي من أولياء الله الصالحين، ومن نعشه الذي طار وعَجَز المشيعون عن اللحاق به. متسائلة في سرّها: أهذا الذي يحكون عنه هو رضوان زوجي؟ تتمتم: له في ذلك حِكم. وتحمد الله على أن أبواب السماء لم تكن مشرعة يوم دعت عليه:

- تعيش مفضوح وتموت مفضوح يا رضوان يا ابن لبيبة.

ثم تغلبها عاطفتها ما بين التنهد والنهنهة لتفكر بالباقيات الصالحات لرضوان، الزوج الصالح...رغم كل شيء، والأب الصالح لفارس، والراعي لكل رجال درب السوالمة الذين تحيطها نساؤهم الأصيلات الآن، أفواج تذهب وأخرى تأتي، فيما تبدأ أم الخير في لضم الخبر إلي

عقد نواحها: مع السلامة يا سيدي رضوان. شيللاه يا أولياء الله الصالحين. شيللاه يا سيدي رضوان يا تقي. يا صالح. يا ولي الله. ينهمر الدمع من عيني سعاد، لكن اهتزاز فنجان القهوة في يد وجيدة هانم ينبّهها، فتلتفت وتلمح بوجهها ابتسامة ساخرة تداريها بتقريب الفنجان نحو فمها، فيما يملأ الحرج عينيها، في لمحة تبدو لسعاد مكررة، عدا أن البيه في المرة الأولى كان حيًّا يُرزق، ويرمح مثل الرهوان وراء "امرأة من الغوازي" أتت لترقص للفلاحين احتفالاً بسبوع فارس.

- الأوّلة باسم الله.

تخطو سعاد، وهي تحتضن وليدها الغضّ بفرح من صبرت حتى حققت حلم رجلها، آملة أن تنال ما تستحقه من مكانة، فبعدما ارتضت بقضاء ربّها في الحب الذي ولد واحتضر في ليلة واحدة، ثم مات وشبع موتًا في السنوات التالية، راحت تشحذ قدراتها القتالية كي لا تنهزم أمامه أو أمام غريمتها. تبحث عن شيء يميّزها عن هذه المميَّزة في كل شيء تقريبًا، تجهد نفسها في قراءة أخبار السياسة والبورصة، كي تسردها عليه، متحفزة بارتداء أكثر ثيابها أناقة لتصبح في مثل رقي سيدات الصالونات الثقافية اللاتي تملأ صورهن الجرائد، لكن قلبها يكاد يقع في رجليها عندما يستوضحها عن معاني وتفاصيل ما تقوله، تنكشف أمامه أكثر من

مرة قلّة فهمها، لكنه يُسرّ، وتحسّ بأنه راقه أن تقرأ من أجله، تحسّ بقلبها يدقّ فتنهره بشدّة لن تندم عليها، لأن البيه ينتبه، في كل مرة، فينهض فجأة، متعجلًا، وكأنّ الوقت المسموح لها به قد انتهى، يخرج ويغلق الباب دون أن يلتفت للقلب الذي يختلج وراءه، وفي كل مرة تخبط رأسها في الحائط بعد خروجه، لأنها لا تملك أن تفعل ذلك بقلبها! تدلف إلى المطبخ كي تستغرقها مهارتها في تجهيز الأطعمة آملة أن تنجو من كآبة لم تكن تتوقعها، ورغم أن خبرتها لم تخذلها، وكاد البيه وأصحابه أن يأكلوا "صوابعهم" وراء أكلها، فإنه يعود ويخبرها بأن رائحة التقلية في ثيابها منفّرة، ويلومها لأنها تستكثر على نفسها "عيشة الهوانم"، وينبهها إلى ضرورة الحفاظ على مسافة آمنة بينها وبين الخدم، حنثت باليمين وبكت، صامت "كفارة" ثلاثة أيام، وأخفقت، رغم ذلك، في التخلّص من الشعور بالمهانة من أنه اعتبرها أقرب إلى الخدم، من أنه لا يرحم ولا "يخلّي رحمة ربنا تنزل"، فلا تركها "ست البنات" التي كانتها وارتضتها بل أحبتها أيضًا، ولا منحها الفرصة لتصبح "هانم" حقيقية كما يريدها أن تكون، ولا حتى أعفاها من تعليقه الجارح، أما خسارتها الحقيقية فهي تبدد حلمها بأن يحبها، ذات يوم، كما أحبته، خسارة صارت تشحن روحها بالهواجس التي انفجرت في وجهه ذات ليلة، فراح الكلام الذي علق، شهورًا طويلة، بلسانها ينطلق دفعة

واحدة، حملق فيها مذهولاً ثم غادر الغرفة، قضت أسبوعي قطيعته تقرأ "لطائف النديم" فتضحك وتبكي وتفكر، وتسعى للخروج، ولو بأفكارها، من أسر السراية بمعايشة أحداث البلد ومشاكل الناس كي تنساه، أو على الأقل تروض نفسها على غيابه، عدا أنها كلما نظرت من ثقب الباب ورأته واقفًا عند باب صافيناز تعود إلى قضم شفتها السفلى بأسنانها، حتى تحس بطعم الدم، إلى أن عانده الحظ ووافقها بحملها بفارس الذي أعاده إليها ألطف مما كان، تحدّج بعينيها انتفاخة أنفه في التبهّل وهو يلمس بطنها النامي، وتحفظها بذاكرتها كأجمل صورة له، وأكثر ما ستفتقده منه، ينحني ويقبّل كفّ الوليد، ثم يأمر بمدّ الولائم يوم سبوعه، وبالترفيه عن الفلاحين بالغناء والرقص، وفيما هي تعبر فوق المبخرة حاضنة وليدها إلى صدرها، تدخل "زبيدة" خادمة صافيناز، تقهقه من ركضه وراء "الغزية".

على إيقاع صوت "الداية" تعاود سعاد الخطو، بظهر منحنٍ:

- والخامسة حصوة في عين كل من شافه ولا صلّى.

تراها شفاعة تترنّح فتُجلسها، فيما تنفرج شفتا وليدها الرقيقتين بحثًا عن حلمة ثديها، وبأناة راحت ترضعه، عاجزة عن إيقاف سيل عينيها اللعين -الذي تمقته أكثر مما تخافه رغم تحذيرات شفاعة من ملوحة

الدمع التي تجعل الوليد يشب عصبياً ضيق الحلق- أمام ضخامة الفضيحة، وبعد ما سمعته من تفاصيل مخزية، فالمرأة "الغزية" لم تخنِ أمام البيه، بل قاومته إلى حد انقطاع أنفاسه من الركض وراءها بحذاء ضفة الترعة، ورغم إصابته بضيق في التنفس فإنه لم يرتدع، ظل يلاحقها حد أنها جازفت بإلقاء نفسها في الترعة هربًا منه، وكان على وشك القفز وراءها، لولا أنه استعاد رشده في اللحظة الأخيرة، ربما فكر في ضعف رئتيه أو في ضآلة جدوى تلك المغامرة جرّاء ما يمكن أن يلحق بسمعته من أذى. عرفت سعاد بعد ذلك أن رضوان بيه هو الرجل الذي يصفه أصدقاؤه المقربون بأنه صاحب رأس تطاول عنان السماء، وبدن يتمرّغ في الوحل، ممضياً أكثر وقته في اغتراف الملذات، عرفت أيضًا أنهم يذكرون هذا بإعجاب، ولم تعرف إن كان إعجابهم بسمائه أكثر أم بأرضه، أم بالكوكتيل "على بعضه"! فيما لم تبدُ صافيناز عابئة بشيء مما حدث، تفكر سعاد بأن ما يهم صاحبة الأنف المرتفع هو أن رضوان يعود لها في النهاية، مكرسًا مكانتها "السيدة الأولى بالسراي كما بحياته"، وتظل سعاد وحدها تتلقى الصدمات، وتبعاتها.

- سمعنا إن رضوان بيه من غير شر ناصح حبتين. بيقولوا رجله زلّت في الترعة.

تقول إحدى الضيفات، فتضحك الأخريات في أكمامهن، كي لا يجرحن سعاد، بينما ترفع وجيدة هانم الفنجان أمام وجهها كما تفعل الآن، وكأنها تستكثر على سعاد أن تعايش حزنها آمنة البال.

- ما الذي يجعل هذه المرأة تجترئ على الضحك في مأتمه؟ ما الذي تعرفه ولا أعرفه؟

تشعر بمكر رضوان ما زال حيًا، يغيظها ويضحك منها ويتآمر عليها.. وياما في الجراب يا حاوي.. يا ابن لبيبة... يا وليّ الله.

تسألها وجيدة هانم: وبسلامته فارس أفندي عامل إيه؟

تكتفي سعاد بالإشارة لها برأسها، ما يعني أنه بخير، ثم تنتبه إلى أنها لم تره منذ يومين كاملين، اعتادت على غياب رضوان باليومين والثلاثة، لكن فارس لا يمكنه المبيت إلا في غرفته.

- يا ترى كنت فين يا فارس؟

تأسف على كونها لا تعرف إن كان بخير فعلاً أم لا، وتندهش لأنه لم يأتِها ليتبادلا المواساة في موت أبيه، ولم يصبر على تكفينه لحين وصولها، كانت تود أن ترى رفيق حياتها للمرة الأخيرة، تودعه، تقبل جبهته والشامة الصغيرة بين حاجبيه، تشبع من عينيه اللتين أوقعتاها بحبه

ليلة الزفاف.. الله يرحمك يا رضوان. تهمس وهي تنهنه، تعرف أن فارس ما كان ليقسو عليها هكذا دون سبب قهري، فهو طيب القلب مثلها، تحمد الله أنه أخذ من طباعها أكثر مما أخذ من أبيه، تحس بالمرارة لأن البيه يتهمها، دومًا، بأنها أفسدته بتدليلها:

- إنتي خيّبتي الواد.

يقولها عندما يراه يركض في ذيلها مثل هرّ صغير. تعرف أنها كانت وما زالت تخاف عليه من الهواء الطاير ومن أبيه و.. من نفسها أيضًا، تعرف أنها كانت تحاصره بحرصها ومخاوفها، فتهتز ساقه الصغيرة إن حاول أن يخطو وهي تبادره: حاااسب. داهمتهم الصدمة عندما بدأ التكلم، تعثرت الحروف على طرف لسانه، فتضاعف استهجان أبيه من سوء حالته.

- شايفة بنت صافيناز ازّاي وابنك ازّاي؟! تفضفض لشفاعة التي تهم واقفة:

- نشوف واحد من ولاد العرب. تخبرها أنهم لا ينامون الليل، بل يقومون بمراقبة النجوم وحساب خط سيرها، يقرأون ويعزّمون، يعرفون أسرار النبي سليمان وكتابة خاتمه. تنصاع سعاد وتضع الأحجبة

على صدر فارس، تحرق أعواد البخور وتخلط الرماد ببيضة عصفور، وتطحن فوقهم اللبان الذكر، ثم تجفّف الخليط وتسحقه وتضعه تحت وسادة فارس سبع ليالٍ، وفي اليوم الثامن تحمله وتلقيه في النهر. كل ذلك لم يُجدِ شيئًا، فتضطر إلى أن توافق شفاعة التي حملت المهمة على عاتقها وحدها. تحمله كل يوم جمعة "اليوم الذي يقضيه البيه مع أصحابه" إلى درب السوالمة، وتعود به آخر النهار، تفزع سعاد من منظره المتّسخ بالغبار والطين وروث البهائم، فلا تسأل عن تفاصيل تعلم أن قلبها قد يصاب بالسكتة إذا عرفتها، لا تسأل لأن ما يهمها هو تحسّن ولدها، احتاج فترة طويلة لكنه في النهاية برأ من التأتأة وانصلب عوده، غير أن أباه ينسى، بل تكاد تشعر بأنه يستمتع باتهامها بالتقصير، وينسى أنه أورث وحيده عداوة عميقة وغامضة طاردته بعد أن برأ من مشكلته الأولى، بل ما زالت تطارده حتى الآن، وتطير النوم من عينيها، حتى بعد أن كبر فارس وصار يلبس بدلة بصديري يخفي بطياته طبنجة "متعمرة"... ترتعش فقط من تخيّلها معه. تنتبه سعاد على فردة "بَلغة" طائرة يعود الولد عتمان ويأخذها، تلمحه يبتعد عن أم الخير ويعدو إلى الخارج، وعندما تعود عيناها إلى أم الخير تلحظ في عينيها وجلًا، وبين شفتيها انفراجة مترددة كأنها على وشك الاعتراف بسر خطير، تتلعثم قليلاً، ثم تصرّح بأنهم دفنوا الباشا

تحت شجرة اللبخ!!! ترتفع همهمات وآهات وتظهر غمزات بين المعزّيات، تضطرب سعاد ولا تعرف هل تصدق هذا الكلام؟ ثم لماذا تحت الشجرة وقد عمل على توسيع مدافن الأسرة منذ عدة شهور؟ تسأل نفسها، فيما تقول أم الخير إن النعش أَبَى أن يذهب إلى الجهة الغربية "جهة الجبانة"، وأجبرهم على الانحراف نحو الجهة الشرقية حتى توقف عند شجرة اللبخ، ورفض أن "يتعتع"، فاضطروا لدفنه هناك، واتفقوا على تشييد مقام يليق به فوق ضريحه. تتساءل سعاد في سرّها: لماذا لا يدفن مع أبيه وأمه وأخته؟ لماذا يدفن وحيداً؟ عيني عليك يا رضوان. تهمس، وتندفع الدموع من عينيها وهي تصيح: فاارس.

شفاعة

مكوّمة مثل عجل ذبيح، ينزلق من عينيها سائل يشبه الدمع لكنها تعرف أنه ليس بدمع، تتأوّه رغمًا عنها، تنام على ظهرها، تؤلمها ساقاها، تنام على جنبها يؤلمها ظهرها، تخبط ركبتها وتتمنى لو تقطعها وترميها، قد تستريح من بعض ألمها. تجأر كتفها ثم جوفها، هي التي طالما كانت "تشيل الدنيا وتهبدها" بلا كلل، من اعتلاء النخلة إلى فِلاحة الأرض إلى تدوير حجر الرحاية ودَشّ الحبوب، ثم أيضًا لتّ العجين وإحماء الفرن ثم حمل القصاع على رأسها، هذا الرأس الذي يكاد ينفجر ويجعلها تلوم نفسها الآن على الوقت الذي قضته واقفة تتّم على تجهيزات الغداء للمعزّين، لكنها ما كانت لتقصّر في مأتم البيه، وما كان بإمكانها أيضًا أن تعتمد على البت زبيدة، خاصة في غياب صافيناز "إن غاب القط العب يا فار"، كما أنّها تعرف أن ولاء البت لسيّدتها وحدها، وبالفعل وجدتها

تضحك ببرود "ولا كأنها في مأتم"! أعطتها الكلمتين "اللي فيهم النصيب" ولم تغادر إلا بعدما حدّدت المهام وقسّمتها على العاملات، تتسنّد على الجدران فتلحق بها البنت قمر وتساعدها حتى ترتمي فوق فرشتها كالبهيمة تعوي ألمًا، وتتحسر على جسدها الفتي الذي كان يحمل أحلام روحها ورغباتها وهواجسها، ثم لم يعد كما كان، بل تحوّل إلى عبء على هذه الروح تتوق إلى الخلاص منه والانطلاق؛ تحسد البيه رضوان لأنّه سبقها وذهب، إلى حيث سيلتقي أحبابها، بينما هي ما زالت هنا، تكابد الانتظار وتتعفّن "حِتّة حتّة" عاجزة في هذه اللحظة عن مدّ يدها وجذب الغطاء فوق جسمها لولا طيبة البنت قمر:

- أهه. حبكته حواليكي أهه. ما تتعبيش نفسك يا عمّة. آني مليش بركة إلا إنتي.

في لحظة مغافلة للألم تفكّر بما قيل عن كرامة البيه، فتحاول أن تبتلع دهشتها وتتساءل إن كان بإمكانها أن تعزو أحد أسباب هذه الكرامة إلى موقفه النبيل معها إبّان موت ولدها "يونس" أيام الفيضان الكبير؟ عندما أوشك عقلها أن يطير وصارت موتورة من الأرض التي يزرعونها، التي ابتلع طينها ولدها، ومن الترعة التي تروي زرعهم وضرعهم، كما من دارها التي يهف كل شبر فيها برائحة يونس. كانت

فاجعتها أكثر فداحة من أن يبردها التراب الذي عفّرت به وجهها ثم سفّته مخلوطًا بالدموع، يستيقظون على نواحها ذات صباح، وينقذها أحدهم من الغرق في الترعة في صباح آخر، وفي الليل تهرول إلى قبر يونس، تفزع الكلاب من نحيبها وتطلق نباحًا يوقظ النائمين، الجميع كانوا يعذرونها، لكن جنون حزنها تحوّل إلى مصدر للأرق في ليالٍ كانت الأرض فيها تحتاج جهد الجميع وسواعدهم وطاقتهم، لذا همس البيه في أثناء مروره على الترعة في أذن الشيخ "سالم الكبير"، الذي تسنّد على عكّازه حتى وصل دار شفاعة فدقّ الباب بالعكاز وقال قبل أن تفتح: قبل طلعة الشمس تكوني لمّيتي خلقاتك يا بنية.

في قرارة نفسها شعرت، في ذلك الوقت، بأنها مدينة للبيه بحياتها، لأنه أنعم عليها بغرفة صغيرة وثيرة تتوافر فيها كل أسباب الراحة، لها وحدها، في السراية -التي لم تطأها قط أقدام رجال السوالمة- تتقلّب بارتياح فوق فراشها الناعم، وتخزّن ثيابها بنظام وأبّهة في دولاب كبير، غير أنها رأت في مرآة التسريحة وجه امرأة منذورة للحزن، وحيدة في مواجهة كربها، تعاني نفس ما عانت في الدرب، فكرت أن تعتذر للبيه وتعود، عدا أنها رأت في هذا الموقف جحودًا كاملاً، كما يصعب عليها أن تعود، فحتى لو احتملت المكان ما زال شيء داخلها يلوم السوالمة، لأنهم ضحّوا برجلها "محمود" أبي يونس قبل عدّة أعوام، فعندما طلبت

السلطة متطوّعين من الشبابِ في فرق مكافحة الجراد، كتبوا اسمه في أول القائمة، لا يبرؤهم بنظرها كونهم يرونه ضخمًا "طولا بعرض" صالحًا لهذه المهام، فقد رجع جميع من ذهبوا عداه، تلومهم أيضًا لأنهم عندما اجتاحهم الفيضان كلّفوها، وكل نساء السوالمة، بحفر الأرض وكبش التراب وعجنه بالماء في القصاع وتقديمه للرجال الذين يصدون الفيضان بأجسادهم، كي يدعموا بالطين أعواد البوص التي غرسوها لصد المياه، تنهمك في العمل وتسهو عن يونس، ثم تعود فلا تجده، تبحث وتبحث، بينما يجده أحدهم غاطسًا في حفرة الطين! لو قدّروا ظروفها.. لو لم يشغلوها عن ولدها.. لو.. تستغفر الله، وبعد الأخذ والرد مع نفسها لم تجد سبيلاً خارج السراية، فتحت باب غرفتها وبدأت الإشراف على عمل الخدم، ثم تدريجيًا صارت تفضّل أن تقوم بنفسها ببعض الأعمال التي لا يعجبها أداؤهم لها، كما وجدت بعض السلوى في التنظيف والترتيب والتلميع، ألهتها السراي، بغرفها وقاعاتها وأروقتها، فمساحتها الضخمة تسرق النهار كلّه في توضيبها، تنظر لكريستالات الثريات الفاتنة، ثم تتأمل قطع الأنتيكات الدقيقة وهي تلمعها بـ"الصوفة" وتنقم على جهد مبذول "يكفي لحرث فدان كامل يا وِلداه!!"، على منحوتات هشة، صغيرة لا تملأ راحة يدها، لكنها تملأها بالذعر من أن تفلت من يدها فتقع وتنكسر، تستحي أن تسأل عن المجانين الذين يُنفقون أعمارهم

في تصميم هذه الأشياء، ثم تنزع عنهم صفة الجنون، بعدما تعلم أسعار هذه الأنتيكات، وتلصقها بأولئك الذين يبذلون عافيتهم وأعمارهم في مناطحة الأرض الصمّاء ثم لا يجنون ما يجعلهم ينامون شبعانين -تزفر بمرارة- لأن ثمرات شقائهم تستقرّ في حجر البهوات هواة التحف والأنتيكات أو.. هواة الخيول، ينتهي بها الطريق إلى الأسطبل، مفتقدة نقار دجاجتيها -وركض يونس وراءهما، وتقليده المتميّز لصوتيهما- ونهيق الجحش عند الباب، تجنّبت كلاب البيه خوفًا من نباحها الفاضح، ووقفت أمام حصانه، مسّدت بيدها جبهته ورأسه، بداية من المسافة بين العينين، فاسترخت أساريره وفقد وجهه غطرسته، وأرسل صوتًا يبدو طفوليًا رغم غلظته، أخفت تعلّقها بالحصان، وحرصت على تنفيض ثيابها من آثار الأسطبل، كي لا ينتهز الفرصة أحدٌ ويكلّفها بخدمته، كي تظل تفتخر في كل مناسبة بأنها تشتغل في السراية "بمزاجها" -لأن "الإيد البطالة نجسة" و"الحركة بركة"- وأن البيه لم يعاملها أبدًا كخادمة، بل أكرمها كواحدة من العائلة، وأن الانضباط، والقسوة المشهور بهما أتاحا بجوارهما مكانًا في نفس القلب لهذه الشفقة التي اختصّها بها، عدا أن كل مجهودها لم يزعزع الجفوة التي لاقتها بها، منذ اللحظة الأولى، صافيناز هانم، بل زادها، تشير لشفاعة وتأمر البيه بألا يسمح لهذه الفلاحة بالاقتراب من شيء يخصّها، فعند قدميها تقعي "زبيدة" البدوية

التي لا تكلّ من خدمتها، ولا تضيق بتكبّرها، ولا بأنفها المرتفع الذي لم يحنِه، قليلا، سوى عجزها عن إنجاب ولد، ينظر البيه لابنته من صافيناز فيكتنفه الكدر، تحدس شفاعة بأنه يخشى مآل ثروته إلى رجل غريب، وتعرف من الخادمة "زبيدة" أن صافيناز هانم تبحث للبيه عن "عروسة.. بنت بنوَت" ذات حسب ونسب، لكنه يخشى المجازفة، فيعدل عن الفكرة حتى تسمع أحد أصدقائه يخبره عن ابنة عمّه الأرملة التي تحمّلت وحدها مسئولية دستة من الصبيان حتى صاروا رجالاً.

- ما شاء الله! ١٢ دكر من بطن واحدة! يعلّق رضوان مبتسمًا.

- لأ عندها كمان سعاد. آخر العنقود. بنوتة صغيرة.. إنما إيه! وشّها زي فلقة القمر.

قبل أن ينقضي النهار كان رضوان يشرب القهوة في بيت أسرة هذه الأرملة، ليأتي بعد أيام بسعاد الصبيّة السمراء المصرية مائة بالمائة، التي ظلت صافيناز لسنوات طويلة تصفها بأنها "عيّلة..ماتعرفش تنزع شعر إبطيها أو عانتها"، زاعمة أنها لا تمثّل تهديدًا لامرأة محنكة مثلها، بل هي زوجة بصلاحيات غاية في الضآلة، كان أحدها أن تكون شفاعة وصيفة خاصة لها، سعاد الهانم التي يُعمل لها الآن ألف حساب كانت عيّلة "لا تزيد على عمر ابنها يونس سوى قليلا"، تنظر لها شفاعة بإشفاق

وهي "تهري وتنكت" ويجفّ عودها، لكن هذا الإشفاق لم يقلل من ولائها لمن كانت تعتبره منقذ حياتها، سواء على حق أم باطل، تبرّر تصرفاته وتلوم سعاد، لحظة مولد فارس طارت من الفرح لتعلّق "خمسة وخميسة" على باب السراي، وأشرفت بنفسها على ذبح ثلاثة خراف، عرض إلية كل منها خمسة أشبار، وتوافد السوالمة يهنئ رجالهم البيه وتزغرد النساء ثم ينقضّون على المحمّر والمشوي، حتى امتلأت البطون وتكوّمت الفضلات في الطرقات، وانسدت الترعة، وأصبح الحال مهددًا بتفشي الأوبئة، رفض البيه توسّل سعاد باستئجار عمال لكسح الفضلات التي تخنقها رائحتها، وفرض على الأهالي أن يقرصونها ثم يجففونها ثم يحفظونها عملا بتوصية السلطات البريطانية، التي حرصت على إرساء قواعد اقتصادية جديدة تعتبر لكل شيء قيمة حتى الفضلات، إلى حد اعتبار كل رائحة خبيثة في البيت أو الشارع تعني خسارة سماد يفيد التربة. تطبطب شفاعة على سعاد وتبرّر تصرف البيه:

- يُه! ما هو قال لك دي أوامر الإنجليز.

وليمة السبوع التي أنهاها البيه بفضيحته مع الغزّية لم تكن الأولى ولا الأخيرة التي تثير بلبلة، ثم تدخل طي النسيان بفضل منجزاته البيّنة في صيد فرص شراء الأراضي المرهونة للمرابين بأبخس الأسعار، وفي

تحقيق مكاسب خيالية من خوض المزادات. هو الآن بين يدي الله ولا تجوز عليه إلا الرحمة، لم تسمع البت زبيدة تطلبها له وهي تجهّز غداء المعزين، بل تجاسرت وأطلقت شهقة رعناء عندما قالوا إن النعش طار، ولِمَ لا؟ فرحمة الله واسعة، قد تمحو ذنوبه كلها نظير عمل خير واحد، لا تعرف تحديدًا ما هو هذا العمل الذي يمكنه أن يمحو كل ذنوبه، الله أعلم بالتأكيد، ويكفي أنه ولي نعمتهم جميعًا.. في السراية أو في الدرب، فلِمَ لا يكون من الأولياء الصالحين! تحسم حيرتها بأن ما يهمها الآن هو أن يليق المأتم بمقامه الرفيع، وقبل كل ذلك أن تنسى كل ما من شأنه أن يلوّث ذكراه.. "اذكروا محاسن موتاكم"؛ في طريق البحث عن محاسن البيه أمكنها أن تعثر على لمحة أنصع من أن تنساها.. كان يقرأ الجرنال باستغراقه المعهود الذي يجعلهم يتجنّبون قطع حبل أفكاره، كي لا ينالهم غضبه، وقفت طويلاً، في مرمى بصره، ترجو لو يبعد الجرنال لحظة عن عينيه حتى آلمتها ساقاها، ذهبت ثم عادت ووقفت نفس الوقفة، وربما نعست لحظة وهي واقفة، لأن صوته هو الذي جعلها تفتح عينيها: عايزة حاجة يا شفاعة؟" تلعثمت قليلا حتى استجمعت شجاعتها: دي البت عمشة.

حدق في عينيها مستفسرًا. بصعوبة نطقت: ليلى.

دخلت "ليلى ابنة لِيلة" سراي رضوان بيه في شارع محمد علي، بعد أعوام من استقرار سعاد وفارس فيها، مسبوقة بصِيت ذائع، لا يبدأ ببنورة دولاب الفضية التي حولتها إلى كومة تراب، ولا تنتهي بركلها صافيناز ركلة أوقعتها على الدرج وتسببت في كسر ساقها واستدعاء رجل ملثّم ذي ساعدين قويين برما حول الساق المعطوبة جبيرة عريضة، منعتها من الحركة شهرين كاملين. انبرت شفاعة تخبئ كل التُحف والأنتيكات وكل ما هو قابل للكسر، بل أوصدت أيضًا أبواب الغرف في وجه "ليلى".. بنت البيه.

تنهّدت سعاد بأسى:

- والنبي لولا الملامة لكنت..

ردّت شفاعة مقاطعة:

- إيه؟ نرميها في الشارع! يا عيب الشوم! مهما كان دي بنته.

- بنته!!

تعرف أن هذه العبارة ستقضم راحة بال سعاد أيامًا بل أعوامًا:

- بنته ازاي؟ ازّاي بنت الغزيّة تبقى بنته؟

بيد مترددة تقترب شفاعة من رأس البنت، تفلّيها وتلتقط القّمل الذي كان يجعلها لا تكف عن هرش فروة رأسها، لكن يدها تتراجع على الفور، بل إنها تقفز خطوتين إلى الوراء كي تتقي الصفعات التي انهالت عليها، والتي لم تمنحها الفرصة لتعرف إن كانت الصرخة غير الآدمية التي خرقت أذنيها في تلك اللحظة قد انبعثت فعلا من حنك هذه البنية الصغيرة أم من مكان آخر؟

بعد محاولات وتراجعات، اختبرت فيها شفاعة حدسها، نجحت في ضمّ البنية إلى صدرها مواسية:

- يا ضناي!

وراحت تفكر في الطريقة التي ستخبر بها البيه: البنت عمشة.

- نزل عليه سهم الله يا عيني! تحكي لسعاد المندهشة:
- معقول! يبقى من حبّه في الأرمينية!

أخفت عنها كيف ارتجف الرجل الذي لا يختلف اثنان على صلابته رجفة أبٍ حقيقي، فوجئت به صبيحة اليوم التالي يضع طربوشه فوق رأسه ويأخذ ابنته من يدها ليطرقا باب عيادة الطبيب الألماني المتخصّص بأمراض العيون، الذي أخذ يفحص عينيها طويلا

بعدسة ومنظار صغير، ثم كتب لها وصفة دواء تقوٍ للإبصار، ونصح بتغمية إحدى العينين كل أسبوع بضمادة نظيفة وحانية لمنح الأخرى المكشوفة فرصة للتقدّم. ترمق شفاعة سعاد وهي تربّت كتف البنت ذات العين الواحدة، تنحني مقتربة من خدها كأنها ستقبّلها، ثم تفرد عودها وتتراجع للوراء كأن شيئًا قرصها. تدرك ترددها بين قلبها العطوف على الصغيرة وكرامتها التي يجرحها أبوها كل لحظة. لم يذكر شيئًا عنَ "ليلة" أم ليلى، كيف التقاها؟ متى تزوّجها؟ أما لماذا؟ فالإجابة حاضرة، دومًا، على طرف لسان سعاد: ما هو الطبع غلاب وديل الكلب عمره ما يتعدل.

تراقب شفاعة القلب الغضّ وهو يقسو، وتخشى أن يتحجّر، تشفق عليها، عدا أن لسانها لا يتوقف عن الانحياز للبيه:

- اللي تغلب به العب به يا ست الستات. قلت لك ما يربط الراجل إلا دول ودول.

تضحك مشيرة إلى ثدييها وردفيها. تلتقط سعاد فردة القبقاب وتقذفها بها:

- عايزاني أعمل له زي الغوازي يا بنت الـ...

من "زينة" ملكة الغوازي على سن ورمح تسمع شفاعة حكاية السكين الذي كاد البيه يقطع به إصبعه وهو يقشّر البرتقال عندما رأى "لِيلة" أول مرّة:

- الله الفنان! لازم تكون الأسماء الحسنى ١٠٠ مش ٩٩!

"تستغفر شفاعة الله ثم تعاود الإصغاء"

- عندك يا رضوان بيه. إلا دي. البنات قدّامك أشكال وألوان. لكن دي مش منهم يا روح الروح. دي طاهرة زي الملايكة. ثم وهي تشير إلى قلادتها:

- حارساها العدرا مريم بجلالة قدرها.

استمر البيه يغالب شوقًا، فضحته عيناه فترة طويلة، ثم خرّ في النهاية:

- ما الحلال مفيش أحسن منه يا زينة.

تفاجأت زينة بطلبه ثم فاجأته:

- هه! أيوه بس دي أرمينية يا رضوان بيه.

- إيه! أول مرة تقولي الحكاية دي!

- ما جاتش مناسبة. بلديات "إلياس" الصرّاف باشي، الولية مراته ماطاقتهاش، غيرة نسوان بقى، إنما والختمة الشريفة أنا بحافظ عليها زي عنيا. محجّزة عليها زي ما إنت شايف. مفيش عين شافتها إلا.. عينك إنت. إكمنك يعني في عمر أبوها.

ينتفض غضباً: أبوها!

تستطرد: وكمان على ذمّتك اتنين نسوان بينضرب بجمالهم المثل.

يسألها: وعلى كده بيدفع لك كويس؟

- مش عشان فلوس إلياس أبداً. صحيح بيدفع كتير، بس والختمة الشريفة أنا حبيتها. أصلها هادية وطبعها حلو. ملاك.

- وأبوها؟

- الله أعلم بيه إن كان حي ولا ميت. أمّها هجّت بيها من تركيا لما العسس ولّعوا في ديارهم. عاشت مع أمّها كام سنة في الخيام اللي نصبها يوسف الناظر للأرمن في حوش المدرسة. ولمّا أمها ماتت خدها إلياس.

يهمهم رضوان متأثراً، وتستطرد زينة بأسى:

- يا حبّة عيني، البت لغاية دلوقتي بتهب مفزوعة من النوم وتفتكر الحريق.

- تكونش مجنونة؟

- إيه؟ فشَر. بقول لك ملاك.

حرّك المنشة أمام وجهه مرتين متتاليتين، ثم ابتسم:

- أرمينية؟ برضك ما يمنعش.

بعد شهر من عقده عليها، أعادها من البيت الذي أسكنها فيه إلى خالتها:

- بنتك عندك يا ملكة.

صاحت وقد وضعت يدها في وسطها ورفعت حاجبيها استنكارًا:

- ليه يا عُمر! كان لعب عيال ولاّ إيه؟!

يملأ الغضب عينيه ثم يخرج صوته هادئًا:

- مقدّر ومكتوب يا زينة. البت عيلة ما لها في الجواز.

لرضوان بيه خبرة في التعامل مع النساء تدركها زينة، لكن براءة البنت جعلتها تتصوّره: "راجل قليل الربابة يا خالتي". فهمت من شكواها ما عاناه البيه في محاولة الوصول إليها مرّات بالتودد والحيلة،

ومرات بالشدّة والقسوة، فشلت كلها إلا مرة واحدة، مرّة واحدة نسيت فيها البنت أن تعيد القلادة -التي صارت تحمل رأسين: ما شاء الله والعذراء- لموضعها حول عنقها.

- مرة واحدة! تردّد زينة في نفسها، متحيّرة في اختيار الكلمات التي ستخبره بها عن اكتشافها لحبل البنت بعد شهرين من إعادته لها، وكعادتها قالت ضاحكة:

- عيارك عمره ما طاش يا رضوان بيه.

ثم وهي تملّس على أسفل بطن "ليلة" الذي استدار قليلا.

- يتربّى في عزّك يا رضوان يا ابن حوّا وآدم.

أسدل رأسه دون أن يبتسم.

قصر إنفاقه على مزرعة صغيرة بعزبة قريبة من درب السوالمة للزوجة الشابة الحبلى، برفقة خادمة عجوز. تمصمص شفاعة شفتيها هامسة: برضه كتّر خيره إنه ما نكرهاش. تشهق زينة مستنكرة: ينكر مين يا عمر! البلد كلها عارفة إن زينة ملكة غوازي القطر كله لا يمكن تكذب... آه، ده إلا الكذب.

تضحك شفاعة وهي تستمع لحكاية الملكة، وتتذكر الخرابيش والسحجات التي رأتها في وجه البيه ويديه قبل عدة أعوام، وهي تصب الماء ليتشطف، حدقت فيه مندهشة: سلامتك يا بيه. فرد مفسراً:

- فرسة بنت هرمة. جامحة. بهدلتني.

تهمس شفاعة مندهشة من خبث البيه:

- يا سلاااام يا ولاااه! ده ولا في الخيال!

تتنهّد وهي جالسة في الحنطور بين الملكة زينة والأرمينية "جوليا" ابنة خالة "ليلة"، التي أجلست "ليلى" على حجرها، تقبّلها وتهمس في أذنها، فيما تسرد الملكة حكاية رضوان وليلة. تهدهد شفاعة ظهر ليلى: بس البت حلوة ما شاء الله. زي أمها بقى. تتنهد الملكة: هه! أمها! دي كانت عجبة سبحان الخالق! البت دي ولا تحصّل ربعها. بس تقولي إيه في قسوة القلب! رماها وهي حبلى لولية عجوزة لا بتشوف ولا بتسمع، ولا حتى حسّت بالغلبانة اللي الطَلق قطع نفسها، لولاش بس إن البت دي مكتوب لها تشوف الدنيا!! علشان كده حس بالذنب وصمم يدفنها في جبانة عيلته. وقال إيه لغاية دلوقتي كل ما تيجي سيرتها عينه تدمّع. آااه يا ناري! أنا لو عارفة إنها هتهون عليه كده والله ف سماه ما كنت سيبتها له أبدًا. تستدرك شفاعة هامسة في أذن زينة: الدنيا ليّلت. تلكز

الملكة بطرف عكازها الذهبي ظهر العربجي الذي يلتفت بجذعه نحوها، فيظهر كمه الأيسر خاليًا، تراه شفاعة فتخفض عيناها بجزع، فيما هو يجذب سرج حصانه.

تطمئن على استقرار ليلى في فراشها، ثم تختلي بنفسها في غرفتها، لتحصي المال الذي أصرّت الملكة أن تعطيها إياه رغم رفضها.

عندما تشعر شفاعة بدنو أجلها وتُسائل نفسها عن كفتي ميزان أعمالها، لن تضع بين سيئاتها هذه النزهة القصيرة، أو هذا السر الذي تعاهدت عليه أربع من بنات حواء، مختلفات في أغلب الأمور، داخل حنطور يقوده عربجي بذراع واحدة، ولا اصطحابها لفارس إلى درب السوالمة في ليالي الجُمع التي يقضيها البيه لدى أصدقائه، عندما كانت تحرص في الطريق على استبدال ثيابه الوثيرة بخرق شبيهة بتلك التي تُغطّي أبدان الصغار هناك كي يقبلوا اللعب معه كواحد منهم، يقضي الساعات في الركض و"البلبطة" مع العيال في العين، يرمح فوق ظهر الحمار أو يختبئ بين مخالي التبن، أو يقفز في بورة قمح أو مسطاح ذرة، يرى ويسمع، يُضرب فيتعلّم أن يَضرب، يقع، يبكي، فتتركه حتى ينهض وحده، ينشد مع المدّاحين في أيام الدميرة:

صلاة الله عليك.. يا سيد الأبرار

جبريل شق صدره ملاه علوم وأسرار

ما تنسوها فضايل الأربعة الأحرار

أبو بكر وعمر وعثمان مع الكرار

في طريق العودة تعيد لبدنه ثيابه الأصلية منبّهة إياه:

- عملتوا إيه؟ سمعنا المداحين. سمعنا المداحين وبس. فاهم؟

لكنه يناكفها ضاحكًا: أيييوه. سمعنا المداحين ولتّينا العجين وغطسنا في الطين.

تزجره ضاحكة: اخرس يا ابن الشياطين.

ما كان البيه ليوافق على هذه النزهة، لذا أخذت فارس دون علمه، ومن دون تأنيب ضمير، فقد كانت سعاد موافقة على أمل تحسّن ولدها، وهذا ما حدث، أما مال الملكة زينة فلا تعتبره ذنبًا كبيرًا، لأن قلبها أخبرها أن الله واسع الرحمة وسيسامحها، وأنه يعلم أن هذا هو أول مال يخصّها تمسكه في يدها، اعتادت سعاد أن تعطيها المال لشراء الطلبات، تنفق ما تنفق وتعيد الباقي، لذا ضعفت أمام مال لن تعيده لأحد، سيبقى معها، تضغط على مالها في سيالتها، فرحة، تسير في الأسواق سير المتنزّه الحر لا سير الخدم، ثمة فرق حدست أن المال "مالها" أظهره في

عينيها لأولئك المتلصّصين على النساء، أو أظهره في صوتها وهي تشتري حلوى "غزل البنات"، فحرك شيئًا في الجدع "مرسي" الذي يعمل بخان البهار، لأنها عندما عبرت العتبة رأت في عينيه نظرة لم ترها من قبل، وعندما أعطته المال وطلبت أن يزن لها أوقية "مستكة"، حمل مغرفته الصغيرة، ثم توقف وأخبرها أن المستكة "شمت" من الزعفران، ردت:

- مش مشكلة. بس شهّل الدنيا قربت تمسّي.

مشى نحو باب بآخر الدكان وأتاها صوته:

- هجيب لك من الجديد أحسن. لسّه واصل.

بعد قليل نمى إليها صوته من الداخل: تعالي شوفي ده طلبك ولا لأ؟ شعرت من صوته أنه يكذب، مشت وراء صوته الذي تعرف أنه كاذب، فوجدت نفسها في مكان شبه مظلم مكتظ بالأجولة يفوح برائحة كثيفة ومستفزّة للبهارات، وقبل أن تتبيّن هيئة مرسي، كان قد أغرقها أحضانًا وتقبيلاً، جاست يده بكل جزء بجسدها، فشعرت بالغيبوبة لحظات، قبل أن تنتفض، وتفلت منه وتجري إلى الخارج. فيلحق بها بعد دقائق محتقن الوجه، يدخل الدكان بضعة زبائن، فتنتهز الفرصة وتطلب المال الذي أعطته إياه، وتصرّ: شهّل شهّل. لأنها خافت

أن يصرف الزبائن أولا. طوال تلك الليلة لم تستطع أن "تتلم على جتتها"، فاجأها ضعفها ولامت نفسها على الدقائق التي قضتها في الغيبوبة "المذهلة"، ضحكت غير مصدقة أن الأنثى التي بداخلها لا تزال حيّة، وبكت لأطياف أحِبتها، في اليوم التالي تتوقّف عند العتبة، بسحنة سعت لكي تبدو غامضة، لا مشجّعة ولا رافضة: خدتني على سهوة يا ابن الكلب. كان لديها فضول لمعرفته، فسعت لاستفزازه، لكنه يبادرها معربًا عن استعداده لدفع المال لها، لو وافقت على زيارته في موعد يحدّده من كل أسبوع. تمشي بألم في صدرها كأن الجدع "الخسيس" طعنها بسكين باردة، فالمال الذي منحها إحساسًا بآدميتها ولو للحظات، عجز عن أن يحمي كرامتها، فباقي كلام الرجل عيّرها بأنها:

- "حياالله" خدّامة. وأكيد البيه مش هيبقى قدّامه الحلاوة دي وما يدوقش. يهمس بلعاب يتطاير مع الكلمات ويثير اشمئزازها.

تخرج في اليوم التالي لا تعرف عمَا تبحث، تحاول التشبّث بطيف يونس فيفلت منها، تمشي وتمشي، تتأمل الكاكيت المعروضة للبيع، مواء مُلح لقطة، لبن انسكب على الأرض وحسرة بعين عجوز أفلتته قِدرتها، تمشي، مسكونة منذ اليوم السابق بهاجس امرأة تاهت عن حقيقتها، وبدا كأن العالم كله يغالطها، ويقول إنها لا شيء، غاضبة، تركل

الأرض بقدميها، لفح كتفها جانب كبوت حنطور عبر بجوارها، فالتفتت واندفعت بالسباب:

- ما تفتّح يا أعمى يا ابن الـ...والـ...

عندما تسأل البنت قمر شفاعة عن شارع محمد علي ونزولها الأسواق التي تعج بالرجال يروق لشفاعة أن تجيب: رجّالة إيه!! كلهم كلاب ولاد كلاب. لن تقول إن أحدهم أحبّها أو أنها أحبّته وتزوّجته "ساعة زمن"، لأن إرادة الله قضت أن يتوقف الحنطور وينزل العربجي ويلتفت، غاضباً، نحو المرأة السبّابة ولما يقترب ترى كمه الفارغ فتصيح:

- يخرب بيت أبوك! هو إنت؟!

تركب الحنطور وحدها هذه المرة، ومرّات تالية كثيرة، في نزهات مبهجة، يفرّجها "منصور" على أماكن لم ترها، يتكلمان أحيانًا، يتشاركان الطعام والضحك، والبكاء أحيانًا، يصبح عارفًا بكل شيء عن يونس ومحمود والفيضان الكبير ودرب السوالمة وسرايات البيه ومدرسة ليلى، وغراميات فارس، كما يعرّفها إلى حصانه -بلدي، ليس سليل عرق نبيل كحصان رضوان الذي تركته في العزبة وآلمها فراقه، لكنه، على غير المتوقع، يمتلك ترفّعا وشموخًا، لا يأكل إلا قليلا، عدا أنه لا

يقبل العفن أو الفاسد، لا يطيع خوفًا بل تجاوبًا، يعرف الوجوه ويختار أحبّته- ثم يحكي لها عن حياته، وعن فقد ذراعه، وتمتد بين ذلك فواصل من القبل والتلامس الخفيف ثم الثقيل، يجفف منصور عرقه:

- ماتآخذينيش يا ست شفاعة. ماقدرتش أمسك روحي.

- بعد إيه بقى! ده إنت قطّعتني يا راجل! أمال يا خويا لو كنت بدراعين!!

ترد بدلال. لو سأل أحد شفاعة عما أعجبها في العربجي منصور، وجعلها تتعلّق به إلى هذا الحد، لقالت: أصله راجل محترم بحق وحقيق. تعرف أنها إجابة مثيرة للسخرية، راجل إيه؟ محترم ازّاي؟ ستقول: أصله قدّرني. حسّسني إني هانم، رغم إن الكلمة دي عمره ما قالها. كانت مسحورة بوداعة طباعه ولسانه الحلو، حتى فاجأها يومًا:

- أنا رايدك في الحلال يا شفاعة.

فكرتها عن الحب هي أنه مهما كبر، قصير العمر، عطر سريع التبدد، تنشّقته حتى نخاعها، حارًا مجتاحًا مهِدًا مع محمود، عندما كانا يتحيّنان الفرص للانفراد ببعضهما، ثم صارا يتحايلان لأجل التلاقي حيلا مكشوفة، حتى أكل الناس وشّ أبيها: جهاز إيه! جوّز العيال بدل

الفضائح. استعادت عشقها لمحمود بعد موته، وندمت على النقار اليومي والتحفز الغبي بعد الزواج، عندما توارى الحب وراء الشقاء والضنى في زراعة الأرض، من طلعة الشمس حتى غروبها، وصولا إلى الطبلية التي تجرح برقّة حالها المعدة الخاوية، شيئًا فشيئًا بدأ كل منهما يفشّ همه في الآخر، وتحوّل الحب إلى صراع ضارٍ. تتذكره آسفة، تخفق في تخيل حياتها خارج السراية، تخشى أن تجد نفسها فريسة للعوز والمخاطر التي تكفل لها السراية النجاة منها، وبعد تفكير طويل تحيّنت الفرصة للقاء سالم الكبير، ورجته أن يطالب البيه بأجر خدمتها لأسرته طوال هذه الأعوام، أرادت منصور كاملا، وأرادت قدرًا محدودا من المال يكفل لها العيش والموت مستورة. استنكر الكبير سؤالها، فهي غير محسوبة كخادمة، بل تعيش معززة مكرّمة مع أسرة البيه لا ينقصها شيء، أفهمته أنها تصحو من الفجر بينما هم نائمون، أنها تعمل مع الخدم وتشرف عليهم أيضًا، أي تتحمّل المسئولية، وتستحق أجرًا ولو بخسًا، ولو نصف أجر، هدّدته بأنها ستفاتح البيه بنفسها إن لم يفعل. يرفع الكبير يده ويصفعها على وجهها غاضبًا، ثم يطأطئ رأسه أمام البيه الذي استنكر فكرة الزواج لأنها تقدّمت في العمر، ولن يسعى للاقتران بها إلا طامع، كما استنكر أن تنسى يونس وأباه، ولم يعطِ الكبير قرشًا، بل أخبره أنه كتب باسمها فدّانًا "بيعا وشراءً" تحسّبًا لتقبلات الدهر. لم ترى

العقد ولم تأخذ قرشًا يرحمها من الإحساس بأنها رهينة لخدمة الأسرة، أو بأنها من أملاك البيه المولع بجمع التحف والخدم والعبيد والزوجات، ولم نتوقف عن سبّ سالم الكبير، في سرها، لأنه خذلها هذه المرة أيضًا، البيه من جهته لم يفاتحها في الموضوع، بل أحضر عبدًا نوبيًا مخصيًا -بدلا من الآخر الذي تصدّق به وأرسله للخدمة بالكعبة المشرّفة قبل سنوات- ليقوم بمشاوير الأسواق والخدمة في البيت إذا احتاج الأمر، أخبرتها سعاد أن البيه أراد أن يريحها من الخروج. حائرة، هل تخرج وتخسر الفدّان وتخاطر بالزواج من عربجي لا يضمن قوت يومه؟ خافت، ثم تحايلت مرة وخرجت، كان منصور في انتظارها، لم يكن قد يئس بعد من خروجها، ركبت وشدّ سرج جواده، ثم جذبها إلى صدره عندما صارا وحدهما، فرددت: أُشهد ربي أنك زوجي، ردد مثلها، وعادت بعد ساعة للسجن "الاسم الذي أطلقته على السراية بعد تلك الساعة"، أقنعته أن ينتظرها في الخميس الأول من كل شهر، إلى أن تحسّن ظروفه، أو تحصل شي على حقّها، ومن أول شهر لم تجده بانتظارها، بحثت، سألت، نادت، بكت ثم عادت إلى السراية، وبعد مرور أشهر بنفس الاختفاء لم تعد تنتظره، بل صارت تغربل الأرز وتطهو اللحم الذي يحضره جعفر المخصيّ من السوق، بعدما يوصل فارس إلى مدرسته في درب الجماميز، وعندما تسمعه يغني:

عاشق يقول للحمام ادّيني جناحك يوم
أطير به في الجو وأروح للي أحبه يوم
آخد وداد عام وأرجع يا حمامي في يوم

تثور وتصرخ: وفين هو الراجل اللي يستحق؟ دول كلهم كلاب ولاد كلاب... وتستمر في السباب.

- خسارة، ليه ماقلتليش يا هبلة، وأنا كنت أجيب لك حقك من حبابي عينين رضوان.

تسألها زينة الملكة، فتنظر لها شفاعة بحسد.. حرّة، صادقة، قادرة، "فاجرة" في نظر البعض.

تبتسم شفاعة الآن من ذكرياتها، حتى من لسانها الطويل الذي شاخ، ولم يعد بنفس حيويته السابقة، عدا عندما سألتها البنت قمر عن "ليلى".

- ما تهمدي شوية يا بت، إنتي عايزة تجيبي أجلي يا بنت الكلب؟!

لم يتوقّف المطر في ذلك الشتاء، نتذكّر، كانوا هنا في العزبة في إجازة نصف العام الدراسي، عندما ضبطت ليلى تحاول القفز من على سور السراية..

- يا دي الفضيحة! بدك تطفشي يا ليلى؟!

- بدّي أروح لليلة.

- تروحي لها فين؟! تعالي يا ضناي.

تتفحّص ليلى العباءة التي أخرجتها لها شفاعة من قعر السحارة، ثم تندهش وهي تراها تخرج واحدة أخرى. مثل خيمتين صغيرتين، يقطع ظلاهما الطريق إلى الجبانة الواقعة بين البر الغربي للوادي وكتف الجبل، يتوافق إيقاع خطوهما مع بسملة وتسبيح شفاعة، يمرّ الوقت وشفاعة تخفي وجهها بطرحتها، هامسة ليونس ومحمود، بينما ليلى لا تفعل شيئًا سوى تقليب غبار الأرض بقشة طويلة، دون أن تستجيب لاستعجال شفاعة لها ولا لمسامرتها:

- بيقول لك إيه النمل يا ليلى؟!

تراها شفاعة تجفل إذا أحسّت بحركة مفاجئة، أو إذا ظهر صوت وسط مملكة السكون التي استجابت لندائها، راغبة بما يفوق رغبة ليلى. ذات ليلة يقبّ من تحت الأرض ما تظنه ليلى عفريتًا فتصرخ، تنهض شفاعة وتركض وراءه، مصرّة على أن تضربه بجريدة النخلة بعد أن تعرّفت من يفوق العفاريت عفرتة:

- والنبي لأوريك يا ابن مبارز،

يتوقّف الفتى لحظة ساخرًا من لهاثها وانقطاع أنفاسها:

- إه! اوعي لتموتي يا عمّة!

تجلس وقد نال منها الإعياء، ثم وهي تضحك:

- الله يجازيك يا دي الواد، إيه اللي رماك علينا؟ مش كنت هجّيت وخلصنا منك؟

- عزرائيل بس اللي يقدر يخلّصك مني يا عمّة.

- جتك البلا في ملافظك.

كان يعدل كوفيته، عندما انتبه لوجود ليلى متدثرة بالعباءة.

- مين البت دي؟

بعينين لا ترمشان يفحص الفتاة التي ظلّت ثابتة، لم تخشه ولم تخش جرأة عينيه

- اخرس يا ابن الهبلة، حد يقول على زينة البنات: البت دي؟

- ما تتأدّبي حبّة يا عمّة.

يقولها وعيناه تفحصان الفتاة التي ظلت ثابتة، لم تخش جرأة عينيه، ثم يقلب شفتيه ممتعضًا:

- قال زينة البنات قال! أصلك ما شفتيش النسوان.

- اخرس يا واد.

حدقت فيه ليلى بغيظ، ولم تنطق. كبشت بيدها حفنة من غبار الأرض، ثم نهضت، تقدّمت منه ونثرتها في وجهه. عفّر الغبار وجهه وعينيه، لكنه لم يتراجع ولا حتى رمش.انحنت لتأتي بحفنة أخرى، فأحسّت بسيل من الحصوات يرشّه حولها، اعتدلت وأسرعت نحوه:

- بترشّني بالحصى يا حمار.

فتح كفيه ليريها بأن لا شيء معه، فاقتربت لكي ترى، حدّقت في بروز تحت الجلباب بين ساقيه، وصاحت وهي تقبض عليه بيمناها: مخبّيهم في جيبك يا كذاب!

فلفص همام متراجعًا إلى الوراء، ثم قرفص متألّمًا، ترمقه ليلى بذهول، فيما انفجرت شفاعة في الضحك:

- علشان تِحرّم. ثم التفتت نحو ليلى بعدما مسحت الضحكة من وجهها:

- الدنيا بقت كحل. يلا بينا يا ست البنات.

وعلى عجل، نهضت وأخذت ليلى من يدها وهي تنفضها من الغبار، وسارتا مبتعدتين.

في المرة الثانية فاجأهما ضاحكًا:

- ما تخلّي عنك يا عمّة وتجوّزيني البت دي. شهقت شفاعة:

- هه!! بدّك تتجوز بنت البيه يا ابن الهبلة!!

لمحت شبح ابتسامة على وجه ليلى، ثم انتبهت لوجوم الفتى المدهش:

- بنت البيه!!

لم تنتبه شفاعة إلا متأخرًا للمرارة التي طفح بها صوته مع عبارة "بنت البيه!!"، فيما كانت هي تضحك وتقوّي ليلى عليه:

- ولا يهمّك منه يا ست ليلى.

تذكّرت نواحًا حزينًا انبعث من عود صغير من البوص، كان الفتى يصفّر فيه مع خطوات ذهابهما. التفتت ليلى نحوه، فجذبتها شفاعة بحدّة. في اليوم التالي أخذت عليها عهدًا بألا تذهب للجبانة وحدها، بعدما

أحسّت بحمّى تسري في رأسها، وتنتشر حتى استقرت آخر النهار في صدرها وعظامها، لم تبرأ منها إلا.. بعد عودتهم لسراي محمد علي.

- الله يجازيك يا ابن مبارز! تمتم.

بدأ شكّها في الولد "همام بن مبارز" بعدما وصلوا سراي شارع محمد علي، فالطريقة التي تبادل بها الولد والبنت النظرات لم تُثر ارتيابها إلا بعد أن لاحظت انزواء ليلى طوال الوقت بعزوف مدهش عن كل شيء، عدا استقبالها لصديقتها "جميلة" وانخراطهما في همس يملأ وجه ليلى باللوعة والأسى، عدا أن شفاعة لم تتصوّر قط أن عاطفة نَمَتْ بينها وبين الولد همام، تجعلها توشك على الجنون عندما يعلن البيه عن ضابط بوليس محترم اسمه "مدكور" تقدّم لخطبتها، بعد زفافهما بأكثر من عام عادت ليلى بوجه متورّد تحتضن وليدها الذي لم يكن بلغ سبوعه، قالت إنها لم تختر له اسماً بعد، التفّت شفاعة وفارس وسعاد حولها بالبسملة والتسبيح، حتى إنهم لم ينتبهوا للضابط "مدكور" الذي كان يحمل حقائبها، فهموا من كلامه مع البيه أنّه مكلّف بمأمورية بعيدة، وفضّل أن تقضي الوقت معهم. أخذت منه شفاعة الحقائب وصعدت إلى الطابق العلوي:

- قلبي كان حاسس إنك جاية. ما فوّتش يوم واحد من غير ما أنضف الأوضة.

حملت سعاد الوليد، والتفتت لتصعد به، فاستوقفها مدكور وتقدّم ليأخذه مبتسمًا:

- خليه معايا شويّة قبل ما أروح.

أعطته إياه، ثم تركته مع البيه، وأخذت ليلى من يدها وصعدتا.

نزلت شفاعة بعد دقائق وسألت مدكور: تشرب إيه حضرتك؟

لم يردّ، كانت عيناه على الوليد الذي يحمله البيه، مد يده وأخذه:

- زيارة الحسين ندر لازم أوفّيه.

اندهش البيه وهو يتأمل اللحم الطري بين يديه.

- مش لما يكبر شوية!!

ابتسم للبيه، ثم أخرج من جيبه حزمة من الأوراق وضعها على الطاولة ثم التفت وخرج. جلس رضوان والتقط الحزمة وفكّها، ومصعوقًا راح ينتقّل من ورقة إلى أخرى، ثم يرفع عيناه إلى الباب الذي انغلق. اقتربت منه شفاعة ولم تجرؤ أن تستفسر، لكنها حدست.. أن مدكور لن يعيد الولد.

انتبهت على وقع خطوات ليلى نازلة على الدرج. حدّجها البيه بنظرة غريبة ثم همس:

- بنتك ضيّعتنا يا ليلة.

بصعوبة فسّرت شفاعة كلماته، بينما لم تسمعه ليلى.

كانت قد اقتربت عندما لاحظت غياب مدكور وغياب وليدها، كانت على وشك أن تسأله:

- فين الولد؟ حدقت في الأوراق المتناثرة ثم في وجه البيه.

تقرّب البنت قمر الفنجان لشفاعة: اشربي قهوة يا عمّة. وعندما لا تردّ تهزها بوجل: أم يونس.

تفتح عينيها بدهشة، وتتلفت لتستكشف في أي عالمٍ هي؟ فمنذ وعت على الدنيا أدركت أن من بين الأشياء القليلة جدًا التي أفلح فيها أبوها هو اختيار اسمها، لاحظت الإعجاب به، وسمعت كلمات تُثني عليه، شعرت بالاسم يعوّضها عن جمال ورقّة تفتقدهما بسبب بدنها الجرم: طول بعرض كأبدان الرجال، وعندما خطبها ابن عمها، لم يخف عنها أن الاسم كان السبب الأساسي في هيامه بها، "اسم على مسمى"، بعد أن أنجبت واختارت لولدها اسم "يونس"، صاروا ينادونها: يا أم

يونس. بدا كأنّ ابنها قد حمل الطاقة الموجودة باسمها، وسار بها للأمام: يونس المحمي حتى في بطن الحوت... بدا كأنّ ثمة شيئا إضافيا بينهما يفوق ارتباط أم بابنها، وبعد أن ابتلعته حفرة الطين، ودفعوها للذهاب إلى السراية، عاد اسم شفاعة من جديد، لكن ألقه القديم قد انطفأ بعد يونس. لذا لم يشعر بفاجعة فقد ليلى لصغيرها أحدٌ مثلها. تُنهنه سعاد وهي تساعد شفاعة في تشطيف ليلى من الغبار الذي مرمغت فيه نفسها وهي تجول في المحروسة ونواحيها بحثًا عن وليدها، تنام سعاد على إيقاع نواحها، بينما شفاعة ساهرة تحلم بشاب طول بعرض يفتح عليها الباب: آني يونس يامه. آني كنت مستخبّي في بطن الحوت. وفي النهار تقسو على البنت "ليلى": الواد مع أبوه. ما تفضّيها سيرة بقى. عدا أن ليلى لم تفضّها سيرة ولا حتى بعد أن ذهبت معها "جميلة" بنت الجيران إلى بيت الزوجية الذي عاشت فيه مع مدكور بيه، ووجدتاه خاليًا، توصّل رضوان عن طريق معارفه إلى أن مدكور سافر بالفعل في مهمة بعيدة، ولا أحد يعرف موعد رجوعه. وأعفاه هذا من حرج مطالبة هذا الهلفوت "مدكور" بالوليد "حفيده"، وإثارة فضيحة خطابات ابنته لعشيقها المجهول. وضعت ليلى المصحف على عينيها، وأقسمت لسعاد أن آخر رسالة كتبتها كانت قبل أن يتقدّم مدكور لخطبتها بشهور طويلة، لكنها رفضت أن تذكر اسم الشاب الذي كتبت له كل هذه الرسائل

المثقلة بالوجد، عدا أن شفاعة وحدها كانت تعرفه، شفاعة وحدها أيضًا التي نالت عقاب البيه على خروج ليلى في تلك الأيام.

تبيت ليلى وتصبح صامتة، بعد أن تمكن منها اليأس، زاهدة في كل شيء حتى الطعام والشراب، وشعرها الذهبي الذي كان يزحف في ذيلها صارت تجذبه، دون وعي، شعرة شعرة، وتكوّره في كفّها، حتى صحوا ذات يوم على صراخها، وجعل الغضب البيه يحجم عن استدعاء طبيب العائلة، عدا أن الصراخ استمر ضاريًا ومختلفًا عن نواحها السابق، صراخ ثقل كرة ذهبية من الشعر، يقترب قطرها من الشبر، تحجّرت في بطنها وأوقفت حركة مصارينها، أخرجها الطبيب الجرّاح وقدّمها لرضوان الذي عافت نفسه لمسها، بينما سقطت سعاد من طولها من صدمة المشهد.

- لو لم تكن ليلى بهذا الضعف من هول الحزن وسدّة النفس عن الغذاء، لربما نجت مع من نجوا عندما تقوّض المشفى فوق رؤوس النائمين. تهمس شفاعة لنفسها وهي تمصمص شفتيها بأسى، ونتذكر أنهم وجدوا بقايا ثيابها وقلادتها الذهبية ذات الرأسين "ما شاء الله والعدرا معًا" مع فتات الحشايا المهترئة، فأقاموا مأتمهم.

فارس

على إيقاع تلاوة الشيخ "عبد العال المراغي" لسورة الأنعام، يجلس فارس أفندي ساهمًا محاطًا بوفود المعزّين التي تتجدّد، مع نهاية كل ربع، عدا الشيخ "سالم الكبير" الذي ظل جالسًا بجوار فارس، يأخذ العزاء معه، وهو الوحيد الذي رفض أن يأكل أو يشرب أو يغادر المجلس كأنه أخٌ للبيه الميّت. يتنهّد فارس، ومن بعيد يظهر أحد المزارعين خارجًا من القاعة المواجهة، يمسح حنكه في كمّه وهو لا يزال يلوك بقايا الطعام بعدما انتهى من العَشاء، يلحق به آخر وهو يتمخّط على الأرض، فينبّهه الأول، ويشعر بحرج من عين فارس أفندي البعيدة. يفهم فارس أن سالم الكبير يبالغ في عمل الواجب، لأن الثروة كلها ستؤول من البيه إلى ابنه، بما في ذلك الأطيان التي يمتلكها أبوه، بينما تحكم هي في مصائر هؤلاء البسطاء، يرى التوق بعيني العجوز لأن يكون

الابن أفضل من الأب، يعرف أنهم يحلمون بفرصة أفضل، وأنهم يكرهون "حسنين الخولي"، يعرف أيضًا أن أباه أسقطهم من حساباته، فطالما سخر منهم: في أفراحهم يأكلون وفي مآتمهم يأكلون، أسنان قوية ومصارين تهضم الزلط، أجسام البغال وأحلام العصافير. يتذكر أيضا عبارته المحذّرة:

- طيبين. لكن أخطر حاجة لو تطاوع قلبك وتحسن إليهم، لأنهم لو شبعوا يركبهم الكسل والنمردة ويحرنوا على الشغل، ويحلّ الخراب عليهم، وعلينا، دول مايشتغلوش إلا لو خافوا من الجوع أو.. من دي. مشيرا لأوراق "الكمبيالات".

يقولها بضحكة تطل من عينيه، يرتجف فارس من تذكّر العين التي لا ترمش، والبؤبؤ الغارب، يئن شيء داخله، وهو يستحضر صوت أبيه الذي كانت تهتز له الجدران.. كيف اختفى؟ يفكّر بقلبه القوي الذي يشي بأنه سيعيش أبدًا، يتعجّب أن ينتهي بهذه السهولة، ويأسف لأن أكثر وقت يحتاج أن يختلي فيه بنفسه وبحزنه هو الوقت الذي يكون فيه مضطراً لاستقبال أشكال وألوان من البشر! فقد غادر للتو وفد البهوات أصدقاء أبيه، رفاق الصفقات والسهرات، وضع حشمت بيه وجهه في الأرض ولم ينطق، عدا أن "بيه" آخر لم يكبح جماح فضوله، فسأل

فارس عما سيفعل مستقبلا؟ أربكه السؤال ولم يستطع أن يصرّح بأنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق، فبعدما دفن أباه بيديه، لم يعد العالم، بعينيه، كما كان. ينتبه إلى يد تمتد لمصافحته ويسمع صوت الكبير:

- دِه محمود أخو عوضين أبو سعفان. عوضين اللي جنابك كنت بتلعب معاه وإنت صغير لما كنت بتيجي حدانا في أيام الدميرة. عوضين راح الجهادية وبعدين ربنا افتكره والبركة في محمود.

يشعر فارس بالحرج وهو يصافح محمود، لأنه لم يعزّه في وفاة عوضين، لأنه لم يعرف أصلا أن عوضين قد مات، كما أنه لا يتذكّر عوضين أساسًا. يتذكر، فقط، "متولّي" و"نعمة"، كان متولي "سفروتًا" مع أنه يكبره بعامين، نعمة كانت تماثله في العمر، لكن عندما توقفت شفاعة في الشتاء عن اصطحابه للدرب، ثم عادا في الصيف التالي، وجد نعمة قد فاقته طولا، تخبئ تحت تقويرة صدر جلبابها خوختين صغيرتين، أخبره متولي بحرج أن نهود البنات تشبه ثمار الخوخ الناضجة، فلم يتوقف عن الرغبة في اكتشاف رائحتهما وملمسهما، ولا حتى بعدما عرف بأنهم قرأوا فاتحتها على ابن عم أبيها:

- بس دي عيّلة!

يضحك متولي، ويحكي عن خراط البنات وألاعيبه.

يحسّ الصبي فارس بالغبن، بفقد البنت المشهورة بمهارتها في درّ الحليب من البهائم، حتى إنها تمشي مصحوبة برائحة تميّزها من على بعد ثلاثة كيلومترات، يحدس أن أحد الجالسين حوله الآن يحتسون القهوة السادة في عزاء أبيه، قد يكون زوجها أو ابنها، وقد يكون هذا الذي يتحرك كثيرًا ولا يعرف أن يقعد "على بعضه" هو أخو متولي الذي التقاه على أحد المقاهي، وعرف أنه يقضي أغلب وقته متسكّعًا مع الأدباتية والعوّادين، بدلا من الانتظام في الدراسة بالأزهر، وكذلك يلبس قمصانا وبنطلونات كأبناء البنادر، لكنه ظل محتفظًا بنفس الخفة التي كانت تجعله يغلبهم كلهم في اللعب، فارس ونعمة وكذلك الولد الآخر الذي كان يشاركهما اللعب ثم صار يحرن لدى رؤية فارس آتيًا مع شفاعة، ويصيح في نعمة محتجًا:

- بدّك تلعبي مع ابن البيه يا فاجرة!

كان اسمه "همّام"، وهو الذي ستجذب شفاعة أذنه حتى لا يتطاول ثانية على أسياده، وسيختفي بعدها كأن الأرض انشقت وابتلعته، همام هو ابن "مبارز"، الرجل الذي سيقطع رجل فارس نهائيًا من الدرب.

- سيدي فارس. ارجع الدنيا ليّلت.

لا يأبه لنداء الخادمة، فقد كان ينشد الوصول لمشتل الورد. يعدو، تتبعه عنزته البيضاء "موءة"، ذات العينين المستديرتين والنظرة التائهة، منتعشًا بلسعات الهواء البارد فوق ساعديه، مبتهجًا برائحة الورد تزحم أنفه كلما قطع مسافة أطول، عدا أنه فجأة يسمع وقع أقدام في أثره، يتوقّف ويلتفت فلا يرى أحدًا، يشعر بالخوف ويعدو بخطوات شرسة، تتبعه "موءة"، يهبط الظلام في طبقات تزداد دكانة ولا يزال وقع الأقدام يتبعه، يسمع طلقات نار قريبة منه، عن يمينه وعن يساره، مرعوبًا يتجاوز حقل القمح وحديقة النارنج ثم مشتل الورد، ينهج متعبًا، يريد أن يتوقّف لكي يستريح، وعندما يميّز احتكاك قدميه بحديد القضبان، يدرك من الصافرة أن القطار قريب جدًا، يحس بأنّه هالك لا محالة، يتوقّف عقله عن التفكير للحظة، وعندما يسترده يدرك أنه وثب وثبة واسعة أنقذته، وفي هذه اللحظة يفكر بموءة.. دون أن ينظر وراءه. مرعوبًا يندفع في العدو والوثب حتى يجد نفسه محاطًا بالسواد المعتم من كل جانب، يلهث، يتخبط، يقعى أرضًا، وبعد فترة يدرك أنه داخل حفرة عميقة مظلمة، حمته، بظلمتها المخيفة من مطارده. لم يجده أبوه إلا في الصباح. أعاد النور كل شيء إلى سابق عهده، فيما عدا موءة التي لم يرها مجددًا.

احتضنته أمّه "سعاد"، أحس برذاذ نهنهتها ورشفها فوق وجهه، وهي تحني وتقلب يديه وترفع ثيابه، وتفحص بطنه وساقيه لتطمئن على أنه لم يُصب بأذى، تنهّدت بارتياح والتفتت نحو البيه ملتاعة. بدا رابط الجأش وهو يلقي عليه عدة أسئلة حتى وصل به:

- ازّاي ماشفتش إنذار القطر؟ الليل عماك؟ يرى في عينيّ أبيه لمعة غريبة.

- لا أبدًا. وبعد تفكير: لأن الإنذار.. ماكانش موجود.

اكفهرّ وجه أبيه، زر عينيه وجذب حزام روبه، ومشى نحو الفرندة، استند بساعده على السور وأشعل سيجارة، ذهب فارس مع شفاعة، استحم ولبس ثيابا نظيفة، وعندما عاد كان أبوه لا يزال في الفرندة محاطًا بسحب من الدخان. في اليوم التالي وجدوا في مشتل الورد جثة شاب مفرّغة بأكثر من عشرين رصاصة، ناهيك عن قرض الجوارح، قالوا إنه "مبارز" ابن السوالمة العاق الذي انضم من سنوات لمقاطيع الجبل. بعد فترة، سمع فارس، مصادفة، رواية مفادها أن رضوان بيه هو الذي قتل مبارز، انتقامًا منه لمحاولة قتل ابنه، وبالطبع لم يصدّقها.

فَقْد العنزة "موءة" كان أسوأ ما عاناه في ذلك الوقت، حزّ في نفسه أنه كان شاهدًا على إطلالتها الأولى للحياة، جمّده الفضول لمراقبة لحظة خروجها من جوف أمها، ثم دفعه أحدهم ليحملها بيده ويضعها عند الضرع، وبعدما كبرت صارت تتبعه كظله كلما نزل إلى الدرب، كما كانت محظوظة بدخول السراية التي لم يدخلها رجال السوالمة، ومرافقة فارس في الأكل واللعب وحتى في النوم، ولأجلها أخذ عهدًا على أمه بألا يذبحوها مع أضاحي العيد، داهمته كوابيس عديدة إثر الحادث، أضعفت بنيانه، فلم تعد رجلاه تحملانه، وهذا ما جعل أبوه يفكر في نقله إلى مدرسة بالمحروسة، بعيدًا عن الدرب والجبل ومقاطيعه، في زحام المدينة الكبيرة سينسى موءة وسيجده ابن مبارز. ينتبه على طرقعة خطوات مسرعة، يرفع رأسه فيرى صبيا يجمد في مكانه، فيبادره سالم الكبير:

- تعالى ياد يا عتمان. عايز إيه؟

- الهانم مشيّعاني. عايزة فارس أفندي.

ينظر سالم الكبير لفارس، الذي يرد بصوت لم يفارق بعد أفكاره البعيدة:

- قول لها مش فاضي دلوقتي. يستدرك الولد عتمان:

- أصل الهانم ... يُبقي فمه مفتوحًا متوقفًا عن الكلام مع حركة لأعلى ليد فارس، يحدجه سالم الكبير بنظرة حاسمة فيلتفت ويمشي. يلاحظ فارس عظام منكبيه الضامرين في الجلباب، ويفكر بجلبابٍ آخر، جلباب ابن مبارز.

في المرة الأولى أحسّ بشخص وراءه في أثناء سيره وسط المتظاهرين، كان قريبًا منه بشكل مريب، التفت فلم يمنحه الملثّم الفرصة سوى للمح عينيه الثابتتين، فيما هو يتوارى حتى يختفي في الزحام، اكتشف فورئذٍ اختفاء محفظته.

- تعيش وتاخد غيرها يا أبو الفوارس. يقول "سيد النجار"، زميله في المدرسة وجاره في شارع محمد علي، ضاحكًا، ثم يسترسل مهوّنًا عندما لا يتجاوب فارس في الضحك:

- اللي يجي في الريش بقشيش يا ابن البيه.

وأمام إصرار فارس الغامض يرضخ سيد:

- أيوه أنا عارف مكانهم، بس يعني.. ما هي دي شغلتهم. نشّال نشل المحفظة من غير ما يدوس لجنابك على طرف. يبقى عدّاه العيب.

يفكر فارس حائرًا، ثم ينهض ويفتق بحد الموسى جيب بنطلونه، ثم بإصرار يجرح جلده في موضع الجيب، ثم ينهض وهو يكتم ألمه:

- دلوقتي ممكن نروح؟

ولا يبالي بدهشة سيد من جرأةٍ وإصرار بديا غريبين تمامًا عليه.

رغم رهافة الجرح ينزعج الشيخ:

- حقّك علينا يافندي.

ثم يطلب من أحد مساعديه معرفة مَن "انخايب ابن انخايبة" الذي كان في دورية "ليلة امبارح" في العباسية وجرح الأفندي؟ يغيب الرجل قليلا، ثم يعود ويهمس في أذن الشيخ: ده الواد همام. تظهر على الشيخ الدهشة ثم الغيظ ثم يلتفت نحوهما:

- ملعوبكم اتكشف يا ولاد الأبالسة. جايين ترموا بلاكم على أكتر جدع عندي بيشوف شغله صح. الله يخيب اللي خلّفوكم. قوم فز يا نِوري يا عِرة الأفندية إنت وهو من قدامي، أحسن ليلتكم هتبقى طين.

يبدأ في التصفيق بيديه، بينما يشرع الاثنان في العدو بأسرع ما يمكنهما، ثم يتوقفان لالتقاط الأنفاس غير مصدّقين خروجهما سالمين من وكر النشّالين بعد ما جرى.

يقهقه متولي:

- كويس إنها جت على قد كده. والمحفظة أنا قلبي حاسس إنها هترجع. سيبها على الله.

استردّها فارس في اليوم التالي، وصلته بالبريد، كاملة الأوراق وخالية تمامًا من رائحة المال.

لم تكن مشكلته في المحفظة أو المال ولا في المدعو "سعادة النشال"، يفكر، فلم يكن قد عرف بعد أنه ابن مبارز، الرجل الذي طارده وتسبّب في مقتل عنزته "موءة"، بل في كبريائه الجريحة. فقد شعر بأن الأمان والترحاب اللذين استقبلته بهما المحروسة، كوافد جديد، قد تعرّضا لخدش، لم يضمّده شجاعته في اقتحام وكر النشالين، بل مساندة سيد النجار الذي كان سيأكل معه العَلقة ببسالة متناهية، وكلام متولي صاحب القلب الطيب، أدرك أنه محظوظ بصديقيه "المعتوهين"، يضحك، علّمه سيد كيف يركب الترومواي وهو ماشي، وشجّعه متولي على الزوغان من الكمساري، عرّفه سيد إلى حلاق طلياني رصين "يحلق للأرنب وهو يجري"، ويلهف أجرًا مضاعفًا، كما يهيم عشقًا بالشعر العربي القديم، كما عرّفه متولي إلى مطعم أنيق، لا يسمح للصراصير التي تجري في أرضيته أن تصل إلى أطباق الفول الذي يسبح السوس بين

حبّاته، يلتقون في مقهى "مسك الليل"، حيث يحلو لسيد أن يطلب بدل المشروب اثنين وثلاثة.. مادام على حساب فارس، يصلّون العشاء في جامع الشيخ حسن، أو في مسجد السلطان برقوق، ثم يقضون السهرة في مسرح "اللونابارك"، هناك، يستمتع فارس بمراقبة شغف متولي بالتمثيل أكثر من متابعة "الشيخ متلوف" بطل العرض، عند باب الخروج التقى، ذات ليلة، بفؤاد بن حشمت بيه، صديق أبيه، الذي خلع قفازيه، ومدّ يده مصافحًا فارس دون صديقيه.

- فؤاد صاحبي.

يخبرهما بحرج بعد انصراف فؤاد.

لا يستطيع سيد أن يخفي تبرمه:

- ابقى قل له إن السلام لله.

يضحك فارس من نفسه، من ولعه بتحليل شخصيات أصدقائه، يشهد لفؤاد بعقلانية مميزة، تشرّبها من معلمين بريطانيين حازمين، لم يُقلل تعلقه بهم من اعتزازه بمصريته، عدا أنه يضيق أحيانًا بعقلانيته التي تبدو معجونة بتكبّر، جعله يتجاهل صديقيه، ويرى في دماثة خلق متولي تصالحًا عفويًا بين المتناقضات.. "درب السوالمة مع القاهرة، الأزهرية مع الصوفية، التديّن مع العربدة، الخبث مع الطيبة"، تصالحًا يعرّضه

للاتهام بالسطحية واللامبالاة، أما سيد القاهري من أصل صعيدي، فمسكون بالوطنية، عدا أن وطنيته معجونة بشيء من التطرّف، تجعله يرتاب فيمن يختلف معه في الرأي، وتجرّه إلى كثير من المشاحنات، ينتبه فارس لكل تصرف أو نظرة أو لفتة من أصدقائه، ويستمتع بمحاولة فهمهم وتوقّع ردود أفعالهم، بينما هو في نفس الوقت لا يفهم نفسه، ولا ينجح في توقّع ردود أفعالها، لا وهو شاب صبي في مقتبل العمر يهرب من مدرسته في درب الجماميز إلى زحام الأسواق، كي يشاهد "الملاءات اللف" المحبوكة فوق أجساد النساء، ولا حتى الآن، وقد صار رجلا وقورًا يقترب من الثلاثين، يأخذ العزاء في رضوان بيه البلبيسي، الذي بدأ يفتقده حتى قبل أن ينفضّ مُولد العزاء، بل يستعد للقتل من أجله، من أجل الرجل الذي وسم خطاه بالخوف والارتباك، حتى إنه كان يمسح وجهه ليزيل بقايا ضحكاته مع أصدقائه عندما يصل إلى بوابة البيت، كي لا يراها أبوه الجالس إلى مكتبه -تحت صورة الجد نصير الدين- يقلّب صفحات كتاب "حضارة العرب" لعالم الاجتماع "جوستاف لوبون"، وغالبًا ما يغلقه ويرفع رأسه لدى رؤيته لفارس، كي يحدّثه عن دور النخبة في المجتمعات المتخلّفة، يفهم فارس ما قرّ في عقل أبيه من أن البريطانيين لم يأتوا ليبقوا، بل سيغادرون إذا ما ظهرت كتيبة من الرجال البارزين الذين يمكنهم إدارة شئون البلاد، محافظين

على المصالح البريطانية فيها. يبتسم متجاوبًا، لكنه يشعر بتكدّر أبيه الذي يتمنّى أن يكون وحيده من هذه الكتيبة الجادة، وليس شابًا لا يجيد سوى الابتسام. لا يصعب فهم جوستاف لوبون على فارس، ولا يجهل فحوى نظرة أبيه المفعمة بخيبة الرجاء، لكنه سيتركه يظنه تافهًا ولا مباليًا، فهذا أخفّ وطأة من أن يصارحه بأن له رأيًا مختلفًا، سيخفي عنه أنه يقضي الساعات على المقهى، يصغي إلى المناقشات الدسمة التي جعلته يدرك عزم البريطانيين على البقاء، وتحايلهم لتبريره، ساسة وجورنالجية وطلبة، مختلفو المشارب الفكرية، يشربون الشاي ويصفعون الموائد بأيديهم، ويلوّحون بالجرانين ويحلّلون الصراعات، الخفي منها والمعلن، التي قد تبلغ حد اتهام رئيس حكومة بتقاضي رشوة، ما كان يعطي انطباعًا بوجود حرية بالبلاد، انطباعًا سيكون حقيقيًا فقط لو تشابهت كل المجالات الأخرى بحرية الصحافة، ولو لم تشهد الشوارع دماء المتظاهرين العُزل الذين خرجوا احتجاجًا على سجن ممثلي الأمة فأطلق البوليس عليهم النار دون تمييز، لو، أيضًا، لم يجد نفسه داخل جدران زنزانة مكتظّة بخلق الله متنوعي الإصابة والأنين، بعدما ضربه الجنود بكعوب البنادق، حتى خرّ الدم من مناطق عديدة بجسمه وفقد وعيه، إلا أن هذا كان هيّنًا، مقارنة بهمه الكبير: أبيه، وما سيفعله به عندما يعلم بمشاركته في المظاهرات.

قبل الاحتجاجات بفترة، يتذكر فارس وهو محبوس، فرد أبوه أمامه ورقة صغيرة، تبين لفارس أنها منشور مختوم من زعيم المسلمين "أغا خان" يوضح فيه مغبة انضمام دولة الخلافة إلى أعداء بريطانيا ويحل المسلمين من الولاء للدولة للعثمانية..

- كده خلصنا من العثمانلية. يقولها رضوان مبتسماً، فيبتسم فارس:
- عقبال الانجليز. يعقب أبوه بثقة:
- دول أمرهم هين. قالوا بعد الحرب وهم كلمتهم واحدة.

يتذبذب بؤبؤا عيني فارس حائراً.

تراجع البيه عن تصوّراته بشأن الطبيعة الرخوة لأبناء البلد، "التي ظنها لن تجعلهم يصمدون أمام الامبراطورية العظمى"، بعد ما رأى تسابقهم في توكيل من يتحدث باسمهم وقوة احتمالهم في سبيل الاستقلال. عدا أن هذا لم يمنع انزعاجه من أن تصبح درب السوالمة قسمًا مما يحدث.

تمنّى أن يقطع رقابهم، تحكي شفاعة لفارس، لكنه اكتفى بتعليقهم من عراقيبهم على جذوع الأشجار، ثم عاد فأمر بجلدهم على ظهورهم بسوط أبيه نصير الدين، المصنوع من جلد الجاموس الذي أدمى بالفعل

ظهور الفتيان الثلاثة الذين تجرّأوا وجرّوا جذع الشجرة ووضعوه فوق قضبان السكة الحديد، كي يعطّلوا حركة القطارات، كما فعلت غيرهم من البلدات.

- درب السوالمة مش أقل من زفتة ولا فارسكور. تعلو صيحات الشباب المتحمس.

عندما يتدلّى "نبوي" تاجر المواشي من بولاق أبو العلا إلى درب السوالمة، يلتف حوله الشيوخ، ويسرع الصبية لتقديم صحني الجبن والقشدة ومشنّة العيش المرحرح، هذه المرة طوّقه الشبان متلهفين لمعرفة ما يجري بالبلاد، فاستفاض نبوي في وصف المحروسة التي انقلب حالها وتساوى ليلها بنهارها، شوارع عامرة بالناس والهتافات والأعلام، ثم حكى بفخر عن انضمامه لمظاهرة التلاميذ، وهتافه بحياة سعد باشا "العِترة"، ضحك وهو يصف خروج النسوان في شاحنات كبيرة يهتفن باستقلال مصر ويلوّحن للهوانم اللاتي حملتهن "أوتومبيلاتهن"، بينما امتدت أيديهن ملوّحة بالعلم الأخضر من نوافذها الصغيرة.

ترك لهم ما معه من جرائد وأوراق "منشورات" تُقذف في المظاهرات عاليًا، كما يُرش الملح في سبوع المولود، منشورات قرأها

شباب السوالمة الذين تعلّموا في الكتّاب، ثم خطّطوا لفعلتهم، فصاح البيه وهو يستشيط غضباً عندما بلغته الأخبار:

- آخرتها أغرق الغرقة دي! وبإيد مين! الهلافيت دول!

يأمر بعقابهم، في نفس اللحظة التي يستجمع فيها فارس شجاعته وينضم للمظاهرة، ويعلو هتافه متزامناً مع آهات شباب الدرب، عدا أن الذي تداولته صحيفتا "المؤيد"، و"اللواء" جاء كالتالي: "الثورة تشتعل في عزبة رضوان بيه البلبيسي"، أي أظهره كمناصر للثورة متبوعاً بفلاحيه.

جاءت للبيه على الطبطاب، لكنه لم يندم على تشديد عقوبة الشبان الثلاثة:

- برضك كان لازم ياخدوا الإذن مني الأول.

ثم التفت ليستمتع بصيته الجديد، مبتسماً ابتسامته الأزلية.

- أول مرة حساباتك تخيب يا رضوان بيه.

تشاكسه سعاد، ويقفز قلب فارس في صدره خوفاً، عدا أن رضوان لم يهتم بالرد عليها، لأن صديقه الإنجليزي حدّثه هاتفياً عقب نشر الخبر، لا غاضباً ولا متوعّداً، بل مسترضياً وشبه معتذرٍ:

- رضوان بيه لازم نتفاهم. إحنا أصدقاء في النهاية.

كما أن قصور المعروفين بوطنيتهم من كبراء البلد، الذين لم يكونوا يولونه اهتمامًا كبيرًا في السابق، صارت مفتوحة له، انضم لفريق البهوات والباشوات الذي بارك، في البداية، الثورة الشعبية، كورقة ضغط تسهم في حصول البلد على بضع من لقيماتها من فم الأسد البريطاني، أما الاستقلال الحقيقي، فقد ظلّ البيه يراه أبعد من قمر السماء.

أدرك فارس أن أباه ركب الموجة، التي أضافت له معنويًا، وأنه كان يجاهد من أجل احتمال وقف حال البلد الذي تسببت فيه الاحتجاجات، كان من الممكن أن يحتمل أي شيء عدا أن يجد ابنه في هذا المكان، لذا أحسّ فارس بالرعب، عندما سمع السجان ينادي اسمه، فيما صفّق سيد فرحًا. توقّع أن يسمع اسمه واسم متولي بعد ذلك، لكن فقط كان فارس هو من سيخرج.

تأخّر سيد حتى فهمها.

- الله! هو إنت لوحدك اللي.... ؟!

نظر نحوهم عاجزًا عن التفوّه باعتذار، أحس أن له ضرورته. ضحك متولي لسيد:

- إيش جاب لجاب يا سيد!

ضحك سيد فاهمًا.

- آه! صحيح! بالسلامة يا فارس أفندي. بس وحياة البيه ما تنسانا.

عند الباب الذي سيحمله نحو هواء الحرية، تحتك كتفه بكتف شاب يقوده عسكري آخر نحو الداخل، شاب ورث عن أبيه طول القامة وعينين لا ترمشان، هما كل ما يبين من وجه ملثم بتلفيعة سوداء. عرجت ساق فارس عند رؤيته لهمام، لولا يد السجّان التي دفعته للخارج.

سار وراء أبيه، محني العنق بنفس الزاوية التي انحنى بها عنق أبيه وهو يكرر عليه كلام وتوبيخ الضابط الإنجليزي "ألبير" له:

- مش عارف تأدب ابنك ولا إيه يا رضوان بيه؟!

ذكر بمرارة بعض العبارات عن جهده وذكائه اللذين سخّرهما لتوسيع وتأمين ثروته، كي ينال احترامًا وهيبة، نجحا في جعل القاصي والداني ينحني له، تنهّد، ثم ذكر بمرارة أكبر كيف اكتشف في تلك اللحظة - وبسبب ابن دمّه الوحيد وأمام هذا الأبيض اللزج "ألبير" الذي لا

يساوي شيئًا عدا كونه ابن الإمبراطورية العظمى- أنه لا قيمة لكل ذلك.

يحني فارس ويقبّل يد أبيه، ويمكر ليبرر فعلته، فيدّعي أنه اندسّ وسط المظاهرين هربًا من ملثم بلثام أسود، لا يظهر منه سوى عينين مخيفتين، يترصّده، عندئذٍ يفتح رضوان درج مكتبه ويخرج منه طبنجة صغيرة ويقدّمها إلى فارس.

مكره على أبيه انقلب إلى حقيقة، تجسّدت في صورة شاب لا تكل قدماه من المشي سنوات وسنوات لملاحقة فارس، نبس متولي باسمه ذات مرة. في المرات التالية لم يقترب منه همام، فقط كان يحرص على أن يظهر في مرمى بصره لحظة واحدة، يبرز فيها طرف طبنجته ثم يختفي..

- لو أراد قتلي لفعل، هل ما يريده ابن مبارز هو أن يقول: أنا هنا. أنا خوفك أنا مأزقك، عمل أبوك "الردي" الذي ستكون ضحيته؟ ولكن أين؟ ومتى؟ ولماذا لا يكون الآن؟ وهل بالفعل قتل أبوه مبارز؟ يتساءل فارس في كل مرة، ثم يُلمّح لأبيه فيعطيه طبنجة أفضل من الأولى، ولا يعطيه إجابة. كما لا يجد عند شفاعة سوى عبارة واحدة: ابعد عن ابن مبارز.

وضع في إحدى الليالي الطبنجة داخل الصديري، وأحكم لبس الجاكيت فوقهما، بعدما عرف بعملة ابن مبارز "السودة" مع ليلى، راح يلفّ الأسواق والموالد والبارات مصرًّا أن يجده ويقتله، انتقامًا لشرفه، لكبريائه، لأجل أخت لم يشعر قط بأنها أخته، ولا يجمعه بها شيء ولا حتى تشابه الملامح، وعندما ينظر في المرآة يرى فقط أنه لم يدرك قط معنى الأخوة، فقد وعى "على الدنيا" فوجد "كريمان" بنت صافيناز التي تكبره بعدة أعوام في طريقها للزواج ثم السفر، ولما أتت ليلى بدت طبائعها منفّرة فتجنّبها، بعد موتها أدرك خسارته، تاق لفرصة، ضاعت بأسرع مما سنحت، لمعرفتها، ربما لو عرفها لأحبّها، ولو أحبّها لما سمح بوقوعها ضحية للاستغلال والظلم، لكن الفرصة الضائعة خلّفت وراءها رغبة محتدمة في القتل، سنوات وهو يبحث عن ابن مبارز حتى وجده في نفس اللحظة التي وجد فيها ابن مبارز أباه، ولكن: لماذا كان أبوه هناك؟ لماذا كان ميّتًا؟ شحذ فكره محاولا أن يتذكر أين هي الطبنجة الآن؟ حتى إنه لم يشعر بدخول حسنين الحولي إلا عندما جلس بجواره وهمس في أذنه:

- بعد العزا الراجل هيجي.

- راجل مين؟ يتساءل فارس.

هذا الحقير.

سعاد ٢

إغماضة عين أم ساعة زمن؟ من يدري؟ من بإمكانه مساءلة الزمن! ليس أكثر شعورًا بالعجز تجاهه من امرأة فقدت للتو رجل حياتها، ثم استلقت فوق فراش تعرف أنه لن يشاركها إياه مجددًا، تُحرّك الوسادة كي تريح عنقها الذي أعياه الانتصاب طوال اليوم، كي تتلقى طقوس العزاء من الأهل والمعارف، طيّبهم وخبيثهم، ليس بمقدور سعاد إنكار أن الخواجة "برديس" صاحب مطحنة البن "أفريكانا" بباب اللوق رجل يشهد له القريب والبعيد بالطيبة والشهامة والإخلاص، خاصة تجاه أصدقائه المقرّبين مثل رضوان، عدا أن امتعاضها عندما علمت بوصوله كان له وجاهته: لوحده؟ سألت الخادمة، وأحسّت بجبهتها تتجعّد وبجوفها يتقلّص وهي ترجح أن "إيرين" هانم زوجة الخواجة برديس لن يهون عليها، في الغالب، ألا تأتي لتودّع رضوان الوداع الأخير، ثم بدأت

ملامحها بالاسترخاء حين أجابتها الخادمة بأن الخواجة أتى بصحبة اثنين من البهوات "لا نساء"، تنهدت ثم أرسلت الخادمة للتأكد من مقابلة فارس أفندي لهم، وللتوصية على تحضير العشاء بعد تقديم القهوة، ولبثت حتى خفّت الرِجل من صالون النساء، فتسللت إلى غرفتها وألقت بنفسها فوق الفراش، متقلبة من جنبها الأيمن إلى الأيسر، تبحث عن راحة تبدو لها نائية مثل نجوم السماء التي يتوارى وراءها الآن رجل كان زينة الرجال، "قيمة وسيمة" وصاحب صيت وأطيان وزوجات تتفرّج إحداهن الآن على البحر من شباك الباخرة العائدة من أرض الحجاز.

- مُبَخَتة طول عمرك يا "صافيناز"!

تتمتم ممتعضة من موافقة البيه لصافيناز، بكل بساطة، على الذهاب لأداء العمرة، رغم عيوب صافيناز الكثيرة، فإن سعاد كانت تعجب بالطريقة التي تعامل بها رضوان، التي تجعله حتى في غيابها لا يذكر اسمها إلا مسبوقا بلقب "هانم"، كأنه ملكية خاصة لها، يستعيره أحيانا عند تقديم سعاد لضيوف أغراب، تراقب سعاد ثباتها وقوة شخصيتها التي لا تعرف إن كان فضلها يعود لصافيناز وحدها، أم لاتكائها على عائلتها التي يتقزّم أمامها رضوان، تترحّم عليه لأنه "شهادة حق" كان يتحوّل إلى أسد

عند اللزوم، فيوقف صافيناز عند حدّها، عندما تجنح جنوحًا غير مقبول، مثلما حدث عندما استكثرت أن يأخذ سعاد إلى بيت شارع محمد علي -بعدما قدم البيه أوراق فارس في المدرسة هناك- وتمكث هي في العزبة.

- أما يهمها أن تحرمني من مرافقة ولدي نظير استحواذها على هذا البيت!

تتنهّد ممتنة للبيت الذي أعفاها من رؤية وجه صافيناز، وجعل رضوان ضيفًا خفيفًا "يومين من كل أسبوع"، تشتاق لوجوده وتشهد جريان مياه الودّ مجددًا، متعجّبة من تسامح قلبها، البيت الذي منحها الفرصة لأمومة حقيقية عوضًا عن أخرى كابدتها بعجلة تتلوى في محاولات مضنية ويائسة من أجل تحسين وضعها بالسراية، كما منحتها المعرفة بموضع جرح صافيناز الفرصة لإيلامها، فكلما كانوا يعودون للعزبة في إجازات فارس، كانت تنغّص عليها عيشها وتسبقها في تكبرها.

- يااااه! لسه بتاكلوا فول حراتي؟ أصل المطاعم عندنا عوّدتنا على حاجات تانية خالص.

- يااااه! لسّه بتشربوا من الطرمبة! عندنا في شارع محمد علي الميّة زي ميّة زمزم.

تبتهج سعاد عندما تنجح -في مرّات نادرة- في إغاظة صافيناز، وتتجاهل نظرة شفاعة التي تعلم أن سعاد لم تشاهد عن كثب الشارع الذي تغيظ به ضرّتها، بل تضطر إلى جرجرة شفاعة في الكلام كي تحكي لها عن مشاويرها في الشارع الممتد بطول كيلومترين، بمساجده ومخابزه وحوانيته وعمدان إنارته، كما بقصوره وأسرار عائلاته.

حكايات أخرى عديدة واعترافات سمعتها سعاد بأذنيها من ألسنة "أصدقاء البيه"، بعد أن أدمنت التلصّص على قاعة الرجال، التي يسهر فيها مع ضيوفٍ يذهبون ويتركون رذاذ عطورهم وذكريات مغامراتهم في عالم العوالِم والغوازي والخليلات، وبقايا نقاشاتهم حول تعنّت سلطة الاحتلال وتمردة الفلاحين، وعن مخاطر الاتجاه للصناعة مقارنة بريع الأرض المضمون، وعن مزادات الأراضي والعبيد والمجوهرات، وكذلك أحوال البورصة التي يتطوّع الخواجة برديس بتقديم نصائح مجّانية بشأنها لأصحابه، يحرص غيره في العادة على الاحتفاظ بها لنفسه، وبنفس هذه الروح الكريمة كان برديس وزوجته إيرين، أول من أتوا ليباركوا نجاح فارس في المدرسة، تخطو إيرين محاطة بسحابة من عطر

ساحر، ينشر البهجة في غرفة الصالون، وفي أوصال سعاد التي أُخذت بجمالها وحيويتها ورنين ضحكاتها، فلم تتعب قدماها من الوقوف متكئة على عامود الفرندة تهشّ الضفادع كي لا يعيق نقيقها استمتاعها بالتلصّص على صوت إيرين الرقيق، عدا أنها ركضت إلى غرفتها عندما رأتها تقف وتطلب من البيه لقاء زوجته، وكانت جالسة على كرسي التسريحة تداري لهاثها عند ظهور شفاعة:

- البيه بيقول إيرين هانم عايزة تمسّي عليكي.

مكثت إيرين معها في الصالون لبضع دقائق لم تتكلم خلالها عن شيء، فقط باركت نجاح فارس وأثنت على فخامة البيت بعبارات مستهلكة -بعيدة عن الحيوية التي رأتها عليها سعاد في قاعة الرجال- ستردّدها في كل زيارة تالية، في الزيارة الثالثة وشت النظرات المتبادلة بينها وبين رضوان بما أقلق سعاد في وقفتها وراء العامود وهجس بنفسها.. إنها تعرف.. تعرف نظرة الإغواء، الشفاه التي لا تنغلق ولا تنفتح تمامًا، بل تترك مجرى صغيرًا لتسريب الرغبة إلى عينين تشتهيان أكلهما أكلا، هذه الحرارة التي تجعل الأيدي تنتفض فوق طاقتها، فتقع مطفأة سجائر صغيرة من يد إيرين على الأرض، فوقها تتلامس الأكف المرتعشة المنتمية إلى جذعين انحنيا في نفس اللحظة لالتقاطها، تظهر

ارتجافة في الأعناق في أثناء الافتراق، في ابتلاع الريق بصعوبة بعد أن عاد كل منهما إلى مكانه، دون أن يلحظ برديس أيًا من هذه الأشياء التي أحرقت قلب سعاد، وأذاقتها طعم الدم من فرط ضغطها بأسنانها على شفتها السفلى. قويت شكوكها بعدئذٍ عندما صارت تشتم عطر هذه المرأة في ثياب رضوان، ثم تأكّد ظنّها عندما شاهدت الأسورة التي رأتها، مصادفة، قبل أيام في جيب بدلته -وظنّتها إحدى الهدايا التي يتقرّب بها لذوي السلطة - تضيء معصم إيرين.

وجدتها شفاعة تحت السرير، بعد أن قلبت البيت عليها:

- عاملة في نفسك كده ليه يا ست الستات! طيب شوفي الهانم! "تقصد صافيناز" بتقول إيه على المخفية إيرين.

تقلّد صوتها وطريقة كلامها:

- ما دام لا هيتجوّزها ولا هيصرف عليها، يبقى مفيش مشكلة. خلّيه يرمرم مادام غاوي رمرمة.

لم تعرف سعاد ما الذي جعلها تنام هناك، ولم ترتكب، مرة أخرى، هذه الحماقة -التي أرجعتها إلى الطرائف التي يضيفها لحياتها البيه الذي لم يحفظ للبيت حرمته، ولم يكن مخلصًا حتى لصديقه -باعتبار أن عدم إخلاصه لزوجاته لم يعد يستحق التعليق- كما لم تعلن لرضوان

اكتشافها، ولم تذكر ارتباك إيرين وانقطاعها عن زيارتها، فقط بدأت تنظر في المرآة فترى امرأة أخرى تشبهها، تتفرّج عليها وهي تلقى رضوان بابتسامة زائفة، ترضيه في الفراش من وراء قلبها حتى تضمن أن يوصي بالعزبة وبيت شارع محمد علي لولدها، ثم وهي تختصر من مصروف البيت وتسرق السجائر من علبته، وتنفخها في السر، كما لم تعد تشغل بالها بالدعاء على أصدقائه "رفاق السوء"، أو على "حسنين" الخولي الذي تعتقد أنه يزيّن لرضوان تقديم الرشاوي لذوي السلطة والنفوذ، لم تعد تتعب نفسها في التوسل إلى الله لكي يغفر له، غير أنها تنظر لفناجين قهوة العزاء السادة الآن، وتدعو له بالغفران وتتمتم: ماحدّش معصوم. ثم تتذكر لحنًا ينساب في جوارحها..

الله يصون دولة حسنك

على الدوام من غير زوال

ويصون فؤادي من جفنك

ماضي الحسام من غير قتال.

كانت قد كفّت عن الشغف بالتلصص على قاعة الرجال بأسرارهم وفضائحهم، إلى أن أعادها شجو عدنان الكردي، العوّاد الذي ضمّه البيه

إلى سهراته الأسبوعية من باب التغيير والتسلية كما لإضفاء الترف والفخامة عليها.

يحكي عدنان ذات ليلة عن عائلته المتشبثة بالتقاليد إلى حد الاستهانة بعشقه لفتاة تنتمي لعائلة ذات مذهب مختلف، ترفض العائلتان زواجهما، فيقرّر عدنان الرحيل والعزوف نهائيًا عن الزواج لأنه كان يعرف أن حبه الذي لم يتوقف بعد عن النبض سيظلم أي امرأة أخرى. يضحك رضوان وأصدقاؤه من "رهافة" العوّاد، وتفهم سعاد أن الرجال ليسوا كلهم أنانيين ومتكبّرين مثل زوجها، فلدى بعضهم نبلٌ ورقي وشهامة، وجدتهم في نتف أحاديث وحكايات العوّاد عن عشقه المستحيل، وعن مأساة عودته بعد فترة ليجد ديار العائلتين قد تحوّلت إلى أنقاض على يدي نفس الاستعلاء والمشاحنات المذهبية التي أجّجت نيران الغلّ والكراهية، جاب، بحسرته وقلبه المكلوم، أراضٍ وبلدات يرتزق من أوتار العود وصوت وديع، يبهج ضيوف البيه ويقلب حال امرأة "زوجة وأم" آلت على نفسها أن تكون نموذجًا للفضيلة والعفاف، تفزع من ضيفتها زوجة تاجر القماش عندما تصف زوجها: راجل حلال فيه الخيانة. بسبب حكاياته مع زبونات الحان، تعنّفها وتدعوها للاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وتشهق مذعورة من شكوى ضيفتها الأخرى التي يطالبها زوجها الذي بدَّد ثروته

بملاطفة ضيوفه ذوي السلطة، فلا تعرف ماذا تقول لها؟ تشعر فقط بالاختناق وبالحاجة إلى هواء نظيف تتنفّسه.

كنت فين والحب فين؟

لم.. يفارق لحظ عين.

تصغي لدور "كنت فين" لعبده الحامولي، بصوت عدنان، فينحفر اللحن في وجدانها، صارت تحمله وتهرب إلى ممرات البيت الخاوية، أو تسرع إلى المطبخ وتصرّ على تقطيع البصل كي تتخذ من رائحته النفاذة مبرّرًا لتحرير دموع تهفو للانعتاق وتخشى المساءلة، يحملها اللحن فوق أجنحة الوجد، فتهيم بخيالات عن حياة لم تجرؤ على الحلم بها من قبل، ترسم بيوتًا مشرعة للسماء ترتفع من داخلها الضحكات وأنّات الفرح، عالمًا دون جدران تترع داخلها التعاسة، صارت تقضي النهارات في حالة ملتبّسة بين الوجود والغياب، في انتظار وصول رضوان وامتلاء القاعة بضيوفه، تقترب على مهلٍ وتُصغي: ترى ماذا سيغنّي لي هذه الليلة؟

لو فتح أحد قلب سعاد في تلك الفترة لوجد داخله امرأة اصطفاها الله لهذا الحب الفريد الذي يتغنّى به الكردي، تمنّت سعاد لو أنها هذه المرأة، فلو كانتها لتشبّثت بهذا الحب، حتى لو اضطرت لهجر أهلها من أجله، من أجل لحن ترك في صوتها نعومة، وفي حركتها هارمونية

أسقطت حواف العالم الجارحة، وتاقت للانزلاق فوق موجاته الحانية، مفعمة بالرضا في النوم والصحو، عدا أن التشوّش أصابها عندما.. أحسّت بذراعيّ الكردي تطوقان خصرها، ثم تفاقم بعد أن وجدت منديله تحت وسادتها، فركته في قبضة كفها، غير مصدّقة، ثم ضغطته إلى صدرها، إلى قلبها، ثم تركته منزعجة، ولم يمنحها قسم شفاعة -بأنها هي التي وجدت المنديل المنقوش على طرفه اسم الكردي في قاعة الرجال بعد انتهاء السهرة- ولا بخورها ورقياتها يقيناً يهدئ روعها، احتضنت ولدها ولم تعد تنام إلا بجواره، خوفاً من مطاردة الأحلام، عدا أنه فجأة انقطعت رِجل الكردي من السراية ولم يأتِ رضوان على ذكره، خافت أن يكون قد رأى المنديل تحت وسادتها، أو غاص في سرها واكتشف هيامها أو وهمها، وعلى الرغم من هذه المخاوف، فقد تجرّأت ذات مرة، وسألته عنه، فأجابها:

- مات.

- هه! مات ازّاي؟

- هو الموت محتاج استئذان؟!

انتفض قلبها أمام نظرة رضوان الصارمة، فانسحبت بهدوء إلى غرفتها، بكت وعجزت عن بلع حتى شربة الماء لعدّة أيام، ثم صارت

ذكراه تلوح بخاطرها كل فترة، فتتنهّد بأسى ثم تقرأ له الفاتحة، وتدعو له بالرحمة، وكانت دموعها على خدّها عندما رأت، بعد سنوات، من مات و"شبع موتا" وقرأت له الفاتحة عشرات المرات يحتل ركنًا في إحدى صفحات جريدة، أجرت تحقيقًا صحفيًا عن مقهى مسك الليل، آتية على ذكر العوّاد الكردي الذي يأتيه عشاق الطرب من الإسكندرية وحتى سوهاج، أدركت أن رضوان احتال عليها، لأنه حزّر إعجابها به، لكنها لم تتصوّر أن تجنح مخيّلته إلى هذا الحد! فكّرت وهي تتأمل أنامل الكردي الرهيفة فوق أوتار العود أن الكثيرين من الناس المحيطين بها داخل سرادق الحفل في حديقة الأزبكية يرون الحياة بشكل مختلف، رمقت بحسد نساء يصفّقن ويتكلمن بطلاقة للثناء على الطرب، تمنّت لو تفعل ذلك، عدا أنها لم تجرؤ، ولم تكلّم عدنان، فعندما التقت عيناها بعينيه أحسّت أنها تعرف هاتيك العينين، قبة الجفنين، منحنى الحاجبين، وهالها أن نظرته هي الأخرى كانت توحي بأنه يعرفها، وكانت تسرع الخطى هاربة، وتُقسم من بين لهاثها أنها لن تراه مجدّدًا حتى تموت، وما إن دخلت البيت حتّى انفطرت في البكاء، فيما كانت ضحكات رضوان وأصدقائه الرنّانة تصلها من الغرفة الأخرى وتغيظها، فتدعو الله بأن يجعله يتعذّب كما تتعذّب.. أن يعرف الحب.

- الآن لا تجوز عليه إلا الرحمة، ربنا يرحمنا جميعًا. تهمس لنفسها وتفكر، يكفي أنه ترك ثروة ستجعلهم يعيشون مستورين، بل ميسورين، بل يعيشون عيشة الأمراء، ويكفي قبل ذلك أنه أبو ولدها فارس.. "فارس أحلامي" كما تحب أن تناديه، لتفرحه، وتعوّضه عن جفاء أبيه، وأيضًا لكي لا تنسى أنها كان لديها في يوم ما أحلام، تبدّد أغلبها، وتحقّق أهمها بقدوم فارس ذي العينين الجميلتين اللتين تغريانها بتصنيف نظراته.. نظرة حائرة مضطربة في مواجهة أبيه، نظرة متوهّجة تشتهي الحياة والنساء، نظرة لا مبالية تلمحها رغم محاولاته لمداراتها، وأخرى شقيّة تجعلها تلوم نفسها وتعترف بأن تعاستها قد انعكست، رغما عنها، عليه، وأنها عجزت في أغلب الأوقات عن أن تكون له الأم التي تمنّت أن تكونها، بينما كان هو دائمًا الابن الذي تمنّته، يكفكف دمعها، يقبّل وجنتها، يضغط بكفه كفها تضامنًا أو تأكيدًا لكونه يفهمها، أو على الأقل يشعر بما تعانيه.

- مالهم الفلاحين؟ وبعدين استنّى بقى.. أمال إنت إيه يعني؟ جاي من أوروبا؟ تكونش ابن البرنسيسة لبيبة أم سويلم وإحنا مش واخدين بالنا؟!

تعرف سعاد أن لسانها الذي يصمت شهورًا، وأحيانًا سنوات، ينفجر في لحظة باصقًا كل ما علق به طوال تلك الفترة، تعرف أيضًا أن

هيبة رضوان هي أهم ما بوجوده، لذا توقّعت أن يغضب، يخاصمها، يهجر غرفتها، أما أن يصفعها بكل قوّته قبل أن يفعل كل ذلك!!

- ساعة غضب وعدّت. ماتزعلش. تقول لفارس وهو يتحسّس خدها المتورم، ثم تستطرد:

- سيبك إنت. أنا كمان قلت كل اللي في نفسي وارتحت.

يضحك فارس، فتتنهّد بارتياح، تتذكّر تنهيدته الخجول، عندما قالت له: إنت كبرت ولازم تختار عروسة. همس:

- جميلة.

خبطت صدرها بكفها:

- جميلة مين؟ يا لهوي!!! جميلة بنت جمالات بنت ست أبوها العجانة!! يا شماتة العدوين فيكي يا سعاد!!

- ليه بتقولي كده يا أمي؟

- عايز تِفرّح فيّا صافيناز؟! بقى بنتها تتجوّز بيه ياما هنا ياما هناك، وأنا ابني يتجوز بنت العجانة؟! ده أبوك يعملها ويطلقني!

تعترف لنفسها بأنها رأت بريق الحب في العيون، ولم تسعَ لإيقافه في مهده، ظنته محض فضول من ولدها تجاه عالم النساء، ممثلا في هذه الصغيرة، أو تخبط مشاعر سني المراهقة، تعترف أيضًا بأن البنت جميلة، شهادة حق، لا عيب فيها، ولا حتّى في جدتها العجانة التي كانت سعاد تعطيها أجرها وتحسدها لأنها لا تحتاج لأحد، بل تمنّى لو أن لها مثل هاتين اليدين الساحرتين اللتين تخمّران العجين دون خميرة، تمنّت لو تمتلك مهارة أو تحترف عملا تكسب منه رزقها كي لا تنتظر عطاء رضوان، وكي لا تضطر للخنصرة من مصروف البيت، لتساعد جارتها الفقيرة أو الأخرى التي راح عائلها، بما يناسب مكانتها كزوجة للبيه، ضاقت بضعفها وقلّة حيلتها وعلى الرغم من كل ذلك فقد صاحت: جميلة؟ لا وألف لا.

تزوّج فارس أحلامها اثنتين، وشرع في زواج ثالث جانبه التوفيق، وهربت السعادة من قلبه قبل عينيه، ولم تفكر هي بصافيناز وهي مهمومة بالتعاسة التي دفعت ولدها صوبها، تشعر الآن بالندم على أنانيتها وغبائها، وبالخوف من أن يكون قد عانى مثلما عانت، وشقي بقلبه مثلما أشقاها قلبها الذي يحاول أن يسامح رضوان، فيما هي تدفس دمعها في نعومة الوسادة الساتان، وتلوم نفسها لتذكّرها كل هذه الأمور عنه، بينما جثته لم تبرد بعد، تلوم نفسها لأنها تنسى تحسنه في الفترة الأخيرة، ألم تلمح فيه

شيئًا من رقّته التي سحرتها قديمًا!! ألم تصبه نوبة كرم مفاجئ جعلته يتبرّع بمبلغ كبير،لأول مرة، للجمعية الخيريّة! ألم يحدّثها عن نيته في بناء مدرسة لأبناء الفلاحين لولا الوهن الذي أصابه كأن الشيخوخة داهمته فجأة! على الرغم من أن غيره ممن تجاوزوا الثمانين ما زالوا بصحّتهم وما زالت رجولتهم تنتفض صريحة و.. "اللي ما يشتري يتفرّج"، كما كانت تقول ست أبوها عن جارها الطاعن في السِن، انكسرت نفس رضوان وخفّ تعنّته وتكبّره بعد فاجعتيّ "ليلى وقدرية"، فوجئت بالأسى عليه يأكل قلبها -على الحب الذي ضلّ الطريق، على السعادة المغدورة- وتفلت منها الفرصة التي انتظرتها طويلا للتشفّي فيه، تحسّ فجأة بقرصة في خدها، تنتفض.. تتوقّعها قرصة نملة، تنهض وتأتي بالمسرجة، تقرّبها من الفراش وتفتش، دون جدوى.. يسري الهاجس في عظامها: ماذا لو خرج من جراب الحاوي ابن لبيبة الآن ابن جديد يقتسم مع فارس نصيبه من الثروة؟ تلبّسها القلق من أن يكون كل صبرها على الهوان لأجل ولدها قد راح سدى، محظوظة صافيناز وابنتها، تفكر، فقد منحهما رضوان نصيبيهما من فترة، بخلاف مجوهراتهما من الألماس والذهب المحلَّى بالأحجار الكريمة التي من حسن حظ سعاد أنها لم تحبّها ولم تحلم بمثلها، عدا انبهارها بالخاتم أبو فص كهرمان أزرق، المشابه لخاتم رضوان الذي لا يخلعه من إصبعه، حتى وهو يتوضّأ، الذي، أيضًا،

يبين في يده الممسكة بالمنشّة في بورتريه رسمه له أحد أصدقائه. ترى هل تنبّه فارس لأن ينزعه من إصبعه؟ نسيت كوب الشاي ونهضت مسرعة دون أن تضع القبقاب في رجليها. عنى لها الخاتم في تلك اللحظة الكثير، فهو آخر شيء من "ريحة" رضوان الذي حرمت من تقبيله قبل دفنه، في الطريق لغرفة فارس مرّت على غرفة رضوان، فتحتها، فتّشتها على عجل فلم تجد الخاتم، جلست على حافة الفراش الخاوي وأثنت على الخدم الذين وضّبوا الغرفة بعد الغسل، ووقع بصرها على وسادة ريش النعام التي كان يثني على طراوتها، لفتها أثر منحنى رأسه الذي ما زال ماكثًا فيها، فأجهشت بالبكاء. لا تعرف إن كانت لحظة أم ساعة زمن قضتها تبكي قبل أن تنهض متّجهة إلى الباب، ففاجأها دفق خفيف لرائحة غريبة وكريهة، ظنت أنها ستعبرها سريعًا، عدا أنها زادت ثقلا وتركيزًا وصار بإمكان سعاد أن تحدّد مجالها، تاركة أنفها يقودها عبر البهو الداخلي ثم الخارجي وصولا إلى الردهة القبلية، حتى توقّفت أمام باب الغرفة المهجورة المغلقة من يوم دخولها للسراية، التي لم تدخلها من قبل، كانوا يقولون إنها غرفة المرحومة "رية" أخت البيه، التي ماتت قبل زواج سعاد، رية التي يبعث ذكرها بنظرة غريبة في عيني رضوان، مزيج من حسرة وانجراح غامض، يحكي في قليل من الأحيان عن طرائف طفولتهما، ويُحجم عن ذكر شيء يخصّ الفترة قبيل موتها،

فتحت الغرفة، فهالتها الرائحة البشعة، حتى إنها سارعت إلى إغلاق الباب بعد أن دخلت كي لا تنفذ الرائحة بكثافة إلى باقي السراية، رأت منضدة مستطيلة كبيرة في منتصف الغرفة المكتومة، وبينما تضع عليها المسرجة، أحسّت يدها مبلولة في نفس اللحظة التي أحسّت فيها ببلل يصل إلى باطني قدميها، بماء أدركت عندما نظرته أنه وسخ، فيما كان السؤال يناوش دماغها: تُرى ما الذي حدث هنا؟

في الضوء الخافت للشعلة، ارتقت ببصرها إلى زاوية الغرفة، فرأت سرير "رية" النحاسي تكسو أعمدته ناموسية استحال بياضها إلى لون الرماد، لم تستطع أن تنتزع من ذهنها صورة امرأة ميّتة تجثو وراء الناموسية، ولكن لماذا تشعر بأن روحها تحوم في الغرفة؟ خافت واختنقت من الغرفة والرائحة معًا، حملت المسرجة والتفتت لتخرج، فشعرت بوخز في باطن قدمها يشي بأنها داست شيئًا صلبًا، انحدرت ببصرها فرأت شيئًا يلمع، انحنت منفعلة لتلتقطه، فوجدته خاتم رضوان ذا الفصّ الأزرق، فندت عن قلبها آآااهة طويلة.

ابن مبارز: همّام

ثمة قشعريرة داهمت همّام بن مبارز وهو يفتح باب الصومعة، باب خشبي متين باهت اللون مقشّر في مواضع عديدة، محفورة على أعلاه كتابة آيات قرآنية وأسماء أشخاص، متداخلة من فرط كثرتها، تلفّت وهو يخطو داخل الممر المائل، وتقدّم بحرص حتى تأكّد أن الغرفة خاوية، وجد الكنبة البلدي في مكانها، بنفس الكسوة ذات الورود الحمراء التي غطّاها الغبار بطبقة متجانسة، أزاحها بعيدًا عن الحائط، فظهر لوح خشبي مثل باب سرّي قصير، دفعه فظهرت ثلاث درجات، نزلها فتأكّد من أن السرداب خاوٍ، استنتج، وهو يحمي أنفه بكمّه من الرائحة العفنة، أن الأفندي قد عاد وأخذ جثمان البيه منذ فترة قصيرة. خرج وأغلق الباب السرّي، ولم يُعد المصطبة لتداريه؛ في الخارج بدت الليلة حارة ومضببة، لم يشعر برجليه تمشيان، ولم ير أضواء الكباريهات وهو

يتجه إلى شارع عماد الدين، فقط، كانت تضايقه حبّات العرق المنحدرة فوق وجهه.

- ربنا كرمك وكل حاجة تمّت زي ما كنت راغب وأحسن. وبدل ما تلطّخ إيدك بدمه وتروح في حديد ربنا خده وريّحك. مِبوّز ليه؟

لن تفهم لو أخبرها كيف كان يحلم بزمارة رقبته بين يديه، يضغطها على مهل ويتلذذ بتعذيبه قبل قتله، برؤية عينيه تجحظان ولسانه يتدلّى عندما تبلغ روحه الحلقوم، روح رضوان البلبيسي الذي استدرجته "بنورة" إلى الصومعة حسب الاتفاق، وعندما وصل همام رأى البيه عاريًا فوق بنورة:

- بون سوار يا رضوان بيه. مش عيب يا راجل على شيبتك تعمل العمايل الناقصة دي! قال ساخرًا وهو يصوب نحوه الطبنجة.

انتفض رضوان متلعثمًا: إنت مين؟ وبوجل مد يده يبحث عن ثيابه.

ارتفع صوت همام مهددًا بحركة الطبنجة: عندك. إنت لازم تخرج من هنا زي ما إنت كده. فاهم. رمقه رضوان مستنكرًا: عايزني أطلع عريان؟

همام ساخرًا: خلي الخلق تضحك حبة، بدل الغم اللي عيّشتونا فيه.

رضوان: غم إيه؟ أنا ما أعرفكش.

همام: بس أنا أعرفك.

رمقه رضوان: أيوه أنا عرفتك. إنت ابن مبارز.

- عليك نور، طلعت بيه بحق وحقيق.

يتوقف ذراع بنورة الباحث عن كم العباءة، فيما عيناها تراقبان رضوان بقلق، ثم بضيق من همام:

- ما تخلّصنا بقى، الراجل بقى له ساعة بينتع في روحه ويمرمط فيّا، ومش قادر يا عيني.

رضوان مصدومًا: إنتي ...؟

همام يلكزه في كتفه: قوم فز تعالى هنا.

رضوان متألّما ولكن بإصرار: أنا مش متحرّك من هنا يا ابن مبارز، اقتلني لو عايز.

تغشى الحيرة همام، بينما يتحرك بؤبؤا عينيّ رضوان قبل أن يقول:

- أو نفكّر في حل. كل مشكلة ولها حل يااا..

همام غاضباً: اخرس. مش هتخيل عليا الخباثة ودناستك دي. قوم فز يلا...

رضوان، بغاية الإعياء، يلتفت لبنورة: حبّة ميه أحسن عطشان موت.

همام يقهقه: ما إنت كده كده ميت.

بنورة تنظر لهمام بتأثر: استنى. حرام يقابل رب كريم وهو عطشان.

تنهض وتحضر له زجاجة ماء، يشرق رضوان وهو يشرب، ويبدو كأن روحه تطلع.

بنورة: يا لهوي الراجل هيموت بجد!

همام: ما يموت. يشعر بحركة فيتلفت، ثم مشيرًا لبنورة: روحي شوفي مين؟

يظهر فارس بيده الطبنجة صائحًا: أخيرًا يا ابن مبارز، ارمي الطبنجة دي من إيدك.

يرميها همام مرتبكًا من المفاجأة، يلتقطها فارس وهو بعد لم ير أباه.

بنورة: يا لهوي الراجل باينّه مات.

ينظر فارس فيرى أباه، يسرع نحوه: أبويا!

يتحسس فارس أباه الميت فيما يلتقط همام شومة، ويضرب فارس على رأسه، فيقع مغشياً عليه، وتسقط طبنجته على الأرض، يشير همام لبنورة التي تولول: اكتمي.

يسمع في أثناء ذلك همهمة من الخارج، ينظر من الكوة بالحائط فيلمح المخبر "أحد مساعدي الحكمدار"، أحسّ به يتبعه من أول الليل، بذل جهدًا كبيرًا ودوّخه السبع دوخات، وظن أنه أفلت منه. كيف وصل إلى هنا؟ وماذا ينتظر؟ قوة؟ دعم؟ يفكر:

- كده هاصت.

يسرع ويغلق الباب بالمزلاج. تنظر بنورة من الكوة فتجد ضابطًا انضم إلى المخبر:

- يا لهوي! بوليس كمان، يا حظّك الهباب يا بنورة!

- اكتمي قلت لك. تعالي شدّي الراجل معايا.

تجذب رضوان، بينما همام يدفع الكنبة ويفتح الباب السري ثم يخلع جلبابه:

- اخلعي هدوم الأفندي ولبّسيه الجلابية دي.

يجذب رضوان ويجرّه، ثم يدفعه داخل السرداب، ويغلق الباب، ويداريه بالكنبة. يجد هدوم الأفندي وقد خلعتها بنورة، فيلبسها بسرعة، ويلقي تلفيعته على وجه فارس المغمي عليه داخل الجلباب، يعود ويأخذ تلفيعته، تقع عيناه على الطبنجة، يزيحها بقدمه بعيدًا ثم يتجه، تتبعه بنورة، نحو شباك خلفي، يفتحه ويقفزان، ويغلقاه من الخارج في نفس لحظة دخول خمسة أفراد من عساكر البوليس.

يتسحّبان بين العشش حتى يفاجئهما اثنان من العساكر كانا كامنين يمين ويسار الطريق، يسأله أحدهما عن نزوله في نص الليل:

- لا مؤاخذة الحُرمة حبلى وبعافية شوية قلت أوديها الاستبالية عشان....

يسأله العسكري عن إثبات الشخصية، يخفي ارتباكه وهو يمد يده في جيب بنطلون فارس، ولحسن الحظ يجد المحفظة، فيخرج الأوراق ويريها للعسكري، فيوسّع لهما الطريق. يبتعد ببنورة ثم يعود ويقترب بحذر، فيرى فارس داخل عربة الشرطة وبيده الكلبشات.

ينتبه على صوتها:

- تكونشي عايز تتهرب من اللي اتفقنا عليه؟

يخرج من محفظة فارس عملات مالية، يعطيها بعضها، ثم يلتفت ويمشي. تستدرك ضاحكة:

- طب مش كنت تشوف لي متوى كام يوم أحسن الجدع ابن البيه يعتر فيا؟

لم يرد ولم يتوقف، حتى ابتلعه الظلام؛ بينما يدور حول نفسه، تلفح عينيه الآن الإضاءة اللامعة لمحلات متفاوتة المستوى، يندهش من أنه لم يرها من قبل، تبرز من داخلها أشكال وأحجام مختلفة من الآلات الموسيقية، تقع فريسة بين أيدي زبائن متفاوتي الأعمار، يفحصون ويختبرون، مسببين صخبًا يزعجه، يحس بلفظة سباب على طرف لسانه لكنها تراوح مكانها، ما الذي يمنعه؟ هل أصابه داء التأدب والوقار والكياسة، وغيرها من تفاهات الأفندية؟ تبدو هذه الليلة كل الأشياء غريبة، يشعر بغرابته عن نفسه منذ لحظة موت رضوان، كأن شخصًا آخر ولد في تلك اللحظة يطل على الدنيا من داخل بدلة الأفندي، يمشي في النور، على غير عادته، متجاهلاً فرصًا سانحة للنشل في التخوم المظلمة، تدعمها بدلة الأفندي الأنيقة التي تبعد عنه الشكوك، غير راغب في شيء ولا حتى في اللحم الدسم -الذي تهفهف رائحته الشهيّة-

على الرغم من أن محفظة الأفندي ما زالت معه، يضغطها بيده، لأنه ينسى أنه لم يأكل منذ يومين، كما ينسى أنها معه عمرانة أكثر من القديمة التي نشلها منه قبل أن يعرف أنه ابن رضوان البلبيسي. أفكار كثيرة تتدفّق بذهنه، يربكها إحساس عارم بالخواء، بأن مبرر اختبائه وربما مبرر وجوده أيضًا قد انتهى بموت رضوان البلبيسي، لن يعبأ الآن لو داسه أوتومبيل، أو أصابته طلقة من بنادق البوليس، أو حتى من طبنجة الأفندي الذي طب عليهم في الصومعة "على غفلة". انتهى الأمر -حتى لو لم يتحقق الهدف الذي انغلقت عليه حياته بالشكل الذي أراده، فمات رضوان بدلاً من أن يقتله- انتهت لعبة العسكر والحرامية التي اختار فيها النشَّال الحرامي أن يكون العسكري، كي يقتص من البيه الذي سرق طمأنينته وحياته، عدا أنه عدّل الخطة بعد أن رأى فارس وراقه أن يقتل الابن كي يحرق قلب الأب، بما يفوق عذاب الموت؛ ظل لسنوات يلاحقه، ثم اكتشف أن المتعة في الاقتراب، في الإرعاب، في تنغيص عيشه، وتدمير حياته وهو حي لأطول فترة ممكنة قبل قتله.

- دعه يعش خائفًا مهدّدًا مهزومًا، دعه يتعذّب، أنا لك، أنا هادم لذّاتك ومبدّد طموحاتك.

يزفر ساخرًا من شيطنة اللعبة، فخلال هذه السنوات تم تبادل للأدوار بينه وبين الأفندي، فالفارس لم يقبل بدور الحرامي، في كل مرة يظهر أحدهما طبنجته للآخر، ثمة خوف، سرعة للاختباء، ثمة شر يسبح في الأجواء مترقّبًا: من يضغط الزناد أولًا؟ يستمتع همام باللعبة، ويضحك من الأفندي الذي لم يبدُ مستمتعًا مثله، وإلا لما لحق به لقتله، سنوات قضاها في الكر والفر، نفس اللعبة لعبها مع الضابط مدكور "الابن البار للبوليس السياسي"، غير أنها توسّعت بعد العمليات التي نفّذها لصالح التنظيم السري الذي يبيت أعضاؤه هذه الليلة في السجن، في انتظار المحاكمة. انتهى الآن كل شيء، فالصومعة المهجورة المتداعية التي كان الناس يخشون دخولها، التي اختارها أعضاء التنظيم ليودعوا بها المنشورات والأسلحة المسروقة من أقسام الشرطة اكتشفها البوليس، ولحسن الحظ كانت خاوية ولن يمكنهم إثبات شيء عليه، لكنه لن يجرؤ على ارتيادها مجددًا، خاصة أنه لم يعرف بعد هل كان رجال البوليس يراقبون الصومعة فرأوه يدخلها؟ أم كانوا يراقبونه هو فقادهم إليها؟ كما أنه فقد حماسته للانتقام من مدكور، ففي هذه السنوات مات الآلاف وخربت البلد، والجيوب صارت خاوية، حتى النشل لم يعد مجديًا، صار الأمر أكبر من قدرة أحد، ولم يعد تأديب ضابط مجرم وخائن كافيًا لإنقاذ البلاد، و... يشعر بحاجة إلى الاعتراف

بأنه يكره نفسه عندما يدّعي بطولة زائفة، وأصدق ما يحسه هو أنه بموت رضوان لم يعد مكانه هنا، "مكانه!!" يدهشه رنين الكلمة، فما من مكان رش أرضيته بالماء وسواها قبل أن يضع عليها رأسه، أو دق مسمارًا في حائطه وعلق عليه جلبابه كي يشير إليه باعتباره مكانه، كلها استراحات توقّف فيها لالتقاط الأنفاس، ثم عاود الجري بسرعة ابن عرس هاربًا.. من صيحات عيال الدرب، إلى عواء الجبل، من بيوت الوقف المتهالكة في شارع الخليج إلى جحور حارة الطواشي، من محجري عينيّ مبارز الفارغين، إلى شيخ النشالين، أم من نفسه؟ إلى ...؟ لا يعرف إلى أين سيذهب أو ماذا سيفعل؟ يعبر الشارع ويتنشق الهواء عميقًا وهو ينظر نحو السماء، تبدو الخطوط على سطح القمر بهيئة منحنى متعرّج، يهمس: جبل العميان. يرفع ذراعه ويتحسس بأنامله وعورة دروب وأغوار الجبل الذي ضاع فيه بعد مقتل أبيه، يرى الصبي الذي كانه مكومًا فوق الصخر، لاهثًا يوشك على الموت من فرط العطش، لولا ظهور شيخ من البدو، مد يده نحوه بزمزمية ماء، تبعه الصبي إلى حفرة ببطن الجبل تشبه "مندرة" كبير السوالمة، الضوء الهادئ وفرته مسرجة زيت صغيرة، الأرض مفروشة بفرو الماعز الأبيض المتماوج بالعسلي، وفي الزوايا وضعت وسائد مريحة، وعلى الجدران علّقت بعض معدّات الصيد. الشيء الوحيد المزعج كان وجه الشيخ "عابد" المجدور، الأكثر

دمامة على الإطلاق في كل ما رأى من وجوه، عدا أنه سرعان ما طغت الطيبة المتدفقة في كلامه وحنو صوته الذي يبسمل ويحوقل بينما تمسّد كفه رأس الصبي، دون أن يسأله كيف احتملت قدماه قطع هذه المسافة الطويلة، في هذا الحر، من درب السوالمة محتملاً وخز الهيش والغاب والحرازي حتى بلغ الجبل، أو عن سبب قدومه، ما شجّع الصبي على سؤاله:

- تعرف أبويا يا شيخ؟ يهبط جفنا الشيخ وهو يرفع رأسه إلى أعلى، ويتنهّد تنهيدة طويلة:

- ما يعرف المخلوق غير الخالق يا ولدي.

أحس بصوت الشيخ صادقًا، مثلما أحس حزن رجال السوالمة وهو يضربون كفوفهم:

- مبارز مات بحق وحقيق!! مبارز اللي حيّر البيه سنين!! يا ميت خسارة.

يعلّق الأهالي بينما ينبّههم أحد الشيوخ لوجوب دفن الميت، لكنهم يتردّدون خوفًا من غضب البيه الذي أراد أن يجعل من نهاية مبارز عِبرة لمن تسوّل له نفسه التمرد، لزمهم يوم بليلة حتى استجمعوا

شجاعتهم، وعندما وصلوا لم يجدوا سوى مِزق لحمية شائهة، متناثرة، وعظام نائتة أعياهم جمعها.

- كيف تجرّأت على لحمه الجوارح التي كانت تخشاه!! يتساءل أحدهم بمرارة.

شهد حزنهم يكبر ثم يتضاءل أمام مخاوفهم من هجمات مطاريد الجبل "انتقامًا لمبارز: رفيقهم"، شكّلوا فرقًا من الشباب يسهرون الليل لحراسة الدور والغيطان والأجران والزرائب، حتى أصابهم الإعياء دون أن يظهر أثرٌ لمن توقّعوهم. دهشتهم لم تمنحهم ارتياحًا، فقد بدأت تسري مخاوف من عفريت مبارز الذي سيعتبرونه، لسنوات طويلة، رابضًا وراء مصائبهم الجليلة، فعندما وقع طفل أحدهم في بئر الساقية قالوا: عفريت مبارز هو الذي جذبه، وعندما صرخت امرأة مذعورة من قط أسود يتحوّل في الليل إلى مارد أشعل الحريق في الجرن، صاحوا: عفريت مبارز. حتى الصفصافة التي كانت تحتضنه بأغصانها وأوراقها المتدلية كالخيام صارت تتراجع وتهتز عند اقترابه. هو نفسه صاروا ينسون أن اسمه "همام"، فعندما يطل وجهه من بين طيات تلفيعة مبارز -التي نجت من صنابير دمه لتصبح إرث همام ولده الوحيد- يصيبهم الفزع ويصيحون: عفريت مبارز!! يعطيه هذا حفنة أرز، وتضع

هذه بحنكه نسيرة لحم، تعاطفًا مع صبي السوالمة اليتيم، تعاطفًا يبدو صادقًا في بعض الأحيان، أو مشوبًا بالخوف من عفريت يتوقعون خروجه من قمقم هو جسد الصبي الذي لا يعرفون له أمًا، قالوا، والله أعلم، أن امرأة من الغجر، تركته عند باب الشيخ سالم وقالت إنه ابن مبارز. رعته وهو رضيع عجوز حنون، ثم صارت كفالته، بعد موتها، مشاعًا بين السوالمة، فيما كان يظهر كل فترة رجل بعينين واسعتين يضمّه ضمة حنونا رغم قوّتها، يحرص على دفع تلفيعته السوداء للوراء لكي يحسّ بملمس جلد الصغير فوق وجهه، ثم يعطيه أصنافًا من الحلوى، قبل أن يودّعه، على عجل، قاطب الجبين. اختفى هذا الرجل الذي عرف الصبي همام أنه أبوه، ثم صار السوالمة بعد مقتله يخافون من شيء يرونه في عينيّ ابنه، لا يعرفه هو. يفتح الشيخ عينيه محملقًا بالصبي همام:

- مش خايفين منك. خايفين من عملتهم السودة في حق أبوك اللي بيشوفوها في وشك. غلابة. اللي ظلم أبوك ظلمهم وشيّلهم ذنوب.

يرفع الصبي رأسه، وتمسح عيناه الجبل مأخوذًا بضخامته وهيبته وثباته. يأتيه صوت الشيخ:

- لا بد نتوب. يستطرد مفسرًا لدهشة العينين اليافعتين:

- ما أنت للجبل. الجبل له أهله يا ولدي.

لم ينتظر ردًا. استند على عصاه ونهض، فتبعه همّام حذرًا من أن يلتفت الشيخ فيرى نوى البلح الذي أسقطه من جيبه مع كل خطوة، ليعَلّم به الطريق إلى المغارة، فلسنوات ظل كلما غضب من السوالمة هجّ إلى الجبل، عرف مداخله وأثلام صخوره وجاب ممراته وسراديبه دون أن يجد أثرًا للمطاريد الذين تدور عن جبروتهم نصف حكايا السوالمة، والذين لم يذكر الشيخ عابد بشأنهم سوى عبارة "العلم عند الله". في كل زيارة يكشف له الشيخ سرًا من أسرار الجبل، وفي كل مرة يرجوه ألا يعود. علّمه كيف يُطفش الضُبان والعقّارب والعناكب برش مسحوق غريب، يعدّه الشيخ بنفسه، في دائرة حوله، وكيف يأمن شر الثعابين والأفاعي، علّمه كذلك صيد الوعول وحرّم عليه صغارها المتشوّقة للحياة، من حكايات الشيخ تعرف إلى عالم الضواري والجوارح، وعندما ارتجف من عُقاب ضخم كثيف الريش -أبيضه عند الرأس وأسوده في باقي الجسد- حط فوق صخرة قريبة أشار له الشيخ ألا يخاف: دِه صاحب مبارز.

يبدو مبارز لغزًا، يفكر الصبي، يصاحب العقاب ويعادي البيه، يهج من الدرب ليصاحب المطاريد، وماذا عن هذا العقاب الذي يقترب

منه كأنه يعرفه؟ يريه قوته ويجنبه أذاه، يحدق همام فيه، ثم في الشيخ الذي يخفي ما يريد ويكشف، وقتما يريد، يتتّبع مسالك النجوم، ويُصغي لما تبوح من أسرار، ثم يخبر همام ذات ليلة بانقطاع عيشه من درب السوالمة...

- فضيحة معتبرة.

يغمغم وهو يتململ داخل بدلة الأفندي الخانقة، ثم يسرع الخطو إلى غرفته يريد أن يخلعها ويمزقها ويبصق عليها، ويتذكر كيف مزقت "سبيلة" أرملة "الجد بسيوني"، أحد شيوخ السوالمة، جلبابه قبل أن تقطع رجله نهائيًا من الدرب.

وضع الشيخ عابد في كفه حفنة عملات مالية وهتف: بلاد الله واسعة يا ولدي. مطرح ما قدمك تاخدك هيجيلك رزقك. ثم عانقه قبل أن يعطي ظهره للجبل عناقًا سيفتقده عندما يصطدم بمن هم أكثر قسوة من الضواري والجوارح في ربوع المحروسة، سيُظلم ويظلِم، سيحتمل الجوع والعراء، سوف يروض نفسه على أكثر الأشياء صعوبة، على النوم وهو واقف، على السير حافيًا فوق كسر الزجاج، على هضم قشر البطيخ حتى لا يضطر لاستجداء كسرة خبز في سنوات الحرب الصعبة -التي اشتهرت بفقر لا مثيل له، يدوّخ الناس السبع دوخات في البحث عن

شيء يؤكل وسط أكوام القمامة الشحيحة- حتى يصبح مستغنيًا عن كل إنسان، وبارعًا في أغلب الأعمال، لولا غلظته في التعامل مع الزبائن، ومناكفته لشيوخ الحِرف التي ضيعت منه الفرصة، ودفعته لطريق آخر.

سوف يمشي في زحام الأسواق، ثم يتوقف عند الرجل الذي يناسبه.. الثياب القيّمة هي التي ستجذبه، خاصة الفضفاض منها الذي سيمنحه الفرصة كي يفعل ما يشاء، يقترب، يقترب أكثر حتى يكاد يلتصق برجله المنشود، عندئذ تنزلق يده لتعبث كيفما يحلو لها، ثم يهب متراجعًا بعد أن يتحقق رجاؤه وبلمح البصر يكون قد اختفى.

- لما إنت ابن كار كان الواجب تيجي لي الأول.

بفضل شيخ الطائفة تعلّم أصول النشل بفنونه وآدابه، مستخدمًا يدين صارتا بخفة الريح، أو حد موسى صغير إذا اقتضت الحاجة، وبفضل ولاء جسمه وعقله له أثبت براعته وذاع صيته بين نشاليّ الغورية والحسين، وتحسّنت أحواله المعيشية، حتى صار له مأوى يخصه وحده، يتقلب بصبيانية فوق المرتبة، يقبل يديه "وشا لظهر"، عدا أنها ساعة واحدة يأخذه فيها النوم ثم يفلته، فينهض دون سبب، غارقًا في عرقه، شاعرًا بروح مبارز تكاد تسطو عليه، بالموت يحوم من حوله،

يلف سيجارة وراء أخرى، يركل المرتبة بغيظ، يخرج، يمشي، يعود، ولا برء لنفسه، حزر بعد فترة أنه يكابد حرمانًا غامضًا، يذكره بدوي انبعاث العواء القديم -الذي عرّفته إليه "سبيلة" أرملة جدّه الشيخ "بسيوني" في درب السوالمة- في جسده الفتي، عندما لجأت إليه باعتباره صبيا صغيرا "لا شغلة ولا مشغلة"، كي يعاونها في بعض المهام اليومية لانشغالها بأبنائها الصغار، تجرأ ذات مرة واقترب بفضول من قبتيّ صدرها بعينين فارقتهما، تلك اللحظة، براءة الصغار، اضطربت ودفعته وهي تلملم تقويرة جلبابها ثم قرصته في أذنه، ثم مالت وهمست في أذن الكبير عندما مرّ بدارها شاكية:

- شفت الواد العفريت؟! انتفض الكبير غاضباً:
- ماله؟ إياه يكون ..

بدلاً من أن تروي ما فعله كما كانت تنتوي، وجدت نفسها تقول:

- شتمني وضرب الواد الصغير.
- خلاص هحرّم عليه يعتب دارك.
- لا لأ. أهو برضه بيساعد. بس يا ريت زيادة ربابة.

عندما عاد همام في اليوم التالي، كان متردّدًا، لكن انكسار عينيها أمامه جعله أكثر جرأة. برم شعرها بكفه الفتية مقرّبًا وجهها من وجهه حتى صرخت. خلّصت شعرها من يده ثم لكزته في صدره:

- مش كده يا ابن الهبلة.

جذبته فانقطع جلبابه المهترئ، كان محتشدًا بالفضول لمعرفة ماهية النساء، فيما كانت "سبيلة" أرملة الجد "التي لم يغادرها الشباب تمامًا تعاني حنينًا لأنثى ظنّتها قد ماتت داخلها من زمن طويل، غير أنها فوجئت بها تفيق، من أول لمسة، وتُبعث بحيوية أكثر من أي وقت مضى، هكذا رآها الصبي فعوج طاقيته وتصالح مع الدنيا، كفّ عن تعذيب الحمائم والقطط، وعن ترهيب العيال، نام في باطن الشجرة ثم فوق صدر سبيلة التي عوّضت الطفل الذي لم يغادره بعد عن حرمانه من حنان الأمومة، كما دفعت بالرجل الذي يقف على أعتابه نحو مسّرات مدهشة؛ في الغيط، نهارًا، تصفعه على عجيزته، كأنه أحد أطفالها، إذا نعس: انهض يا تور، ورانا شغل كتير. وفي الفراش، ليلًا، تسعى بكل طاقتها لإرضائه، وما إن تبلغ الحمّى ذروتها ثم تبدأ بعدئذٍ في الهبوط، حتى تَغرق "سبيلة" في سيل من الدموع، أراد همام أن يفهم: لماذا تتعذّب إلى هذا الحد؟ لكنه لم يجرؤ على سؤالها خشية أن يفقد

النعمة التي منَّ بها الله عليه، عدا أنه رآها ذات مرة تملأ جرتها بالمياه من الطلمبة فتوارى كي لا تراه، ومن مكمنه لمح غمزات تبادلتها عيون نساء الدرب اللائي تركن جرارهن والتففن حولها، يسألنها بمكرٍ عن سرّ تورّد خديها المدهش، وعلى الرغم من حرص "سبيلة" على تجاهل التلميح، فقد توقفت عن السير عندما سمعت إحداهن تودّعها:

- مع السلامة يا مرة جدي.

خاصة مع القهقهات الصاخبة التي تلت العبارة، وأقلقت الصبي المتواري.

مسحت "سبيلة" "بربور" صغيرها بطرف جلبابها، ثم تطلّعت نحو همام وأخبرته وهي تشيح بعينيها بعيدًا بأن كل شيء بأمر الله، لم يفهم ما تقصد، بل فوجئ بها تضرم نارًا صغيرة في حفرة بالزريبة، ثم تخرج صائحة، تشير نحوه:

- الحقوا يا ناس، الحقوا يا هو، عفريت مبارز هيولّع البلد.

نظر نحوها مذهولًا، وفيما كان الهلع يبرق في عيون رجال السوالمة، كانت عيناها تودعانه بأحرّ الدموع وهو يجري هاربًا، إلى قطار المحروسة، ثم من حارة إلى أخرى، حتى يستقر لسنواتٍ عند شيخ

النشالين، الرجل العصامي المتين، الحكيم الذي لا يفوه بالدرر إلا وهو مخمور:

- ما يطفش وسواس الليالي إلا النسوان الحِسان.

دلّه الشيخ على الطريق، في الليالي المتقشّفة يذهب إلى "بنورة" ثم يأنف وصالها في الأيام الرغيدة، بعدما عرف من هنّ أشهى وأجمل منها، عدا أنها الوحيدة التي لم تنفر أو تخف من تقلباته المزاجية الضارية، وجومه المفاجئ أو غضبه الجنوني بعد سعار القهقهة والفرفشة، لذا حرص على عدم قطع حبل الوداد، بنورة أيضًا هي التي عرفته على أسرار النساء ومكامن ثوراتهن، وبهذه المعرفة العميقة تمكّن من أن يجعل ليلى بنت رضوان مثل الخاتم في إصبعه، كانت جميلة ووديعة و.. تحبّه، فيما كان يفكر بعدد الطلقات التي سيفرغها في جسدها، قبل أن يرمي جثتها لأبيها، أحسّ لشعرها الذهبي الطويل بملمس الحرير فوق جلده، حينما كان يحسب إن كان طوله يكفي للفّه مرتين أم ثلاث حول عنقها، ليخنقها به قبل أن يرمي جثّتها لأبيها؟ وكلما نظرت نحوه بعينيها الجميلتين المحبّتين لا يرى سوى إجرام أبيها الذي ضيّع عليه حتى فرصة قتله، خسارة! يهمس، لكنه على الأقل أذلّه، أرعبه وأذلّه، وشهد بعينيه موته بعدما استدرجته وأوقعت به

البنت "بنورة" التي على الرغم من أنه منحها "المعلوم" الذي اتفقا عليه، فسوف يظل يعتبر مجازفتها لأجله جميلاً في عنقه، يكفي أنها لم تخذله أو تتخلّى عنه كما فعل الشيخ الذي وضعه في صدارة صبيانه، كما أسداه نصيحة أبوية غالية للتغلب على الأرق والوساوس، إلا أنه خذله -بعدما كسب من ورائه ذهبًا - ولم يتحمّله في الفترة الصعبة، أيام حكاية الواد "سُمعة"، الأيام التي شهدت خروج الحشود المحتجة بهتافات رجت البر كله، الحشود التي رآها همام فجرى "ريقه". انزلق بين الرجال المتفاوتين في المظهر والأعمار وراح -كي لا ينكشف أمره- يهتف مثلهم: تحيا مصر. بدا له ذلك تزجية طريفة للوقت في انتظار اللحظة المواتية للانخراط الفوري في مهنته، عدا أن الطرافة انقلبت نكدًا، إذ انقض على المتظاهرين عساكر الشرطة، رشقوهم بوابلٍ من الحجارة، ثم ضربوهم بعصي غليظة كانت إحداها من نصيبه، إذ جعلت نباح جنبه الأيمن مستعصياً على الدواء الذي وصفه له التمرجي، ولم يستجب سوى للبخة "نوى المشمش" والدهانات التي أعدّها له "كما لغيره من المصابين" طبيب شعبي نابه.

المرة التالية كانت في شارع الترومواي، عندما منحه تكرار المشهد شجاعةً للتوغل وراء رزقه -متجاهلاً إعلان شيخ الطائفة الانضمام إلى الإضراب الذي عمّ البلاد - فوقف الحال في الأيام السابقة أشعره

بالضجر، كما أتى على ما يقرب من نصف مدّخراته، إذ اضطر لبيع ساعة ثمينة بأبخس سعر ليعقوب الساعاتي الذي لا يغلبه أحد، انغمس وسط التلاميذ الذين دلت وجوههم اليابسة على أنه لا فائدة تُرجى منهم، ثم انحرف متقدّمًا بين "طفة" مشايخ وقورين، لكنه ما كاد يمد يده لأقرب سيالة، حتى رأى "الواد سُمعة" زميل الكار ينقر على كتفه بسبابته مؤنبًا:

- ما تختشي وتخلّي في عينك حصوة ملح. الناس في إيه وإنت في إيه يا ناقص!

"ما كان ينقص سوى أن يأتي عرّة النشَّالين هذا ويهينه عيني عينك!" يفكر همام غاضباً.

المكانة المحترمة التي اكتسبها همام بين أبناء الكار كانت تجعله يغضب من زملائه التافهين الذين يحسبون النشل لعبة، خاصة الواد سِمعة المهياص الذي لا يكف عن الغمز والتصفير لدى مرور امرأة ذات حسن، ما اضطر همام لتعنيفه خوفًا من أن تكشفهم مهيصته لأعين البوليس، لكنه لم يتصور أن يكون الواد "غِلاوي"، ينتظر له غلطة، كأن يكسر قرار شيخ الطائفة بشأن الإضراب كي يفضحه، حتى لو وسط المتظاهرين. يسرع همام، قبل أن يفهموا حقيقته كنشَّال وينقضوا

عليه، فيبتعد وهو يقسم أن يقتلع عين سُمعة بعدما ينفض المولد، ركز اهتمامه في أن يبقيه في مرمى بصره ولا يدعه يفلت. من كل شارع أو حارة يخرج مئات يضيفون لحجم المظاهرة بينما انتظر عساكر البوليس في العباسية، بأعداد يصعب حصرها، كانوا قد كمنوا ينتظرونهم تحت قيادة ضابط شاب دقيق الملامح، أنيق المظهر، تتدلى شُرابة طربوشه فوق صلعة رأس لامعة مميزة. بدأ الضرب كما في اليوم السابق ثم أخذ منحى آخر عندما أشار الضابط لجنوده بتطويق مجموعة من الطلبة. طوقوهم ثم نزلوا عليهم بأعقاب البنادق فسالت الدماء، اندفع المتظاهرون محاولين تخليص المطوقين، فحدثت فوضى أبعدت سُمعة عن عينيّ همام الذي خشي أن يورط نفسه في معركة لا تخصه، خاصة إذا كانت مع البوليس. اندفع فجأة وبمباركة الضابط واحد من العسكر فأطلق نار بندقيته على المتظاهرين، فاهتاجوا أكثر. توالى إطلاق النار وزادت الفوضى ودفعت الحشود همام فوجد نفسه في شارع جانبي، احتمى بجانب عربة خشبية "كارو" محملة بالقمامة، مصغياً لسعار البنادق وبقايا صرخات ورقع أجساد فوق الأرض، ووقع أقدام تعدو، ثم علا صوت سرينة عربة البوليس ثم صوت موتورها يتحرك، حتى خيّم الهدوء، فقّب همام من مكمنه يلعن اليوم "النحس" الذي اصطبح فيه بوجه الواد سمعة، وفيما كان يقسم بأنه لن يفلته، أحس بحكة في ساقه،

هبط بنظره فوجد صرصورًا يرتقيها، تعجب من الطيش الذي يتحرك به وسط هذه الجلبة ثم نفضه بغيظ وسبه بأغلظ الألفاظ، سار خطوتين حتى اصطدمت قدماه بشيء على الأرض، كان أحد التلاميذ مصابًا يتلوّى من الألم. على مضض انحنى ليساعده على النهوض، وعندما صار وجهه قريبًا من الأرض رأى سمعة راقدًا. هزّه:

- قوم يا عرص. انطق يا بغل يا ابن ال...

توقّف لسان همام في منتصف الكلمة، عندما رأى بقعة الدم تتسع على الأرض من تحت سُمعة. اقترب ومال عليه، تملّكه الغضب وهو يحدق في ابتسامة الرضا بوجهه الشاحب الميت، وقبضته المغلقة بإحكام على رِزمة أوراق "منشورات"، اقشعرّ بدنه وهو يسحبها، فيما صفعت أذنه أنّات العشرات الذين سقطوا على الأرض بين محتضر ومصاب، وضع الرزمة في جيبه ثم ركل الأرض بقدمه ومضى.

في ظهيرةِ اليوم التالي، كان النشّالون قد اصطفوا بجوار شيخهم، يتوزّع بينهم المبخّراتية مبتهلين: ما دايم غير الله. فيما سبقتهم الفرقة الموسيقية الجنائزية في الجنازة المهيبة لزميلهم الشهيد، عندما انتبهوا فجأة إلى أن مبارز.. "فص ملح وذاب".

يجري ويجري، يسبق من يلقاهم على يمينه وعلى يساره، يبتعد، يترك العمران حتى يجد نفسه وحده، في مكان لم يره من قبل، فيه أبنية مهدّمة وأعشاش مقّوضة وبينها توزّعت أكوام قمامة، يستند على أحد الجدران وهو يلهث ثم يصيح: ليه مت قبل ما أفقع عينك؟ ليه يا تور كبست على نفَسي وماخلتنيش أقلّب رزقي؟ كان زماننا أحسن اتنين في الغورية والحسين لو بسرعة نشلنا اللي نقدر عليه وطوالي طلعنا من المظاهرة. يصفع الجدار بيده: ليه ليه!

يخرج من جيبه المنشورات التي سحبها من قبضته الميتة، وينثرها في الهواء، وبينما تهبط إلى الأرض انفجر صائحًا: عشان دي!! ده انت لو قدامي دلوقتي كنت قطعتك... ده انت لو...

يرتعش صوته مع انحناءة مباغتة في ظهره، يتهاوى ويجهش بالبكاء.

قضى أيامًا راقدًا لا يعرف إن كان حيًا أم ميتًا، يخايله وجه الشيخ المجدور ومحجرا عيني أبيه الفارغين، وابتسامة سمعة الشاحبة، حلقه جاف وروحه مسحوبة، حتى ظهر العقاب ذو الرأس الأبيض. حوم في دورات عالية بخفّة مذهلة، نبّهت الراقد الذي رآه من بين جفونه غير متيقن إن كان واقعًا أم حلمًا، أتاه صوت الشيخ يحكي عن العقبان وشرفها العالي: إن شاءت ارتفعت فوق كل شيء، وإن شاءت هبطت

إلى ما تريد. لا تأكل الميتة ولا الرمم، بل من صيدها الحي، ومتى جاعت لم يمتنع عليها حتى الذئب. أحس بالموت يقترب فتحامل برفع جذعه واستند إلى ظهر الجدار القريب، وحرص على ألا يظهر ضعفه في عينيه، لم يرمش حتى لا تفوته من غريمه حركة. حط العقاب بالقرب منه فتواجهت الأعين، لم يعرف همام إن كانت هذه النظرة الجسور لاستعراض القوة، أم لشيء آخر، لم يعرف أيضًا كم من الوقت انقضى قبل أن ينقض العقاب على أفعى زحفت حتى ظهرت بالقرب من همام دون أن يشعر بها، اقشعر لرؤية المخالب المخيفة وهي تنقض على فك الأفعى السفلي بكل وحشية حتى تفسخ جسمها.

عجز عن ابتلاع ريقه متأذيًا من ضراوة المشهد، ثم هدأ في النهاية، ونظر للعقاب ممتنًا لإنقاذه حياته، وتذكر حينئذ قول الشيخ عابد: ده صاحب مبارز. صاحب مبارز!! يردد مستنكرًا بينما ينظر للعقاب ويسأله: لماذا تركت مبارز لتنتهكه القوارض؟ لماذا تخليت عن صاحبك؟ هل لمح في عين العقاب وجومًا، حسرة، ندمًا؟ أم لا شيء سوى وهمه؟ يراقبه وهو يبدأ في التحويم حواليه ثم يرتفع ويبتعد حتى يختفي.

يرفع همام رأسه إلى أقصى مدى، يدير عنقه من أقصى اليمين لأقصى اليسار، متأملاً الفضاء الذي لا أول له من آخر، يقرأ على صفحته إشارة، أمرًا، لم يستطع أن يتخيله أي شيء، عدا أن يكون الانتقام من القاتل.

ربض ليالٍ عند قسم الشرطة مستغرقًا في مراقبته، عرف أن اسمه "مذكور"، عرف رتبته وعاداته ومواعيد دخوله وخروجه من قسم الشرطة. الليلة التي قرر فيها تنفيذ مخططه الانتقامي كانت مشبعة بضباب كثيف، ولم تتوقف فيها الجراء الصغيرة عن النباح. واتته الفرصة حين رآه يخرج من باب القسم وحيدًا، ينزل الدرج، ينحرف يمينًا ويمشي، وليس هناك من أحد أو شيء سوى الظلام والنباح المتواصل، ووقع أقدام حصان يجرّ حنطورًا بعيدًا ويبتعد أكثر. لم يشك في كونه هدفه..

- لا شيء يشبه تلك الملامح الحادة والمظهر الأنيق والعنجهية الفارغة. الآن سيبدد كل شيء.

رآه يتجه للزاوية المظلمة المواتية تمامًا لأي عمل أخرق، التي حلم بأن يقتله فيها، حلم بكل شيء حتى نباح الجراء الصغيرة. رآه يمشي متمهلاً كأنه ينتظره، كأنه راغب في الموت على يديه، كأنه يتوسله.

طار ثم انقض عليه بعصا غليظة، أوقعته على الأرض وأوقع طربوشه، ريثما خطف الموسى من جيبه راح الرجل ينقلب محاولاً النهوض فرأى شعره:

- يا الله! إنها ليست نفس الصلعة!

أرهق نفسه في المرة التالية كي يتأكد من هوية هدفه. سار وراءه بمسافة كافية لئلا يحس به وهو يضغط بأطراف أصابعه حد الكزلك المدفوس في جيبه بشغف جنوني. اقترب منه أكثر وتأكد أن صلعته أكثر تميّزًا مما كان يظن. نبّهه النباح، ثم وقع أقدام الحصان المتباعد، ثم اقتراب وقع أقدام أخرى مختلفة من ورائه ومن أمامه، فأدرك من النظرة المتحفّزة بوجه غريمه الذي التفت نحوه، أنه وقع في كمين، ركله فوقع، وقبل أن يتمكن العساكر-الآتون من ورائه ومن أمامه- من تطويقه، كان قد قفز وأسرع يجري بكل قوته قابضًا على محفظة مدكور التي التقطها بسرعة بعدما عجز عن انتزاع طبنجته "الميري" من حزامه.

ولكن، من أين له بكل هذا المال؟ يفر الرزمة الكبيرة مندهشًا، ثم يتحسس قطعة الحشيش!

- خلبوص يا واد يا مدكور، خلبوص. يقهقه.

فكّر في تقديم المحفظة لرؤساء مذكور لكشف فساده، عدا أنه ما كان ليضمن إدانته، ففي الغالب سيخرج منها مثل الشعرة من العجين، كما أن إغراء المال كان عظيمًا.

منحه هذا المال عيشًا مرفّهًا فترة لا بأس بها، لم ينس خلالها رضوان البلبيسي، لكنه لم يبدأ في التخطيط لقتله إلا بعد حصوله على الطبنجة التي يتحسسها بأصابعه الآن ويتساءل:

- لو لم يمت رضوان، هل كان بالفعل سيعذّبه ثم يقتله كما كان يحلم؟

وقف حائرًا أمام جسده العاري، ضلوعه الناتئة يشفّها جلده المجعّد، أنفه المنتفخ وفمه المفتوح لاستجداء الهواء الذي يدخل ويخرج بصفير مدهش، لم تكن شفقة ولا ترفعًا بل خيبة أمل جعلته يتوقف ساخرًا من نفسه لعدم إدراكه حركة الزمن.

لا يعرف تحديدًا متى بدأ يكره هذا الرجل؟ يتذكر غضبه لرؤية فارس آتيًا في يد عمة شفاعة، ويرغب في قطع يده، في قطع رقبة البت "نعمة" الجاموسة، لأنها كانت تلعب معه، وينعت الولد متولي الذي كان يحسبه صديقه بـ"الخائن"، ثم يحفر الأرض ويملؤها بفروع شائكة راجيًا الله أن يوقع فارس فيها حتى لا يأتي مجدّدًا. كان صغيرًا عندما

ترك له مبارز تلفيعة سوداء وذكرى محجرين فارغين لا تغيب عنه، صغيرًا يغضب من خوف عيال الدرب عندما يجدونه مختبئًا في تجويف الصفصافة فيصيحون: العفريت أهه. يهرب، يطارده قلق مسعور يجعله يجري دون توقف، يقضي أوقاتًا مرحة مع بنات الهوى، يضحك، يشرب، يدخّن، يشعر أنه حر "على كيف كيفه"، قوي وقادر على فعل أي شيء، وما إن يُلقي بنفسه فوق فراشه حتى يشعر بظلٍ كثيف ضخم يترصّده يجثم على أنفاسه ويقض نومه، يصيح همام متحديًا:

- لو راجل اطلع لي.

لا يطلع له، فقط يحوم حوله مرات كثرة، أكثرها قسوة كانت عندما وقع في يد الضابط "مدكور" الذي عرفه عندما رآه، وتذكر أنه سرق محفظته، لكن همام أنكر على الرغم من التعليق والجلد والسحل والكي والوخز، وكل ما يمكن أن تبدعه مخيّلة شرطي ذي عنجهية فارغة وروح ناقمة وصلعة لامعة مميّزة من ألوان التعذيب، بمباركة ضابط بريطاني أشقر يدعى "ألبرت"، كان موت همام وشيكًا لولا وكيل المدعي العام الذي وصل مبكرًا عن موعده وأفرج عنه لعدم كفاية الأدلة في تهمة التخريب التي لفقها له مدكور، كي ينتقم منه على سرقة محفظته، استشاط مدكور غضبًا لولا أن أشار له "ألبرت" فكظم،

بصعوبة، غيظه فيما بدت ابتسامة "ألبرت" تشي بالخبث والتكتم، سيعرف همام فيما بعد الكثير عن ألبرت، أبسطه التظاهر باحترام القانون مع ممارسته، في الخفاء، ضغوطًا طاحنة على الضباط والمحققين المصريين للتنكيل بكل من يشتبه في علاقته بالاحتجاجات. خاطب مذكور ألبرت، وهو يراقب خروج همام ويصفع بقبضته قرار الإفراج فوق المكتب:

- مسيري هجيبه ابن الهرمة ده.

يبتسم همام رغم ضعضعة عظامه، ويتنفس مرتاحًا، لا يعلم أنه نجا من السجن ليقع في قبضة غضب شيخ الطائفة:

- ما اتفقناش على كده يا ابن الناس. خلصت خلاص قسمتك معانا.

يتقن التظاهر باللامبالاة، بالأخص عندما يكون غارقًا في الهموم، آلمته طعنة الشيخ أكثر من القلق على لقمة العيش، غير أنه يصيح مغمغمًا من "زوره" لعجزه عن فتح فمه.

- قال رضينا بالنشل.. والنشل مش راضي بينا!!

يضحك الطبيب الشعبي النوبي، ثم يسأله وهو يداوي جروحه العديدة: وهتعمل إيه بعد كده يا همام؟

يبتسم همام ويرفع حاجبيه حائرًا، فيلتفت الطبيب ويخرج، بينما يقترب من همام شاب ذو طابع حسن في وجهه لم تخفه جروحه الكثيرة:

- طيب ليه تيجي على الغلابة اللي زيي وزيك وتسيب اللي ظالمينا كلنا؟!

يزفر وهو يخلع البدلة بعدما دخل غرفته، متحسرًا على أولئك الشبان أولاد البلد الجدعان الذين ينتظرون المحاكمة، بتُهم قتل جنود، تهم يثق همام بأنها ملفّقة، يتنهد وهو يقذف البدلة بعيدًا ثم يتذكر ما بداخلها، ينحني ويلتقط طبنجته ومحفظة فارس، ثم يعتدل ويصيح عاليًا: وآخرتها!!

عاد إلى الجبل بعدما سرق هذه الطبنجة من أحد الجنود السكارى، ولسوء حظه لم يجد وعولاً ليصيدها، كما لم يجد الشيخ "عابد" مع أن قنديله كان مشتعلًا. بات وحيدًا في المغارة التي استقبلت بعد أيام قليلة "ليلى" بنت رضوان البلبيسي، هذه المغارة لم يعد قادرًا على العودة إليها، ولا حتى ليطمئن على الشيخ عابد ويشكره على حفنة العملات التي أعطاه إياها، ولم يتبقَ منها إلا واحدة، حرص ألا يفرّط فيها، وضعها منذ سنوات في قعر هذه السحّارة الصغيرة الشاهدة على صولاته وجولاته في عالم النشل، يحتفظ داخلها بالقمصان مختلفة الألوان التي

يتناوب على ارتدائها، شأن كل النشالين، كي يضلل ضحاياه، كما يضع في قعرها ما لا ينفع للبيع من "المنشولات"، قصاصات أوراق مكتوب فوقها أدعية أو عناوين، رسائل غرام، إحداها كتبها جندي إنجليزي لمحبوبته، ثم أتى "نشال خبيث!!" يضحك، وحرمه من إرسالها:

بعيد أنا عنك يا حبيبتي.... لا أعرف لماذا؟

لا أعرف ما الذي تريده إمبراطوريتنا العظمى

لدينا الكثير.. لكننا نفكر فقط بما ليس لدينا

هل الأمر يستحق.. أن أموت بعيدًا عن عينيكِ؟

يحرص همام على طي الورقتين معًا، الرسالة وترجمتها التي ألح طويلاً على أحد معارفه حتى دوّنها له، واحتفظ بها دليلاً على إجرام الامبراطورية حتى في حق أبنائها، "لما إنتم مظلومين.. نبقى إحنا إيه؟" صار بعد ذلك ينتبه للخوف في أعين أولئك الجنود الذي جعلهم يحرصون على المشي في جماعات.. "يعرفون أنهم ظالمون"، ما زاد جسارته في الانقضاض على الواحد منهم وضربه ثم سرقة ما معه؛ يجد في السحّارة أيضًا أحجبة متباينة الأشكال والأحجام، قلم كوبيا صغيرًا، صورة فوتوغرافية لامرأة، يميل لاعتبارها حبيبة الرجل الذي نشله، ولاعتبار صاحب ساعة الجيب القديمة المتعطّلة ذات السلسلة الصدئة،

شقيقه في هواية جمع الرُفات، يجد في السحّارة أيضًا صفارة سمعة ويتذكر مرحه وقفشاته و.. يده القابضة على المنشورات.

ثمة روائح لأصحاب هذه الأشياء تظلّ عالقة بها، تمنحه وحدته فرصة تحويلها إلى تذكارات، يتخيّل ملامح أصحابها ومسارات حيواتهم وربما مصائرهم، يحتقر بخل أو دناءة بعضهم، ويقسم أنه سيبصق عليهم إذا التقاهم ثانية، بينما يسمح لبعضهم الآخر بأن يكونوا شركاءه في شق الثعبان الذي يعيش فيه، يتقاسمون معه الكوابيس التي ظل لفترة طويلة يحسب أن أحدًا لم يكابدها سواه، يسمح لهم بأن يصيروا قِسمًا من حياته وتعويضًا، من نوع ما، عن وحدته.

في محفظة فارس القديمة لم يجد شيئًا لافتًا يحتفظ به، عدا قصاصات أوراق احتفظ ببعضها:

"ما الذي أمتلكه سوى أحلامٍ أتشبث فيها بوجودكِ معي!"

"ليس من قمر في سموات هذه الليلة يضيء للعاشقين مصيرهم البائس نحو الفناء".

يحبّ نفسه عندما يفطس من الضحك على عبارات هذا الأفندي "مغرم الصبابة"، كأن لا شيء بالوجود يعنيه، ويضيق منها عندما

يكتنفه الوجوم بعد الضحك، عندما يفكر بأن لفارس أختًا اسمها "ليلى" حذفها من حياته وهو يقفز داخل القطار، ولم يلتفت ليعرف ما جرى لها.

كراهيته لرضوان لا حدود لها، ولكن لماذا لم يجد ابنه مثله متعجرفًا وفظًا وأنانيًا ليقتله بدم بارد ويحرق قلب أبيه وينتهي الأمر؟! يكتنفه الفضول لمعرفة فارس أفندي، يتلصّص عليه جالسًا في المقهى في دائرة كبيرة من المثقفاتية الذين لا يكفّون عن الثرثرة، بينما يكمن همّام وحيدًا في الظلام، صار يقرأ الجرائد ويفهم ما يجري، شارك، قبل سنوات، في اقتحام بعض أقسام البوليس وتحرير المعتقلين، وفي تهريب بعض المساجين، كان يرى أغلب عناصر البوليس السياسي "مصريين أو بريطانيين" أولاد قحاب يسوّغون إطلاق النار على المتظاهرين ويلفّقون التهم للأبرياء، فاشترك مع أولاد البلد في هذا العمل الذي لم يعتبره جريمة، كما لم يخطر بباله أن يستخدم لتوصيفه كلمة "الوطنية"، يعرف فقط أنه يساعد أولاد البلد الجدعان، خاصة بعدما تدعّمت صلته بالشاب "أبو طابع حُسن"، الذي كان يطبع المنشورات ويوزعها، ولا يصدّق همام قط أن تقتل يداه حتى عصفورًا، هذا الشاب هو الوحيد الذي يحترمه من الأفندية، ليس لأنه علّمه القراءة، بل لأنه وجد في أفكاره تفسيرًا لما استغلق عليه، فطالما سأل نفسه لماذا شارك في عمل

خطِر كهذا دون مقابل على الرغم من أنه ليس لديه ثأر شخصي مع البوليس السياسي أو مع الملك أو الانجليز؟ وحده هذا الشاب هو الذي ساعده على أن يفهم نفسه، يفهم أنه يكره الظلم، سواء كان اسمه مدكور أو ألبرت أو رضوان البلبيسي، لذا أودعه ثقته على الرغم من ضيقه بعدم رغبته ألا يعرِّفه إلى باقي أعضاء التنظيم.

- ده أفضل لك إنتَ. صدّقني.

يتوارى همام وينظر إلى فارس، فيرى فيه وجاهة الأفندية و.. تفاهتهم، صار يعرف نظرة الحيرة في عينيه، وأي ابتساماته زائفة وأيها حقيقية، يعرف حتى أسلوب بصبصته للنسوان: عاوج الطربوش "على ناحية" وبارم شاربه، مقزز، لا شيء يثقل صدره!

- ولا كأن أبوه قتل مبارز! يقولها متألمًا، ثم متعجبًا وآسفًا:

- ولا كأنه ابن رضوان البلبيسي!

يُخرج من السحارة سكينًا صغيرًا ملوثًا بالدم، "سكين ليلى" الذي رآه أول مرة عندما كان يساعدها في خلع عباءتها المبتلّة بمياه المطر، سقط من طيات ثيابها، فقهقه همام من قلة عقل النساء، من البنت التي تتصور أن سكينًا صغيرًا كهذا يمكنه حمايتها، يتنهد بمرارة ويتذكر أن

هذا السكين أنقذ حياته عندما باغتوه.. لم يكن هناك سوى العواء البعيد، وكانت حلكة الليل قد هبطت عندما وجدهم أمامه، ثلاثة ذئاب تحدق فيه بنهم، ولا شيء يحتمي به، لا شيء سوى الموت يحوم من حوله، أقرب من أي مرة أخرى، فكر أن يقفز، أن يعدو، إلى أين؟! أن يهاجمهم، ولكن كيف؟ ثم لماذا هذه المرة بالذات يخرج دون سلاح! لماذا يقدر له نفس مصير أبيه البشع!

فجأة ظهرت ليلى آتية من ورائه بقفزة انقضت فيها بهذا السكين على أحدهم، ثم تراجعت بصيحة مذعورة، بينما همام ينظر ولا يصدق، ينتبه إلى الذئبين اللذين ينقضان على زميلهما فور تدفق أول قطرة من دمه، مانحين همام وليلى فرصة النجاة، جذبها من يدها وجريا، ظلت قابضة على السكين الملوث بدم الذئب، تبكي وترتجف من الرعب، بينما همام يصب كوب الشاي في كوة بالمغارة، ترك الكوب واقترب، وفك، بصعوبة، قبضتها المتصلبة وسحب السكين.. هذا السكين الصغير، راح يتأملها وهو يناولها كوب الشاي غير مصدّق أن تنقذه، أن تعرّض حياتها للخطر من أجله.

يقرّ همام بأن الدنيا "بنت أبالسة"، لا تُعطي محتاجًا، لكنه لم يتصور أن يبلغ عهرها هذا الحد! يسعى إلى رضوان فتقوده إلى فارس! يسعى

إلى الانتقام فتوقعه في شرك هذا الشيء العجيب الحقير الذي يجعله مسكونًا بفتاة صغيرة، كان اسمها "ليلى"!

في المرة الأولى رآها بصحبة عمة شفاعة، كان ينتوي العودة للقاهرة ثم غيّر خطته بعدما أخبرته العمة أن رفيقتها هي ابنة البيه، ظل يخرج كل ليلة آملاً في عودتها، كان جالسًا داخل حفرة تشبه مقعدًا، في باطن شجرة كبيرة يحتمي داخلها من المطر عندما رآها، ودون أن ينطق بكلمة، دون أن يفعل شيئًا سوى التحديق فيها اقتربت منه وانهالت عليه صفعًا، على وجهه وصدره وكتفيه، لو غيرها فعلها لكال له الكيل بعشرة، لكنه تحمّل صفعاتها العمياء دون أن ترمش عيناه، حتى توقفتْ، وجدها قريبة جدًا منه، منفعلة وموشكة على الانهيار، جذبها برفق وأجلسها بجواره، وبرفق أكثر أمال رأسها على جانب عنقه فتشنّجت لحظة ثم هدأت ومالت، فقطر شعرها مياه المطر فوق عنقه، ضغط ظهرها برفق براحة يده، كأنها طفل صغير، فأحسّ بتخشّب جسمها النحيل ينفك، وبضربات قلبها المتواترة تهدأ، ظن أنها قد نامت، كان الليل قد تقدّم، لمس بيده شعرها وهو يفكر إن كان قتلها هو الأفضل أم قتل أبيها أم قتلهما معًا؟ أيقظته من أفكاره تنهيدة عميقة ندت عنها، راقبها وهي تنهض وتُحكم علي بدنها الثياب ثم تسير، نهض وسار بجوارها. قطعا، صامتين، المزالق الخطرة وبرك المطر بالطريق

الذي بدا أطول من حقيقته، أنقذها من السقوط في الوحل أكثر من مرة، حتى بلغا السراية، دلفت من الباب دون أن تلتفت نحوه.

في المرة التالية هي التي فاجأته، كان جالسًا بنفس المكان فوجدها أمامه، لم يفعل شيئًا وهي تتقدم منه وتجلس بجواره، ولا وهو يحس دفء أنفاسها فوق عنقه، فكر بأنه سيكون تيسًا لو ترك هذه الحسناء تفلت منه، ستكون حياته عبثًا لو أهدر هذه الفرصة السانحة لإيذاء الرجل الذي لا سبيل للنيل منه. تذكر المرات التي اقترب فيها من فارس وكيف كان يتمنّى قتله ويعجز.

تململ فنهضتْ. نهض وجذبها من يدها برفق وقادها نحو المغارة.

يتذكّر الآن نغمة صوتها وهي تحكي وتغني وتضحك، وتخبره أنها لم تفعل شيئًا من ذلك معهم، هناك في السراية، ظن في ذلك الوقت أن الأمر يسير وفق خطته وفي ساعة قريبة.. سيذهب إلى البيه ويعيره بأن ابنته ستقتل نفسها لو تركها، سيستمتع بأن يخرج من السراية فتركض كالكلبة تعوي وراءه، ويدمي قلب أبيها ويذلّه ويمرّغ شرفه في الوحل، لكنه كل ليلة يقول: ليس الليلة، بل القادمة.

- وقعت في الحية يا ابن مبارز!

يتمّ مندهشًا من هذه "العيّلة" النحيلة التي تعلّق بها، فيما عجزت نساء بأثداء وافرة وأرداف يضيع في ثناياها أعتى الرجال عن ترك أي ذكرى بنفسه! عدا أن جرأتها على الذئاب وتعريض حياتها للخطر من أجله، ساعده على حسم أمره، مذعورًا من غلبة حبها له على كراهيته لأبيها التي رعاها داخله سنوات وسنوات، في الصباح التالي تحرّك دون تفكير نحو القاهرة، قرر أن ينساها لأنه لا يريد ولا يمكنه أن ينسى مبارز أو يخونه، الآن وقد مات رضوان، لماذا تلح عليه بهذا الشكل؟ عرف أنها تزوّجت وأنها ماتت، فلماذا اختارت أن تبعث الآن في أحلامه؟ لماذا يهمس بأعماقه ذلك الهاجس أو الرجاء المستحيل بأن.. ليتها.. ليتها لم تمت؟! ليت!

يغزّ يده بحافة سكينها ثم يرشقه في بدلة فارس.

فارس ٢

تخطر بخطوات رهيفة، على رأسها وشاح داكن، بينما يتمايل جسمها داخل ثوب فضفاض شفاف أبيض اللون، ينتهي فوق عرقوبين يظهر من تحتهما كعباها الورديان، مجذوباً إليها يسرع بكل طاقته وراءها، لكنه يعجز عن اللحاق بها، فدائمًا تسبقه بعدّة خطوات، يلاحظ في إحدى لفتاتها أن وجهها مغطى بطرف الوشاح، تترك له خصلة من شعر ذهبي فوق أحد التوابيت التي ملأت المشهد فجأة، يلتقطها فتزداد دكانة في يده، حتى تصير بنّية، يغلق عليها قبضته، ويسرع وراءها فيجدها تركض في الريح التي اهتاجت فجأة، وطيّرت التوابيت في الهواء، يمسح عن عينيه ذرات الغبار بسرعة كي لا تغيب عنه، ينظر حواليه فيكتشف أنه فقد أثرها عند مفترق يتشعّب إلى عدد لا نهائي من الطرق، يفتح يده فيرى الخصلة صارت أسود من الليل، يصيح: من أنتِ؟ أين ذهبتِ؟ إلى أين أسير؟

حائر مرهق يتصبّب عرقًا وهو يفتح عينيه، وينتبه إلى أنه من المخجل أن يحلم بامرأة بينما جثمان أبيه قد غاص لتوه في التراب، ينهض من الفراش ويبحث في جيب بدلته، يخرج ورقة "البفرة" ويبدأ في لفّ سيجارة، بحرية، بعد أن مات الرجل الذي كان يخاف أن يدخّن أمامه على الرغم من معرفته بأن هذا الرجل كان يفعل كل ما يحلو له، وما لا يتخيّله أحد، يرفع رأسه منتشيًا بالنَفس الأول فتقع عيناه على صورة الزفاف المعلّقة على الحائط، فيشعر بالضيق من اضطراره للنوم في هذا المكان، ينتبه أن أحدًا لم يأت لعزائه من دار "أبو سماعين"، يتنهد: جرحهم ما زال حيًا، جرحه أيضًا.

مثل نبتة يانعة تبدو "ابنة أبو سماعين" بعينيها السوداوين المكحولتين، وشفتيها اللتين تشبهان ثمار التوت، ممتلئتين، داكنتي الحمرة وكثيرتي التعاريج، تفوح منهما تلك الرائحة الأخّاذة -لفاكهة ناضجة تنتظر القطاف- التي يستدل بفضلها على وجود البنت، أو الكائن الأنثوي الصامت، تخطو أمامه، وراءه، تجلس، تنام دون أن يشعر بغيابها ولا بوجودها، تأتيها سعاد بقمصان نوم مطرّزة ملونة.. أحمر، أزرق، أصفر، تليق في أناقتها بزوجة وحيدها وفارس أحلامها، تبتسم البنت ابتسامة طفولية ولا تتكلم، عدا تمتمة هادئة، بصوت ناعم كدفق المياه، تصدر عنها فيما تُسبل عينيها وتمد يمناها في هجعات الظهيرة، لتتلقى أشعة

الشمس فوق باطن كفها، ثم تمرّر أناملها فوق الظلال كأنها ترسم وجوهًا تعرفها.

- دي البت نجاة أم سعدون. تجيب سؤاله.

- طيب ما تبعتي لها تيجي تزورك هنا. تفطس من الضحك:

- تيجي فين؟ دي وقعت في الهويس من تلات سنين.

تمسّد رأس الكلب بعاطفة متدفقة، تجعلها تنسى نفسها وتجلس بجواره في الحديقة لساعات، فتثير لغة المحبة بين زوجيّ العيون الحنق في نفس فارس، تجدل سعف النخيل لتصنع مقاطف وسحارات صغيرة، فتعلق بعض شذراته بشعرها الأسود الليلي، الذي حلّ فارس ضفائره الطويلة ومشّطه بيديه وهو يدندن في أذنها بألحان حنون، في محاولة مخفقة لاختراق عالمها المغلق، فإذا انتهى من ضفائرها يتحيّر في انتشال أعواد البخور من طيّات ملابسها، ثم تباغته أحجبة عديدة، أحدها معلق في عنقها، وآخر قرب سُرّتها، وثالث مشبوك إلى خلخالها، ثم يجد لغزًا من نقوش الحناء الغريبة تغطي جسمها كله، يسألها عنها فلا تجيب بل تحكي.

ذكروا أنها ولدت في ليلة القدر، لم يكن موعد ولادتها، بل يبدو أن الإجهاد في ترتيبات الليلة المباركة وإعداد المكان بدار "الكبير"

لاستقبال المدّاحين والذكّارين وضاربي الدفوف، قد جعل المرأة الحبلى، "أمها"، تصاب بقرصة جوع جعلتها تلجأ لظل شجرة التوت، وتلتقط الثمر المتساقط، تكبش وتبلع، ولا تشعر بالشبع، فتكبش وتبلع مجددًا، ثم تصرخ فجأة، فيسرع أبو سماعين لنجدتها، ليكون محظوظًا بالتقاط الرأس الصغيرة المطلة من بين فخذيها، ثم بقطع الحبل السري بأسنانه، كي لا يفقد ابنته الوليدة التي أتت قبل موعدها بشهرين كاملين، ونزلت "من أول حزقة" أو "بقدرة قادر" في ليلة القدر، ولهذا أطلقوا عليها اسم "قدرية"، يقاوم فارس النعاس على إيقاع الحكي بأن يميل ويقبّلها، فيجدها خاملة باردة، لولا نظرة خاطفة في عينيها تجعله لا يقطع الرجاء، نظرة تشي بأنه يعنيها كما تعنيه، عدا أن هناك سرًا خفيًا يجعلها، في كل مرة، تفلت من سماوات الأحلام قبيل بلوغها قمة التحقق، كأنها تعاقب جسدها على تمرده على إرادتها.. لماذا؟ يغمغم حائرًا.

عندما أخبرته سعاد بأنها نزلت الدرب لتحضر عُرس ابنة عمّها، غضب حد الجنون-الآن يفكر أن ما عاناه كان الغيرة لا الغضب- مضى يتساءل لماذا لم تذهب في عربة الخيل؟ لماذا لم تنتظرني؟ يتقدم باحثًا عنها، بحرص من يريد أن يضبطها متلبّسة بسر حرمه من هناء تاق طويلاً إليه، تخفّى في فروع شجيرات السرو، حتى وصل إلى الغيطان، ثم

في عرانيس عيدان الذرة، غاضباً مستثاراً، حتى وصل، تقوده الزغاريد والأغاني، متحاشياً أن يتجه لقاعة الرجال، بل تسحّب إلى القاعة التي يأتي منها صوت الغناء النسائي الغنج:

حياني يا بلح حياني

والبلح طرح.. حياني

زاد الغناء إثارته، دار حول المكان حتى وصل إلى كوّة، أتاحت له رؤية الداخل، فذهل عندما رآها في ثوبٍ بديع، يكشف مفاتنها، إحدى هذه الثياب التي أحضرتها لها سعاد.

- هل غار عليها حتى من النساء! يتعجب الآن من نفسه.

راقبها وهي ترقص على إيقاع الطبلة المشدودة، والكف التي تدق، فينفلت الجسد استجابة للنداء، ترتقي على أطراف أصابعها، تمايل وتتدلل وتتلاعب بشعرها الذي حل ضفائره وأطلق، بيديه، عنانه، تغني وتضحك وتتكلم بسرعة واندفاع، تبدو كأنها أخرى لا تمت بصلة للأولى التي تعيش معه تحت سقف واحد وتقاسمه الفراش. غاضباً، مصدوماً بحث عن الباب ودخل، وجد عجوزاً في المدخل، فأرسلها لتستدعيها، مضت بخطواتها الوئيدة وما إن توارت بالداخل حتى توقف الطبل

والغناء قبل أن تظهر قدرية ووجهها في الأرض، تمسح عنه المساحيق التي أبت أن تتجمّل بها في السراية.

- اللي يشوفك يحسبك واحدة تانية! للدرجة دي كارهاني! بادرها.

- عمري ما كرهتك. أنا ..

- مسببلك التعاسة دي كلها! أنا! طيب ليه؟ ربنا يعلم إني على قد ما أقدر حاولت أسعدك.

استرسل بعبارات أخرى متألمة.

صاحت: عارفة. ثم هامسة وهي تهرب من عينيه:

- ولو خيروني بين كل الرجالة اللي في الدنيا ما اختار غيرك.

- طب ليه؟ ليه؟ يصيح غاضباً.

تنهنه وتسيل دموعها ثم ترفع رأسها نحو عينيه غاضبة، بسحنة أبعد ما تكون عن تلك التي كانت تضحك وتغني قبل قليل:

- اسأل الحكيم اللي كان بيعرضنا عليك زي بضاعة بايرة بيدللوا عليها في السوق. إحنا مهما كان بني أدمين يااا.. يا ابن رضوان بيه!

"إنها تفهم" رددت أعماقه، وما زالت تتساءل إلى الآن.. "لماذا قبلتَ؟"

يرى صفًا من البنات عاريات الصدور يمر عليهن حكيم الصحة بسماعته الطبية من قلب إلى قلب في فحص استثنائي، ابتدعه البيه متذرعًا باكتشاف وباء جديد يصيب البنات، كي يختار لابنه أكثر البنات عافية وأفضلهن بنيانًا، وبعد اصطفاء ثلاثة منهن، يعيد الحكيم الكشف فيما تلتصق عين فارس على ثقب في الجهة الأخرى للستار، يتيح له أن يختار من يريدها من الثلاثة.. ستة نهود عارية، ست شفاه مندّاة من فرط الخجل، ست أعين منكسرة، ستة ضفائر.

- اختار، يهمس أبوه.

بدا الأمر أكثر إثارة من بيوت المتعة التي كان الفضول يأخذه إليها.

- التلاتة حلوين.

- خلاص. أجوزهم لك التلاتة. يقهقه البيه.

مزحة أثارته، وأرعبت أمه، بينما يقص عليها ما جرى.

- هي بنات الناس لعبة يا ولاد ال... !!

- الوسطانية وخلاص. صاح بعد أن كاد صبر أبيه ينفد، متذكرًا شفتيها الشهيتين، لكن ذهنه ظل يستحضر صورتيّ الأخريين، استدارة كتفيّ الأولى، وامتلاء نهديّ الأخيرة، راح يردد في نفسه:

- الوسطانية وخلاص، زوجة وخلاص، واحدة وخلاص.

وكان اسمها "قدرية".

- إنها تفهم وتثأر لكرامتها المنتهكة. فلا سلطة ولا ثروة حتى لو مال قارون، ولا أي شرع في العالم يعطيه أو يعطي أباه الحق في إيذاء واستغلال الناس على هذا النحو!

فكر وهو عائد وحده، محني الرأس -بعد أن تركها لتكمل الاحتفال مع نساء السوالمة- تخزّه عيدان القصب وتصفعه أوراق شجر السدر، يفكر بإصرار أبيه وخضوعه له، فيزداد إحساسه بالغضب من نفسه، من خداعه إياها بزعم النضج والاستقلالية، ثم يفاجأ بسيره مغمي العينين وراء "رضوان بيه البلبيسي"، الرجل الذي لا يذكر اسمه إلا كرمزٍ للقوة والمهابة، رجل لا يعرف الفشل، ولا يحب الفاشلين، عزّ عليه -يرجّح فارس- أن يرى ولده "ولد الرجل الذي لا تعز عليه امرأة" يكابد إخفاقات متتالية مع النساء، أولها مع "سوزان" البولندية التي التقاها في

مقهى "المونبارناس" بباريس، وعاد إلى مصر وهي تتأبط ذراعه، وفّر لها ما لم تحلم به من رغد العيش، غير أنها لم تحتمل البقاء سوى لعام واحد، أصرت بعده على العودة لبلادها.

- خليها تروح تشحت في قهاوي باريس. قال أبوه.

لم يفهم البيه أن سوزان لم تخلق لتكون متسوّلة في مقاهي باريس أو غيرها، وأنها لم تأتِ مصر من أجل أمواله، بل لأنها وجدت في فارس الحنان الذي تفتقده، والتفهم الذي لمحته في عينيه منذ كان يصغي لقصتها عن خراب الحرب الذي طال بلدتها، وفتك بأسرتها، عن اغتصابها وهي طفلة من الجنود الألمان، مواجع فضفضت بها لشاب مصري رقيق القلب، تعرفت إليه مصادفة، فانفعل ومد يده يمسح دموعها، نظرت عميقًا في عينيه فارتعشت شفتاه وهو يهمس:

- سوزان. تتجوزيني؟

أحسّ بوجهه يتقشّر مع نطق الكلمتين، وقعت عنه بقايا سطوة أبيه، التي اكتشف زيفها وفقدت هيبتها من قبل، في السجالات والقفشات الساخرة التي ابتدعها لتزجية الوقت شباب يختبئ من عسكر الإنجليز، فيتطوّع صاحب مقهى "مسك الليل" بإخفائهم في بدروم سري، جمع

الشامي بالمغربي وابن الباشا بابن العربجي، وسرعان ما تنفجر الأدمغة: بيه، باشا، نفسي أفهم مين اخترع الألقاب دي؟ عبيط مين اللي عمل أبويا ده بيه؟ سخيف مين اللي اخترع الشعر العمودي المتكلف ده؟ مين وليه وازّاي؟ ماتت الرومانسية "فطيس"، وهم يطرقون بيوتات الليل التي تقطنها يونانيات وإيطاليات شقراوات وخمريات، شبِقات بحب الحياة، وهم يتبارون في نقد البلاغة اللغوية حتى تتبخر من رؤوسهم ويحل محلها الولع بالسخرية من كل شيء، في ذلك البدروم السري نتف فارس مرارًا رأس أبيه، بأفكارها العتيقة، وأضحك أصحابه، عدا أنه لم يجرؤ على تحدي هذه الرأس في الحياة الواقعية إلا بعد أن وصل إلى الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، منحته شوارع باريس وهواؤها وحرياتها ومقاهيها ومثقّفوها -الذين لا يكفّون عن العراك الفكري- الشجاعة لفعل ما تمنّاه وعجز، طويلًا، عنه. أصغى لأشعار "بول فيرلين" و"آرثر رامبو" المتمردة يتلوها عشاقهما في إحدى زوايا مقهى "المونبارناس"، كما شغف بثورية "بيكاسو"، وبالعبقرية الغامضة لـ"موديلياني"، فنضح صوته بالبِشر والحيوية وهو يخوض نضالاً في التليفون، لكي يقنع أمه التي يعتمد عليها في انتزاع موافقة أبيه الذي يحبه رغم كل شيء ولا يريد أن يتحرر من ربقته بقسوة، وهو الذي أرسله إلى باريس خوفًا عليه من المشاركة في الاحتجاجات الشعبية ضد

الاحتلال بحجة مشاهدة مصانع الغزل هناك من أجل تحقيق حلمه بتشييد مصنع مشابه في مصر:

- أبعته عشان المصنع يقوم عايز يتجوز!

- هو يعني جايبه من برّه!

تخبره سعاد بعد فترة بنجاحها في إقناع أبيه، ولا تنجح في إخفاء قلقها:

- من قلة البنات هنا تتجوز خواجاية!

- سوزان مش زي ما إنتي فاكرة يا أمي. سوزان ما تعتبرش خواجاية.

وفيما انبهرت سعاد بهذا الجمال الأشقر الرائق، اكتشف أبوه سريعًا هذه الحقيقة "مش خواجاية" فرغم إعجابه بجمالها وثنائه على ذوق فارس "ابن الوز عوام" لم يحتج لأكثر من جلستين راقب خلالهما تصرفاتها، طريقة أكلها وشربها وجلوسها ومشيتها، لبسها وعاداتها في النظافة والترتيب ليخلص إلى كونها ابنة أسرة متواضعة، "شابة بولندية سنكوحة" لا تنتمي لفصيل الخواجات المتعجرف الذي يجلّه بهوات المصريين؛ يزفر فارس بارتياح لكون لهفة سوزان على اكتشاف البلد حجبت عنها رؤية خيبة أمل أبيه في ولده، وفي الشابة البولندية التي بدأ

يعاملها دون اكتراث، بينما رأى فيها فارس الوجه الإنساني للحضارة الغربية، لفته إدمانها القراءة وتقديرها للعلم، كما لمس شغفها بالفن وهو يتجول معها في متحف اللوفر، وقصر فرساي، وحديقة النبات، ثم في لهفتها للتجوّل بنواحي المحروسة، تلتقط الصور الفوتوغرافية لأقبية مساجدها وشبابيك أسبِلتها، تدخل حماماتها وتتجول في عطفات وأزقة حاراتها، ثم تغرز قدميها في طين درب السوالمة، وتجلس في نفس المكان الذي كان فارس يجلس فيه، وهو طفل، مع شفاعة كي تستمع إلى المداحين:

خامس سنة أيوب بقى.. رق الغلال والدود من جسمهُ طرح ولا الثرى
تنط الدودة من جسمه تيجي ف الخلا يلمها بإيده الشريفة الطاهرة
يقولها يا دودة... بتاكلي قسمتك ربي اجعل للصابرين المغفرة

أحبّت الموال واندهشت من سطوة فكرة "الصبر" على أذهان السوالمة، عدته استسلامًا وانهزامية عززا استهداف البلد من قِبل الغزاة والمحتلين على مرّ العصور، وعجز فارس عن إقناعها بغير ذلك حتى عندما صاح:

- طيب والناس اللي خرجت تصد بصدورها البنادق!

ربما يكون قد التمس لها العذر لأنها لم تشهد أيام الزخم الثوري، وما رأته منذ أتت كان صادمًا لفارس نفسه، ندرت التظاهرات، وكثر العراك بين الأحزاب وكذلك التشهير وترويج الشائعات على صفحات الجرانين، حتى بدروم "مسك الليل" الذي كان مسرحًا لأعتى المعارك الفكرية الخلاقة تحول إلى وكر لمتعاطي الحشيش والخارجين على القانون، التمس لها العذر أيضًا لما رآه فيها منذ عرفها من تعاطف مع قضية بلده، ومن حماسة للمصنع الذي يُخطّط لتشييده، كما أنها هي التي شجّعته على صوغ أفكاره في مقالات راح ينشرها في الجرائد -باسم مستعار حتى لا يغضب أبوه من كتاباته عن تناقض السلطة البريطانية بين الحرية التي تمنحها لشعوبها والقيود التي تستميت في فرضها على شعوب البلدان المستعمرة- وقبل ذلك لا يمكنه نسيان ركضها في الشارع كي تلحق برجلٍ، لم يتبيّنه فارس في البداية، قبل أن يركب سيارته مصرّة أن تصافحه وتحييه على عمله الرائد، وريثما لحق بها فارس وجد نفسه أمام "طلعت باشا حرب" مؤسس بنك مصر، فسارع لمصافحته مندهشًا من غبطة سوزان التي وثقتها صورة فوتوغرافية أضافتها لصورها الأخرى في أجمل مواقع البلد ومع بعض وجهائها.

مرة واحدة فقط لم يعذرها فيها.. عندما استشهدت بالموال، موال أيوب، تأييدًا لرأي شرطي إنجليزي متعجرف يدعى "ألبير" -التقياه في

حفل دعاهما إليه فؤاد بن حشمت بيه صديق أبيه- حول الطبيعة المتواكلة للمصريين التي لا تؤهّلهم لحكم أنفسهم.

- كلام عادي. إنت اللي كبرته. كأن على رأسك بطحة و"بتحسس" عليها!! يحدّث نفسه عدا أنه يتذكر بضيق ضحكها وتفاهمها السريع مع "ألبير"، ألمجرد أنه أوروبي مثلها؟ لماذا لم تبدِ هذا التفاهم مع الشرطي الآخر "جون"، الذي شاركهم النقاش، وأكّد حق المصريين في الاستقلال؟ يتساءل ثم يسند رأسه إلى ظهر السرير الذي شاركته إياه سوزان، ثم قدرية.

- كلامه فكرني بالموال. لو الفرصة سنحت كنت هقوله. حاجات كتيرة بتعجبني في المصريين.

تهمس سوزان معتذرة، لكن لم تسنح الفرصة لأن فارس رمقهما بغضب، وأسرع بالانسحاب، فلحقت به، ثم تعقيباً على تبريرها أخذ يهز رأسه غير مرتاح، مختنقًا من صمته وعدم رده على ألبير "هذا" أكثر من ضيقه من كلامها هي معه.

موقف بسيط لا يسبب مشكلة بين اثنين متحابين، ولا يمكن تحميله مسئولية التباعد بينهما الذي حدث بعد ذلك وجعله يحسّ فجأة، لا يتذكر متى تحديدًا، بأن زواجهما قد انتهى.

منذ الأيام الأولى الذي دخلت فيه سوزان السراية وهي تصحو مبكرًا وترصّ كتبها الدراسية "في علم الحضارات"، يعرف أنها تبحث عن معنى لحياتها، تراقب بقلق سطوة البيه المهيمن على كل مَن بالسراية، تعتبره يحركهم بالخيوط كعرائس القماش، ثم تتجاهل تململه من تأخّر الإنجاب، حتى تسمع بأذنيها اقتراحه على فارس الزواج من أخرى، أخبرها فارس أنه يصغي بكل احترام لكلام أبيه ويدعه يدخل أذنه اليمنى ثم يُخرجه في التو من اليسرى، تضحك من وصفه، عدا أنها لا تتوقف عن مطالبته بحياة مستقلة، حتى لو في شقة صغيرة بإمكانيات بسيطة، لكنه يأبى، فدموع سعاد وقفت له بالمرصاد، وقيّده حنانها في بعض الأحيان بما لا يقل كثيرا عما فعلت به قسوة أبيه، ناهيك عن أن الراتب المتواضع الذي سيجنيه من وظيفة متواضعة، ما كان ليكفل لهما الحد الأدنى من رغد العيش الذي اعتاده، واعتادته هي أيضًا، ضاقت سوزان، لكنها لم تقرّر العودة لبلادها إلا عندما أحست بأن طموحها في خطر:

- عايزة أخرج. محتاجة أتكلم مع الناس علشان البحث.
- معلش أنا مشغول براجع حسابات العزبة. مش هينفع.
- مفيش مشكلة، أخرج أنا.
- لوحدك!! يقهقه، ثم آسفًا: ما ينفعش خالص.

تهدهدها سعاد: خايفين عليكي يا حبيبتي.

- ماتخافوش. أنا أقدر أحمي نفسي.
- قلتلك ما ينفعش. تكرر سعاد.
- زهقت.
- بُكره تتعوّدي.

ظلّت تتأمل ظهر سعاد وهي تبتعد -بانحناءته المبكّرة والرأس الذي يميل كل فترة إلى أحد الجانبين- ثم قالت لفارس إنها ترى في تعاسة أمه مصيرًا ينتظرها.

مبكرًا اكتشفا أنهما تسرّعا في قرار الزواج، على أهميته، فبهذا الزواج استعادت سوزان ثقتها بالناس وتقديرها لذاتها، إلى أن صار هو نفسه أو ربما السراية، أو.. البيه عائقًا أمام طموحها، وبالنسبة لفارس لم يبعدها عنه كونها شقراء يعوج لسانها عند نطق لغة الضاد كما تظن أمه -التي

تُثني كثيرًا على حسن خلقها وطباعها- بل لأن تقديره لشابة جسور أصرّت على الصمود رغم المحن لم يكفِ كسبب لاحتمال ضجر الزواج، كما أن جمالها الساحر الذي يصطبح عليه -فيشعر بالنعمة والامتنان للخالق ولوجودها معه- لم يكن عونًا لأي منهما على فك شفرة عاطفة الآخر. راحت ترتع في نومه الأحلام التي لم تتحقق بامرأة أخرى، امرأة الحلم ذات الحسن الملغز، يتبعها باحثًا عن عمق كينونته فيها، في ثوبها الأبيض الشفاف، في جسدها الذي يتحول كلما لمسه إلى بحيرة دافقة في صحراء الرغبة، يغوص فيها ولا يعود، يتفتت ولا يتجمّع، يفلت من نفسه ويعجز أن يفلت منها، ملتاعًا يمد يده لينزع الوشاح الذي يخفي وجهها فلا يفلح، يتأوه ثم يتقلب في الفراش وينتبه على عينيّ سوزان تراقبان نومه: مالك؟ كابوس؟ يهز رأسه: نعم.

منيرة هانم العزيزي، عقيلة مأمون بك العزيزي، على سن ورمح، التي خطبها له أبوه بعد سفر سوزان، كانت أكثر منه صدقًا مع نفسها، أعادت "الشبكة" بعد شهرين وقالت:

- كنت فاكراه فرايحي زي أبوه. طلع دمه مش جاري على دمي.

لم تترك بنفسه جرحًا، لأن قلبه لم يكن معها، فريثما علقت سوزان حقيبتها على كتفها ولمست قدمها أرضية الباخرة، كان هو يفكر في

"جميلة" فيما يرفع ساعده ملوحًا لسوزان التي تلوح له بمنديل دموعها، فقط ترك أبوه يتصوّره جريحًا على أمل أن يوافق على جميلة، ولم يكن يعلم أنها ستطعنه:

- سيد طلب إيدي وقرينا فاتحة.

- سيد مين؟ سيد النجار!؟! مصدومًا صاح.

- صاحبك ماأخدش لقمة من بقك يا فارس. ده إنت اللي سايبها. زعلان منه ليه؟ زعلان منها ليه؟ كنت عايزها تعنّس بعد ما سافرت، ولا بعد ما رجعت وفي إيدك سوزان! عجايب واللهِ!

تقول شفاعة مستنكرة غضبه.

قاطع صديقه لفترة طويلة بعد هذه الخطبة، ثم صدم عندما رأى صورته في الجورنال ضمن المتهمين بالتحريض على الإضراب والتخريب وغيره، شد له محاميًا "عُقر"، عسى أن يجد له مخرجًا من هذه الورطة الملفّقة، فهو يعرف أن الإضرابات تستهوي سيد، أما التخريب فمن المستحيل أن يفكر به، تحايل بعد ذلك وذهب مع متولي لزيارته، عانقه سيد وهمس مشيرًا أنه لم يكن يعرف أنه يحب جميلة.

- بحبها!! يصيح فارس مستنكرًا.

- ولكن، ما الذي تريده يا ابن رضوان من جميلة؟ يتساءل في نفسه.

شهقت أمه: هه! تجوز جميلة؟ ده أبوك يطلّقني. وحجز له أبوه تذكرة السفر إلى باريس، وهناك التقى سوزان وتزوّجها تحديًا لهما، وظنًا أن رضوخهما لسوزان سيرغمهما على القبول بجميلة، ولم يتصور أن سوزان ستصمد معه عامًا كاملًا، يعود بعده لحب جميلة كأن هذا العام لم يكن، كأنه تلاشى مع نظرة واحدة لعينيها اللتين تتحدثان دون صوت، جميلة التي مع كل رمشة أو لفتة منها يشعر بقلبه يرفرف في صدره مرددًا إنها امرأة حلمه، وحلم حياته..

نزلت بحر الصبابة .... بحسب انه عـوم

عشقت وغرقت. قال تستاهل يا قليل العوم

عشق النسا مسخرة ... اليـوم وبعد اليـوم

دون أن يتصور أن تفكر جميلة بغيره.

يدع أبوه يحسبه مجروحًا من منيرة هانم العزيزي، ويخفي جرحه من جميلة، عدا أن الأب الآسف على قلة حظ ولده مع النساء، فكر في بنت مستكينة من الدرب، تنجب له الأحفاد المأمولين، ويتعرف خلالها على أبجديات الطبيعة الماكرة للنساء التي لا ينجح في احتوائها سوى رجل محنك ذو خبرة "حسب كلام أبيه"، هكذا دخلت قدرية

بنت أبو سماعين حياته، ليعرف غضباً وحزنًا وألمًا وندمًا جعل الشيب يخط في شعره وهو في عز شبابه.

يمد يده ويتحسس الخصلة البيضاء ويفكر بأنه لن يصبغ شعره مثلما كان أبوه يفعل، لن يصبغه حتى لو ابيضّ عن آخره، يفكر بغضبه من قدرية في تلك الليلة، من سرورها في عرس ابنة عمه، وسعادتها بعيدًا عنه.

- لم تشعر بأن السراية مكانها، مكانها هناك حيث يحوطها من يحبونها، من لا يتكبرون عليها، لِمَ لم أخبرها ولا مرة بأنني أحبها! لِمَ لم أجعلها تشعر بأنها زوجة حقيقية وقبل كل شيء.. إنسانة!

فكر في استهانته بقدرها، في صورتيّ سوزان وجميلة.. اللتين ظلمتاها، في استخفافه من مقاطفها وسحّاراتها الصغيرة، اندهاشه من حرصها على غرس بذور الريحان في تربة الحديقة وعلى نزع الحشائش، من عدم استيائها من تلوث يديها وثيابها بالطين، برر ذلك بعجزها عن نسيان أيام الفقر، وبافتقار عقلها لاهتمامات حقيقية، لكنه أحس في تلك الليلة أن ما كانت تفعله لم يكن سيئًا، واحتاج لفترة أطول كي يدرك أن ذلك كان تعبيرها الحضاري الخاص الذي تعجز عن صياغته في لمحات تنم عن الاعتزاز بالذات، مثل لمحات جميلة، أو في عبارات منمقة بمصطلحات قيم العصر مثل عبارات سوزان، التي لو كانت معه في تلك

اللحظة لسخرت منه، من اتهامه لها بالتكبر عندما تندهش من صبر الفلاحين الاستسلامي، ثم ممارسته هو تكبرا فجا ظالما، حتى مع المرأة التي صارت زوجته.

جعله لومه لنفسه بعد أن ترك قدرية يعود للدرب لكي يعتذر في اليوم التالي، ابتسم فابتسمت، قرب رأسه من رأسها، لم يكن عليه سوى جلباب خفيف، ولم يكن عليها سوى قميص خفيف، بدت عذبة وبدا راغبًا، وكان الهواء بين جلبابه وقميصها يلفح نارًا لاسعة، كان ثمة طاقة جعلت القمر يضوي بلمعة فريدة، و... وبدا الحب قريبًا جدًا و.... لو حدثه أبوه ساعتئذ عن ثلاثة أو ثلاثمائة امرأة غيرها يفقنها حسنًا وسحرًا لما ارتضى سواها.

- وحدها.. وحدها قدرية. فكر في تلك اللحظة ولم يشأ أن يضغط عليها، انتظر أن تأخذ وقتها وتعلن رغبتها في العودة، حتى لو اضطر للوقوف على بابها كل ليلة، اقترب من خدها وقبلها، فمالت بشفتيها المبللتين بالدموع وقبلت شفتيه.

لو أخذها من يدها، وعاد بها للسراية، لما صارت قدرية بنت سماعين من ضحايا النار التي اشتعلت في الجرن، ثم امتدت إلى حزم القش التي تعتلي أسطح البيوت المجاورة.

ظل يداويها من حرق أكل جسمها، جمالها اليانع، اللحم الذي تفتت رمادًا، ورائحة التوت الناضج التي أجهزت عليها رائحة الحريق، لم يبد منها شيء غير تالف سوى تلك العين الغاربة، الباكية بلا دموع، المطلة بنظرة أبعد من الأولى التي حيّرته، نظرة تشتهي الخلاص.

- ربنا يخلّصها من عذابها ويرحمها. أنا قلبي بيتقطع.

- قولي ربنا يشفيها يا أمي.

تبكي سعاد ولا ترد، وينظر رضوان صامتًا، ثم يذهب ويغلق على نفسه باب غرفة مكتبه، يجلس على كرسي جانبي صغير، ويترك الكرسي الكبير شاغرًا تحت صورة الجد نصير الدين المعلقة على الجدار الخلفي، الصورة التي تظهر فيها يده مرفوعة وقابضة على السوط، ينكمش البيه ويراه فارس مفترسًا من حزن مكتوم، لم يقِل حزنه هذه المرة عن سابقه، أيام وفاة ابنته "ليلى"، تقول سعاد، ربما لأنه عرف من الداية التي فحصت قدرية في اليوم السابق للحريق أنها كانت حبلى. في اليوم السابع للحريق شيّعوا جثمان قدرية بنت أبو سماعين إلى جبانة الدرب، أقام البيه مأتمًا يليق بزوجة وحيده التي أصر أخوها "زاهر" على أن يأخذ العزاء في دارهم، ولم تطأ قدمه السراية، رغم شجب سالم الكبير له. بعد

انتهاء المأتم أغلق فارس بالمفتاح باب الغرفة ولم يفتحه إلا بعدما دفن أباه.

الذكريات تروح وتجيء ثم تنتهي عند أبيه، الرجل الذي عاشها بالطول والعرض ثم انتهى فجأة، لم ينتهِ إلى المكان الذي تنتهي إليه، عادة، خطى الإنسان.."الجبّانة"، بل تحت شجرته "شجرة ذقن الباشا"، ارتاح أبوه بينما يفكر هو بتلاشي المسافة بين الحياة والموت، عاجزًا عن نسيان من يكرههم، يودّ لو يترك العزاء وينزل ليخلِّص على ابن مبارز فورًا، يعذّبه أولاً ثم يقتله، ليخلص ذنب موءة ثم ليلى ثم أبيه، الذي تسبب في موته هذه الموتة البشعة، ثم جرائمه الأخرى، فقد ضربه وأفقده الوعي، "ما زالت رأسه متورمة وتؤلمه"، ثم سرق بدلته "المفضلة" وانتحل شخصيته وبسبب جلبابه القذر الذي استرد وعيه فوجد نفسه داخله، قضى ليلة "ما يعلم بها إلا ربنا"، بين عتاة المجرمين في الحبس، وربما كان سيقضي فترة أطول لولا حضور مدكور في اليوم التالي:

- ده ابن رضوان البلبيسي.

قالها ثم حدجه بنظرة متشفّية، ورقع ضحكة وحّة.

صار مدينًا بحريته لمذكور "الكلب"، بدلا من أن يحاسبه على ما فعله بأخته وولدها، وحتى دون هذا الفضل ما كان لديه وقت لمحاسبته أو عمل أي شيء آخر، فثمة رجل ميت ينتظره، رجل لم يعد قادرًا على تحريك يده وهش ذبابة، يفكر بذلك وهو يسرع حتى يصل للصومعة، يدفع الباب فلا يجد أباه، لكنه يرى الكنبة تزحزحت، ويرى مكانها بابا صغيرا، يدفعه فتفوح رائحة منفّرة، يهبط الدرجات إلى حيث يرقد الرجل الذي لم يره الناس إلا في أبهى صورة، الرجل الذي كان يغرق نفسه بأثمن العطور ويهش بمنشته ذرة الغبار متأففًا، تتجمد الدموع في عيني فارس وهو يتأمل الجسد الذي بدأ النتن يأكله، ويعتصر منه سائلاً داكنًا يرسم حدوده على الأرض، بما يشي بأنه لو تأخّر ساعة واحدة عن نقله، سيبلغ التحلل حد العجز عن حمله.

لا وقت للحيرة أو التردد، عليه أن يتصرّف.

دخل السراية متخفيًا، خلع الجلباب الحقير ولبس ثيابه وأخذ مالاً ثم تسلل وأيقظ الخادم وأفهمه ما سيفعل في الصباح، لم يرغب أن يكون آخر ما تراه أمه هو جسده العاري المنتزع من بين ذراعي امرأة من بنات الهوى، ثم أسرع إلى مسكن متولي، دق الباب طويلاً فلم يفتح، أحس بالضيق، لكن دون تردد مشى إلى خمارة "عتاقة"، وعند

الباب أشار لحسنين الذي ظهر عليه الحرج من كشف الأفندي لوكره الخفي، "لم يخبره أنه عرف بوكره من متولي قبل فترة طويلة"، ثم أسرعا إلى الصومعة.

قبيل شروق الشمس، وصلا العزبة، وبمجرد أن فكا الغطاء فاحت رائحة لا تطاق، فلم يجدا بدًا، مداراة للفضيحة، من حمل البيه إلى الغرفة المغلقة، غرفة المرحومة العمّة "رية"، سكبا فوق الجثمان أرطالا من الماء وبضع زجاجات من ماء الورد ثم الكافور، ثم حملاه إلى غرفته وألبساه البدلة والطربوش، ثم أرسلا في طلب المغسِّل الذي ما إن بدأ في مباشرة عمله، حتى ارتفع صوته بالهتاف:

- الله أكبر! ده الملايكة مغسّلاه!

التقت عينا فارس بعينيّ حسنين في هذه اللحظة، عدا أن ارتياحهما بدأ يتبدد عندما انتهى المكفن من عمله، فقد اشتما شذرة من الرائحة تشي بأنها تصر على الفوح، أسرعا بإقامة صلاة الميت في الجامع، ساعد الغفيران فارس وحسنين في حمل النعش حريصين، بسرعة خطواتهم، على وجود مسافة قصيرة تفصلهم عن السائرين في الجنازة، كي لا تُكتشف الرائحة التي كانت قد بدأت تفوح مجدّدًا، قبيل التقاطع الذي تقع الجبانة في غربه ومشتل الورد وشجرة اللبخ في شرقه، كاد أحد

الخفيرين يسقط مختنقًا، فيما الثلاثة الآخرون يلتقطون أنفاسهم بصعوبة لم تمنح فارس فرصة للمجادلة عندما أشار حسنين بالاتجاه نحو الشجرة "كي يداري عبيرها على الفضيحة الفوّاحة"، وبعدما رأى الشيخ دياب النعش يجري وهتف منفعلاً "إنما الكرامة في الاستقامة"، أعلن حسنين، مفاجئًا فارس، بعد الدفن مباشرة أنه سيشيد مقامًا للبيه، الولي الصالح صاحب الكرامة.

سيقتل ابن مبارز لأنه لا يستحق الحياة، فبالإضافة لكل ما سبق، ثمة جريمة جديدة أضافها لجرائمه لحظة حدق فيه حسنين "الكلب" وهو ينسج ضلاله على الناس، وهي أنه سيجعله، باقي عمره، ذليلا لهذا الكلب الخبيث حسنين. يتنهد: لماذا لم يسمعه متولي؟ لماذا لم يفتح الباب؟ هذا ما أراده الله! ولكن لا، لا يمكن أن يكون هذا ما يُرضي الله، يحدّث نفسه، لن أعيش ذليلًا، سأقتل حسنين إن لزم الأمر..هه! مالك يا ابن رضوان صرت تتكلم عن القتل كأنه تقشير برتقالة أو سلق بيضة؟! آاااه!. لماذا يكون ثمن الحرية غاليًا إلى هذا الحد؟ آه يا ابن رضوان.. لو كل واحد معه طبنجة ظن القتل سهلا لهذا الحد!

يفكر بالقتل وينسى مشاريع مستقبله، معمل حلج القطن ومصنع النسيج الذي حلم به، رفض رضوان بيه الفكرة التي شجّعه عليها من البداية، أو تظاهر بتشجيعه "الله أعلم"، أخبره أنه يخشى المغامرة بالمال

و.. "يا صابت.. يا خابت"، يخشى أيضًا مشاغبات العمال ووجع الدماغ الذي تسبب في أن أحد أصدقائه "طبّ ساكتًا"، وتجاهل الحلم الذي تعلّق به ولده وترسخ داخله أكثر، بعدما رأى المصانع الحديثة في باريس، رأى القطن الذي يشتريه الخواجات من بلاده "برخص التراب" يبيعونه بأغلى الأسعار بعد خروجه من مصانعهم، الآن ربما يكون مناسبًا أن يخطط، بحرية كاملة، لحياته بالشكل الذي يريد، سيشيد المصنع، سيفتح بيوتًا كثيرة لعمال يعملون بكرامة ويرسلون أبناءهم إلى المدارس، وسيكون ذكيًا ما يكفي لأن يأخذ منهم أفضل عمل ويمنحهم أرباحًا لا تجعلهم يفكرون في الإضراب وتعطيل الإنتاج، سيجني مجدًا بالإضافة إلى أن الثروة الضخمة التي يلهفها الخواجات ستهبط في حجره، و...... ولكن، قبل كل ذلك، سيذهب إلى جميلة، يعرف أنها ما زالت تحبه، وأنها لهذا السبب لم تتزوّج من سيد النجار أو غيره، يعرف أنها أيضًا تخشاه، تخشى غدره بعد أن سافر وتزوج سوزان، تخشى أن يُشقيها، لكنها تحبه، ولهذا لم يتعجب عندما زارها بعد موت قدرية وسألها عن خطبتها:

- فسخنا الخطوبة. مفيش نصيب.

- ليه؟ سألها دون أن يحاول مداراة فرحه.

- قلت له اللي عايزني يكتب في العقد إنه مش هيتجوّز عليا. يحلق فيها مندهشًا وهي تستطرد:

- وكمان قلت له العصمة تبقى في إيدي. يحلق أكثر.

- آه. مش مستعدة روحي تبقى في إيد حد غير اللي خلقني. ما عجبهوش الكلام. نصيب.

"ومن يعجبه يا ست جميلة!" لو سمعتها أمه "سعاد هانم" لقالت: يا فجرك يا بنت جمالات! يفكر وهو يبحث عن مطفأة سجائر -في حجرة المدرسين حيث التقاها في المدرسة التي عملت بها- ولا يجد.

يشعر بعينيها تتبعانه وهو يتجه نحو الباب، هل ندت عنها غمغمة أو آهة صغيرة؟ يبدو له أنه سمع ما يشي بألم ما، هل كانت تتوقع أن يهتف: موافق على كل شروطك يا جميلة الجميلات! أو شبيكِ لبيكِ.. عبدك فارس بين إيديكي!! يتعجب وهو يشعل سيجارته الثالثة، هل خيب رجاءها عندما استنكر شروطًا ستصيب أباه بالجنون، وتحطّ من قدره هو شخصيًا أمام الناس؟ سيذهب لها الآن، وسيطلب منها أن تسامحه ثم سيبادرها:

- هل في الحب شروط يا ست جميلة؟!

يصحو من أفكاره على صوت نواح أمه في الردهة، ينهض ويقترب من الباب الذي ينفتح بعنف وتدخل امرأة مسودة الوجه والثياب، نظر طويلاً ولم يقتنع أن التي تلطم وجهها وتجثو على ركبتيها هي سعاد هانم، أمّه، إلا عندما ارتفع صوتها الذي يعرفه بالصياح:

- أبوك جرى له إيه يا فارس؟ انطق.

متولي

عينان كحيلتان وحاجبان هلاليان في وجه مثلث، ينتمي لرأس يغطيه طرطور أحمر، هو أراجوز يخرج منه صوت ذو "خنفة" مميزة:

- الحقي ياامه. العيش اتنهب.

وجه مشابه "أم أراجوز" برأس يغطيه "منديل بأوية"

- بتقول إيه يا ابن العبيطة!
- حاميها طلع حراميها ياامه.
- يوه! طيب ده حتى الحرامي الشاطر ما يسرقش من حارته.
- حارته مين ياامه! البلد كلها اتنهبت!
- يا داهية دقي! تبدأ في الولولة ثم تتوقف عند سماعها لصيحة عالية:

- هع مين هناك؟ يظهر وجه الشاويش بشاربه المبروم وحاجبيه العريضين تحت طاقية الشوشان، يبادره أراجوز:

- لا هع ولا يحزنون.

إنت اتكشفت خلاص يا عسعس.. عامل روحك حاميها وانت حراميها.. وأبو حراميها كمان.

يخطف العصا من الشاويش ويضربه بها:

- آاااي آاااي.

تنطلق ضحكات المشاهدين الذين تمرّ حواليهم عربة "حب العزيز"، وعربة البطاطا المشوية، بدخانها الذي يجري الريق، ويسرح باعة "الحلبسة والحرنكش" بصفيرهم المميز، فيما تظهر في الجانب الآخر من السرادق ألعاب النيشان والأراجيح بجمهورها العريض.

ينزع متولي الصفارة من زوره ثم يغني بصوته الطبيعي:

عسعس عصابة عاملي شريف..

طلع شافطها دي بلدنا..

والناس يا عيني ما لاقية رغيف.

....

عسعس عصاية غاوي تلطيش..

لابسلي بدلة قال ميري..

ونازل تحشيش.. نازل تهبيش.

يتعالى التصفيق، فيما ينسدل الستار فوق عرض الأراجوز، ينحني متولي مبتسمًا بفخر، ويحرّك وجهه يمينًا ويسارًا ليحيي جمهوره، فيلمح همام بن مبارز متكئًا على قائمة إحدى ألعاب القوى، يلملم عدته ويقترب منه مهللاً.

- ياريتني افتكرت جنيه دهب يا وله. فينك من زمان يا أبو الهمم؟

- في الساعة الصح لازمن تلاقيني قدامك. ماني مش بتاع مهيصة ومسخرة زيك يا تور السلايمة.

- ياله انت ربنا مانصفكش ف حاجة أبدًا ولا حتى ف لسانك اللي يستاهل قطعه دِه!

- يقطع خبرك يا بعيد! اسمع يا له. جايبلك البشارة.

- إيه؟ "ينتفض قلب متولي"

- صاحبك خلاص عليه الأمان.

- صاحبي؟

- فارس أفندي ابن رضوان البلبيسي.

- وليه بتقول صاحبي؟ ده أني ...

- مش عليه أنا يا تور. ما أني ناقرك انت وهو وسيد النجار من زمان.

- عه!!

- ماتبرطمش خلاص. المهم. البيه بتاعك خلاص اتكل. الله لا يرحمه.

- ق ء.. قتلته؟

- ومالك شخّيت على روحك كده!

- يخفي شكلك واد.

- عارف ياله. كان نفسي أعملها. بس يا ميت خسارة.. مات لوحده.

ثم وهو يرفع أصابعه أمام وجهه:

- كنت مشتهي أطبق على زمارة رقبته و...

يبتلع متولي ريقه، ويحدق في رفيق طفولته الذي طالما تحمَّل طول لسانه و"رزالته"، وتفهم الروح الناقمة التي سكنته بعد مقتل أبيه، وافتقاده الانتماء والأمان، وهو يبيت كل ليلة في دار، أو على عتبة دار

واحد ممن تنكّروا لأبيه وتركوا جثته للقوارض خوفًا من غضب البيه، وسمت تلك المعاناة سلوك همام بقسوة مدهشة، كانت تجعله يضغط أعناق فراخ الحمائم بين أصابعه ويتركها قبيل الاختناق بقليل، يتلذذ بحرمانه للكلاب من الطعام حتى تكاد تنفق، ويقهقه عند تأليبها بعضها على بعض، حتى تقتتل اقتتالاً ضاريًا، أيضًا لم ينجُ من إيذائه عيال الدرب، ولا حتى متولي نفسه، فعندما يطب عليه همام يتبدّد سروره لرؤيته أمام توقعه بأنه لا يأتي إلا ومعه "مصيبة سودا".

- نط على ده البيت. ساعة زمن ونكون قشقشناه.

لا يستطيع متولي المجاهرة بالرفض، ليس خوفًا من ردة فعل ابن بلده فحسب، بل أيضًا لأنه الوحيد من السوالمة الذي يعرف سره "فشله في الدراسة بالأزهر"، ويحفظ هذا السر الذي يفضل متولي الموت على انكشافه لأهله "حتى إنه يختبئ إذا أخبره همام بوجود أحدهم بالقاهرة ورغبته في رؤيته"، لذا يبحث عن حجة لعدم المشاركة بالسرقة أو يضطر للإذعان في أحيان نادرة، وهو يذوب من الغم، والكراهية لهمام وللظروف التي تُكرهه على ذلك، وللطريقة التي يسوغ بها السرقة لنفسه:

- ده إحنا حياالله بنرجع حقنا اللي ناهبينه الباشوات والبهوات.

- نرجعه بالسرقة؟!

- عندك حل تاني؟!

- أأ... يتوقف لسانه عاجزًا عن إيجاد الإجابة، وهو نفس ما سيحدث لفارس عندما يلومه على ذهابه للغناء تضامنًا مع سيد النجار وزملائه المضربين:

- مش عاجبك الإضراب؟ عندك حل تاني!؟

يرى الحيرة في عيني فارس فيبتسم مزهوًا بتعجيزه ابن البيه على سن ورمح عن مجابهة حجته، ومعوضًا هزيمته أمام همّام، النشَّال الذي لم يخذله في أي مرّة احتاج شيئًا "مالا، علاجا، ثيابا"، لذا يجد نفسه يحبه ويخافه ويخاف عليه من نفسه، ويشفق عليه من مثل هذا الغل الذي يبين في كلماته في هذه اللحظة تجاه رجل ميت، تهرب عيناه إلى العوّاد الشاب الذي يصعد إلى المسرح، ثم يجلس ويبدأ في تمرير أنامله فوق الأوتار، فيبادره واحد من "السميعة":

- عايزين.. ارخي الستارة اللي في ريحنا..أحسن عيونهم.. تجرحنا.

يضحك آخرون مكررين الطلب، فيما يزفر متولي بمرارة، فقبل سنوات قليلة كان كل شيء مختلفًا، حتى السميعة، سواء المصريين أو

اليونان أو الطليان أو الأرمن، كانوا يحبون الطرب الرفيع "كل يغني على ليلاه" ويطلبون من عدنان الكردي أن يعيد ويزيد في:

يا عزيز عيني وأنا نفسي أروح بلدي

بلدي يا بلدي والسلطة أخدت ولدي.

لم يكن يملّ من الأغنية، كان نواح العود يحمله فوق بساط الريح إلى درب السوالمة، يلوح أمامه شاب قوي البنية يربط رأسه بمنديل ليحميه من حرارة الشمس، وهو ينزل على الأرض بضربات فأسه القوية، كان متولي طفلاً لا يبين من الأرض، تعطيه أمه مشنّة العيش وصحن الغموس فيتلقفهما "عزيز"، ويجلس ليأكل كأنما في آخر زاده، وبعدما يتبدد ألم الجوع يبدأ في التضاحك مع متولي الطفل، قبل أن ينهض ليستأنف عمله، فيما تتابع عينا متولي المنكبين العريضين اللذين لفحتهما الشمس بسمرتها، والساقين القويتين المرتكزتان على كعبين يشبهان وتدين مغروسين في الأرض، لهما نفس لونها وتشققاتها وصلابتها، يتابعه مثلما يتابع "عقلة الصباع" ماردًا عملاقًا، قر في وجدانه أن أخاه الكبير "عزيز" هو أقوى وأهم شخص بالعالم، عزّز ذلك عزوفه عن المشاركة في سمر الأعياد والأعراس، فعندما لا يجده أهالي الدرب بينهم، يعرفون أنه في الغيط، يعزق ما يستطيع ولمّا يتعب يضع

رأسه فوق جلبابه المطوي على الأرض وينام؛ كان صوت عدنان ينزلق كرجع الصدى لأنّات الشباب من الصعايدة والفلاحين، بفرق العمال في صحراء سيناء وطريق بير السبع وبلاد الشام، حنينًا إلى الأرض التي انتُزعوا قصرًا منها، فيما تكشف وجوه السمّيعة وهمهماتهم المعاناة الطويلة التي كابدها الريف والحضر -من اعتداءات ومصادرات وخطف للعمال والغلال والجمال- لخدمة ميدان المعركة البريطانية التركية على أرض فلسطين والفلوجة؛ نجا رضوان بيه البلبيسي، بحنكته، من خطر مصادرة أراضيه، الذي أطبق على غيره من بهوات الناحية، لكنه في المقابل سلّم السلطات ثلاثة من شباب السوالمة، أحدهم "عزيز" الذي ما زال أهالي الدرب يذكرونه، بمصمصة شفاه شيوخهم: راح أكثر من كان يعرف داء الأرض ودواءها، أو بهتاف عيالهم: يا عزيز يا عزيز / كُبة تاخد الإنجليز. بينما يميل متولي لتخيل أن العيش قد راق لأخيه تحت ظلال أشجار الزيتون، ويهرب من خيالات مخيفة أخرى تتعلق بمصيره، ينتبه على قهقهة همام:

- مات البيه وهو عريان ملط. مش موتة. دي جُرسة. ربنا ما يوريك.

يبتسم لهمام ويفكر بموت البيه، ثم بفارس صديق طفولته الذي كان يركض وراءه بطول الترعة، كما كان يتفوّق عليه في سرعة تطويح

رأسه مع الذاكرين "الله حي... الله حي" قبل أن نتعسّف المائة متر التي تفصل السراية عن ديار السوالمة وتمنع لقاءهما لسنوات طويلة، إلى أن شاء ربك أن يجمعهما مقهى "مسك الليل" بباب اللوق، عندما عندما ظهر، ذات ليلة، صاحب المقهى حاملا ورقة، سيتبين أنها عريضة موجهة للبلدية بطلب إنارة الشارع المقابل للمقهى، راح يمررها على الجالسين للتوقيع، يأخذ متولي القلم ليوقّع، فيجد الاسم الموقّع قبله: فارس رضوان البلبيسي، يلتفت فيجده جالسًا على طاولة وراءه، يُحجم عن مخاطبته لكنه يظل يتلفت من آن لآخر مردّدًا لنفسه: زمانه نسيني. أكيد نسيني. ثم يراه ينهض مقتربًا منه: إنت متولي؟

ينتفض متولي ضاحكًا، ثم يصافحه بصفعة عالية "مصافحتهما القديمة":

- لسّاك واخد بالك يا ابن ال.. بيه!!

يلوم نفسه لأنه لم يفتح الباب لفارس في الليلة السابقة، فقد هجر جحر الأرنب منذ فترة -وانتقل إلى جحر آخر في بيت عدنان الكردي، الذي سمح له هو وزوجته بالإقامة بالمقعد العلوي- ثم عاد إليه في الليلة الفائتة لأخذ بعض الفرش والثياب، فسمع عندئذ طرقًا على الباب ونظر من "السحراية" فرأى فارس، ولم يكن يريد أن يتأخر، ولا أن يعرف

أحد مكانه الجديد، لذا لم يرد، يرجح أن صديقه كان يحتاج مساعدته في نقل جثمان أبيه: الله يرحمك يا رضوان بيه. يردّد في سره حتى لا يسمعه همام، ثم يسأل نفسه رغم الإشفاق الذي شعر به من هذه الموتة السيئة: هل يكره البيه؟ هل يمكنه أن يكره شخصًا لا يتذكّر ملامحه؟ فالمرة الوحيدة التي رآه فيها من مسافة غير بعيدة كانت منذ سنوات طويلة، يتذكره واقفًا مثل الألِف في الغيط، معتمرًا طربوشه الأحمر، عصا الأبنوس في إحدى يديه والمنشَّة في يده الأخرى، فيما تغطي النظارتان الداكنتان عينيه، بذراعيهما العريضين اللذين يخفيان جانبي وجهه، ما يمنحه غموضَ وقوةَ من يرى ولا يُرى، حتى في غيابه ينتشر الغفر عيونًا له، لكي يعرف كل ما يجري بالدرب، حتى لو دبّة النملة.

لا يمكنه أن يتصوّر شعوره تجاه البيه مماثلاً لمشاعر شيوخ الدرب الذين يدينون له بحمايتهم من هجمات المقاطيع ومطاريد الجبل، بتوفير خفراء مسلحين، وبعلاقاته مع البوليس وسلطات المركز، يقدّرون كذلك حمايته لهم من الاستغلال الفاحش للبنك الزراعي والمرابين الأجانب، وتعهّده بدفع الضرائب ثم جبايتها منهم على مراحل "لم تكن في الواقع مرِبحة لهم بقدر ما كانت مرْبحة له"، يتذكر متولي، عدا أنهم رأوا مجمل أوضاعهم معه أقل سوءًا من السابق فدانوا له بالولاء، بينما لا يعرف متولي أولئك المقاطيع والمطاريد سوى من حكايات هؤلاء

الشيوخ، ويخلص إلى أن كل ما فعله البيه للسوالمة هو أنه قصر استغلالهم عليه وحده، مواصلاً وسم مصائرهم بالشقاء، لا يمكن لمتولي أيضًا أن ينسى عدم استجابة البيه لتوسّلات "سالم الكبير" من أجل تشييد مدرسة لأبناء الدرب، اكتفى بكُتاب يحفظ فيه الأطفال القرآن، لم يدرك سبب تمسكهم بالمدرسة، شغفهم لأن يصبح أحد أبنائهم من الأفندية، يتوظف ويكون ظهراً وسندًا لهم، لذا قرروا أن يدّخروا من قوتهم القليل، ليكفلوا التحاق واحد من صغارهم بالأزهر الشريف، ولا يدري متولي إن كان من حسن حظه أم من سوء طالعه أن تم اختياره لهذه المهمة، عدا أنه يعرف أن نباهته التي برهن عليها -في حفظ القرآن "صم"، كما في سرد النكات الفاحشة ونوادر الأسلاف- لم تكن وحدها التي رشحته، فقبلها كان استسلامهم وتسليمهم بعدم نصاحته، بل عجزه اللافت عن فلاحة الأرض زرعًا وقلعًا، قد نجح في جعلهم يتصورون ذلك، لأنه لم يرغب في أن يحل محلّ عزيز، ولا أن ينتهي لنفس مصيره، عزيز الذي ما زال يراه ماردًا أبيض القلب يطوف في أحلامه وحدها، ما زال أيضًا يتعجب من اختفائه بهذه السهولة!! ظل سنوات وسنوات يعدو وراء القطار، حتى تنقطع أنفاسه، آملاً في عودته، دون جدوى، عدا أن تعلقه بالقطار ظل يتزايد حتى أنبت داخله حلمًا باليوم الذي سيجد نفسه فيه في مكان آخر، لكنه لم يتصور أن هذا المكان

سيكون "جُحر أرنب"، يسمّونه زورًا وبهتانًا غرفة، ويتقاضون عليه إيجار سراية! يمصمص شفتيه.

قبيل شقشقة الفجر يبدأ متولي شق طريقه إلى الجامع الأزهر، مفرود القامة متناسق الخطوات، مرتديًا الجبة والقفطان ومعتمراً عمامة المشايخ ومتعطراً بماء الزهر "على سنجة عشرة"، ليكون أول من يصل، وآخر من يغادر، وأكثر طلبة الأزهر دأبًا والتزامًا، وأيضًا تحملاً لمضايقات شيخ العامود، يؤدي مهمته باستماتة، فرَحًا بوجوده تحت هذه القبة العريقة، وحرصًا على سمعة السوالمة باعتباره رسولاً عنهم، لكن المبلغ الشهري الذي رصده أهله لهذه المهمة، الذي يمثل تضحية غير هيّنة من قُوتِهم القليل، عجز عن تدبير أمور حياة الطالب الأزهري، بما جعل ثمن كوب شاي على المقهى مجازفة غير محسوبة العواقب، يتكدّر منها متولي ويلوى بوزه فيتطوّع ولا د الحلال ويجدون له بدلا من المخرج عشرة، عمل في المساء دقاقًا لدى أحد العطارين، ثم اشتغل بأحد الأفران، يحمل العجين من البيوت ويعود به خبزًا في آخر النهار، ثم كاتبًا في ورشة نجارة، ثم مبيضًا للنحاس، ثم سرح في الأزقة والحواري يبيع الفلايات والمناديل وأعواد البخور، يعود آخر الليل متورم القدمين مهدود الحيل، يخلع القميص والبنطلون "عدّة الشغل" ويرمي نفسه فوق الفراش، وفي الصباح يتلقّى استحقاقه من اللوم والتأنيب من شيخ

العامود، الذي كان في البداية يلومه على سرعته في التلاوة ثم صار يسمع شخيره في أثناء الدرس، يعتذر متولي ويتحمل كل شيء إلا أن يهان ويقال له:

- يا عِرة الأزهريين.

يسمعها من زملائه التافهين، عندما يضبطونه بثياب الأفندية مساء، تحمّلهم طويلاً ثم رد لهم المهانة دون أن يفتح فمه، فقط بالفرجة عليهم بينما يناكفهم واحد من الدراويش -الذين يطلق عليهم "أهل الحقيقة"- بعبارات لاذعة أو بأبيات من الشعر:

عمائمًا... كبّروا وكُمًا... قد وسعوه لكي يسودوا

صلوا وصاموا والليل قاموا والقلب عن كل ذا بعيد

يرى ألسنة أبناء الأزهر "أهل العلم" قد انعقدت فجأة، فيضحك منهم مرة وتأخذه الغيرة على أزهره مرة أخرى فينبري مدافعًا عنه، غير أن لا موقفه هذا ولا غيره شفع له عند الشيخ عندما أخبروه بعمل متولي بالحرفة الوحيدة التي استطاع أن يستمر بها لأنه لم يكن هناك من مجال لمنافسته فيها من قبل شباب أردته الحرب وأزماتها، وهي الغناء مع فرقة من العميان في أمسيات الحدائق والمقاهي المختلفة من الظاهر

حتى الحسين، كما في السرادقات والأفراح، وقد يبدأ بتلاوة القرآن، ثم ينشد المدائح والابتهالات ويردد التواشيح، أو ينضم إلى المولد الكبير - بطول شارع السد البرّاني الذي يتوسّطه مقام سيدي السدي- الذي يجمع ملاعبي الحيوانات العجيبة ومؤدّي أدوار خيال الظل والأراجوز، كي يتلقى في النهاية ملاليم قليلة تساعده، عدا أن الشيخ اتهمه بالتهتك والابتذال.

ثلاث سنوات قضاها في حفظ القرآن والحديث ودراسة الفقه والشريعة وأصول الدين، ضاعت بجرّة قلم "قرار الفصل"، وجرّت وراءها حلمه وحلم أهله، وبددت أمله في العودة إلى الدرب، فبأي وجه سيلقاهم! راح خذلانه إياهم يحزّ ضميره إلى حد البكاء وهو يغني متمثلاً معاناتهم:

أنا اللي فوق جسمكم.. قطني وكتاني

عيلتي في يوم دفنتي.. مالقتش أكفاني

يفتقد الدرب، فوحان الغيطان الذي يلهب حواسه في أمسيات الربيع، نسائم دغل الجميز، الونس حول "ولعة" الكوالح في الليالي الباردة، وهج العيون في انتظار خروج العجل من جوف أمه، كركرة

الجوزة بأنفاس الشباب وغمزات الصبايا يتمايلن بصواني الشاي، يفتقد أيضًا شقاوته وطيشه وقفزاته الاستعراضية بين أسطح الدور التي قد تفصلها عدة أمتار، يجتازها دون أن يقع، بل يوقع قلوب أهله الطيبين في صدورهم خوفًا عليه، عدا أنه يكتوي، بالأخص، من فراق أمه، رائحة حضنها، دفء موقدها، مذاق طعامها، ويخشى أن تموت قبل عودته، أو.. يموت هو أولاً، من يدري!

يلوم نفسه لأنه فكر في خلاصه الشخصي من المشاق التي يكابدونها، لا هو ظل معهم يساعدهم أو حتى يشاركهم معاناتهم، ولا هو نجح في تحقيق مرادهم، ولا هو بقادر على العودة قبل أن يعوّض ما فاته ولو بتدبير "قرشين" كي يشتري "طرحة تُل" لأمه، وبضع هدايا يدخل بها على أخواته لتداري خيبته القوية، تحوّلت أيامه إلى جحيم، وراحت ذكريات الدرب تؤجّج ضيقه من نفسه وتسلبه سلامه، ولا خلاص لروحه المعذّبة سوى بالانعتاق فوق كرسي مسرح "كازينو دي باري"، يشاهد عرض "عبد الستار أفندي" لمحمد تيمور، أو يجد نفسه فوق كرسي مسرح تياترو "برنتانيا"، يشاهد أوبريت "شهرزاد" للشيخ سيد درويش البحر، في تلك الأيام كان المسرح يعني بالنسبة له أكثر من تسرية، يصير مأخوذا بتلك العوالم المتخيّلة والشخصيات والحوارات، يحفظها ويقلدها متعايشًا أو ساخرًا أو يقفز بها لأبعد من

أراضيها ويضمنها رسائل مختلفة، فيصفه "سيد النجار" صائحًا: إنت إيه؟ معجون بميّة عفاريت!

ينسيه العرض كل ما عداه، حتى وقفته أمام شباك التذاكر وهو يمدّ يده في جيبه طويلاً حتى يكاد يثقبه، منتظرًا ريثما يكون فارس قد أخرج محفظته، يطمئن لرؤيته يدفع ثمن التذاكر، فيخرج عندئذٍ يده من جيبه فارغة مهللًا:

- هعمل إيه! نسيت دفتر الشيكات. يقهقه فارس.

كلهم يعرفون أن متولي يحب الدعابة ويتفنن منذ صغره في إشاعتها، كلهم لا يعرفون كم يكرهها عندما يصير مُكرهًا عليها! كأن يداري حرجه من "عم عوكل" اللبّان، الذي يقدم له "شُكُكًا" طبق عاشورة دون مكسرات أو حتى رشة جوز هند، ومن سيد النجار الذي تصر أمه على دعوته على الغداء -لأنه وحيد فقير بعيد عن أهله وعزوته- في المواسم التي تذبح فيها "الظَفر"، يأكل حتى يشبع ثم يلتفت لسيد:

- لك عزومة عندي يا أبو السِيد أول ما.. الطباخ بتااعي يرجع من باريس.

يدفع له فارس باستمرار ثمن التذاكر وحساب المقهى، وحتى أجرة الترام، وإن كان يتظاهر بنقيض ذلك، فيشير لجيبه ضاحكًا: - أهه. أنضف من الصيني بعد غسيله.

لم يعفه من الحرج ثقته في تحرّر فارس من سطوة ثراء ومكانة أبيه، الذي جعله يشعر بالذنب عندما يفلت بجلده، فيودِع رفيقيه "متولي وسيد"، ورأسه في الأرض، لأنه سيعود مع البيه إلى السراية ويتركهما للحبس والجلد بعدما قُبض عليهما في مظاهرة العباسية التي كانت تسد عين الشمس بضخامة المشاركة الشعبية، كما بحجم اللافتات المطالبة بالاستقلال التي حلّقت عاليًا، حتى ليكاد يراها الواقف عند محطة مصر، تركهم عسكر الإنجليز حتى تجمّعوا، ثم انقضوا عليهم، يبتسم متولي ساخرًا من الكدر الذي سببته له حيرته بين حرصه على عدم ذكر اسم "همام" وانضمامه إليهما في السجن أمام فارس، ورغبته في تحريره من الشعور بالذنب، بتطمينه على أن أيامهم بالحبس لم تكن شديدة السوء، فلقد اكتنفه الفرح عندما رأى همام داخلاً عليه في الزنزانة، حزر أن وجود ابن بلده المجدع سيكون حماية لهما: متولي وسيد، وبالفعل، فعلى حس همام -الذي اعتبره السجان فتوة محترما نال ما نال من ألوان التعذيب دون أن ينخ، وعوّضه بعلبَ الدخان- منح هذا السجان صاحبيه معاملة أقل سوءًا من المعتقلين الآخرين، كما لا ينسى متولي أن همام الذي لا

يمتلك سوى ثياب أرق من الورق كريم رغم أنفه، جعله يعرف رغدًا لم يعرفه ابن البيه في السراية، فقد نجح في فرض إتاوة معلومة على كل ما يدخل من باب الزنزانة، بداية من طواجن الأرز باللحم وصواني الكسكسي، وصولاً إلى لفائف التبغ التي اعتمدوا عليها في تسكين مواجع الضرب والجلد المتكرر، وبينما ينكب متولي وسيد على الطعام، يلفتهما إحجام همام مبكرًا وترفعه عن النهم فيصيح سيد:

- درب المجانين ده مش درب السوالم اللي حدف علينا واحد مغنواتي آخر مسخرة ومع ذلك ما بيسيبش فرض. والتاني هجام إنف ولا ولاد الباشوات! يضحك متولي:

- تصدق بالله يا سيد. إنت اللي مخك طش.

- طب ده انت اللي .... يتسابقوا في الضحك رغم المواجع لتزجية الوقت.

حرص طيلة هذه السنوات أن يُخفي عن كل من فارس وهمام علاقته بالآخر، ولقي في سبيل ذلك ارتباكًا وتوترًا وتأنيب ضمير، فعندما تعرَف إلى محفظة فارس وسط مسروقات همام، تركه يأخذ ما بها من مال، ثم احتال وأخذ أوراق فارس ضمن أوراق أخرى بحجة إحراقها،

ثم كتب اعتذارًا -دون توقيع- لعدم عادة المال، أرفقه بالأوراق، ثم تراجع ومزّقه، واكتفى بإرسال الأوراق وحدها خوفًا من أن يتعرّف فارس على خط يد صديقه المقرّب، أو يجد في الرسالة فيضًا من روح يعرفها حق المعرفة. أبقى بداخله سرّه، بأنه همزة الوصل بين اثنين لو التقيا.. فالله وحده يعلم من منهما سيكون القاتل ومن سيكون القتيل! ينتبه مرتجفًا من صوت إطلاق الرصاص ثم يتنهد بارتياح عندما يدرك أنها طلقات لعبة النيشان، وأن الطلقة للأسف لم تصب هدفها، وأنه لم يحقق حلم أهله.

في رحلة ضياعه في شوارع المدينة كان يأسره انجذاب غامض لمتابعة صخب الشوارع وأحداثها، كل شيء كان يشي بغد جديد، بالأخص بعدما رفض الشعب معاهدة ١٩٢٢ "إلغاء الحماية"، وأجبر السلطة على الإذعان لكتابة دستور محترم للبلاد، الدستور الذي لا يتورع الملك الآن _ رغم ارتفاع الأسعار وتزايد الفقر _ عن التخطيط للإطاحة به كي يستعيد الصلاحيات المطلقة ويغلق أفواه الجورنالجية وأصحاب الرأي بالضبة والمفتاح، وربما.. أفواه المغنواتية أيضاً، يتنهد وهو يدندن بموال بيرم أفندي:

الأولـة آه.. والتانية آه.. والتالتة آه
الأولـة بالبنـادق سكتوا الثـوار
والتانية جا اللورد ملنر يربط الأسعار
والتالتة تصريح في فبراير وأصله هزار

يصفّق له جمهور السميعة باستمتاع ممزوج بالمرارة، ويلمح بينهم بصاصي البوليس بسحنهم السمجة ولا يعرف كيف سينتهي الأمر! يقول له فارس إن الثورة لم تنتج فنًا جديدًا، فيرد عليه وهو يخرج مصارين جيبه.. "بيضاء من غير سوء": إيدك على نص ريال سلف.

لو تحسّنت الأحوال لعاد لأهله، لانتهت الكراهية بين فارس وهمام، لاستلهم الفنانون فنًا جديدًا، لتخلّص سيد النجار من مخّه "الضِلِم" ولما اتهم خطيبته "جميلة" بالفُجر لأنها أملت شروطًا، اعتبرها غريبة، للموافقة على الزواج منه، وأيضًا لربما أضاف "عوكل" اللبّان لطبق العاشورة "الشُكك" رشّة جوز هند، لكن الثورة ضلّت طريقها، ولا يعرف إن كانت ستعود وتجده أم لا!

يفكر أنّه لم يكن يرغب بأن يتم زواجه سرًا، كان يحلم بالسوالمة من أكبرهم إلى أصغرهم يرقصون في زفافه، بأصدقائه إلى جواره، لكن

زواجه الذي هو أجمل ما حدث بحياته، لابد أن يبقى خفيًا -لم يعلم به إلا عدنان الكردي، الذي سمح له هو وزوجته بالإقامة في المقعد العلوي لبيته- كما أن زوجته التي يحبّها أكثر من روحه، يجد نفسه عاجزًا عن إسعادها، لأنه صار أسيرًا لهذه الأسرار، لهذه الحياة المخاتلة، المفعمة بالتحفظ والمداراة، أسيرًا لتوازنات هشّة تعلق بها حياة أكثر هشاشة، حياة الأراجوز الذي يحرّكه ويسخر بألسنته العديدة من الملك والإنجليز ومواليهم من المصريين، يسخر به من نفسه أيضًا، الأراجوز أبو طرطور ورق، المختبئ وراء وجوه مستعارة، الأراجوز المطل على الدنيا من قفاز ترتديه يد عاجزة ينتهي بها وإليها وجوده، يرتجف من الرنين العالي لصاجات بائع العرقسوس الممتزج بصياح الصغار يركضون وراءه، يرى همام يلف سيجارة، فيبادره:

- وناوي على إيه يا همام؟

- عه؟

- بعد ما رضوان البلبيسي مات يعني؟

- مش عارف. ماعادش لها طعم العيشة هنا، جاي على بالي أتدلى لحد البحر. إسكندرية.

- إسكندرية؟ أحسن بلد دي. يا سلام.

- ولاّ نروح دمياط؟ بيقولوا الرزق فيها ياما.

- لأ. أنا لأ. إنت عارف القهاوي هنا.

- بيقولوا قهاوي إسكندرية أكتر من هنا.

- بقولك لأ. ما ينفعش.

يرى الدهشة بعيني همام فيسترسل:

- أصلي لازم أستنظر هنا. متفق أنا وواحد نعمل فرقة زي بديع خيري.. لو تعرفه.

- إيييه! من إمتى وإنت بترسم على العالي يا ابن غباشي؟

- يا أخي فضّها سيرة، اتكل انت على الله.

ينهض وقبل أن يودّع همام يجده يبادره: استنى استنى.

يمشي وراء همام الذي يقوده إلى خيمة "النيشان": جرّب حظك.

أحجم عن أن يقول "مليش فيه"، صوّب نحو الدائرة فانحرف سهمه، قهقه همام:

- خايب في كل حاجة!

ده.... حتى ما بتعرفش تكذب.

يتساءل في نفسه بعد أن ودّع همام: إلى أي مدى يكون الإنسان مخيّرًا؟ إنه ليس ابن بيه مثل فارس، وليس قويًا "فتوة" مثل همام، حلم بأن يكون أزهريًا ثم وجد نفسه هائمًا في حلقات الذكر مع مشايخ الطرق، شغف بالأدباتية والحكواتية وغنّى في الموالد والملاهي، وأحيانًا وراء العوالم، ثم انتهى إلى الأراجوز، ولم يشعر بالذنب لممارسته أيًا من ذلك، لم يشعر بأن شيئًا قد خدش حقيقته بل يراها أكثر جلاء في انزياح الصوت من أعماقه، حين يغنّي، مطهّرًا أوصاله وكاسحًا همه وكدره، في تأمله لتمدّد جسم "دميان" الأكروباتي، وتوهّج طاقاته الكامنة التي تجعله يبلغ حافة بين الوجود والعدم، أو بين العقل والخيال، في عبق الياسمين تفوح به عينا ليلى كلما نظرت نحوه فيبتهل ممتنًا للنعم التي اختصّه الخالق بها، له نفس القلب التوّاق للحب، للغناء والرقص والضحك، نفس المباركة لشهواته التي أودعه إياها خالقه، كما للزهد والذكر والصلاة، لم يشعر بالذنب لأنه تزوج "ليلى بنت رضوان البلبيسي" وأحبّها، بل يشعر بأنه، فقط، مدين لفارس باعتذار لأنه اضطر لإخفاء الأمر عنه، ذات يوم سيخبره بكل شيء وسيتحمّل غضبه، سيتحمله إن

ضربه أو حتى قتله، لن يعبأ، لأنها معه، يناديها: مولاتي. تنظر مرتابة، فلا يجد كلمات يعبّر بها، يريد أن يقول إنه لم يضعها بهذه المكانة لكونها ابنة الحسب والنسب أو ابنة البيه، وأنه لن يُقصيها عن هذه المكانة ولو بوصة واحدة لأنها أرمينية أو ابنة "غزيّة" أو أي شيء آخر، عدا أن لسانه لا يسعفه بأي مما يريد قوله، فقط يصيح:

- ورب الكعبة يا مولاتي.. الجميل.. جميل بذاته، والحبيب.. حبيب لذاته.

تضحك، يحسد نفسه لأنها معه، بجمال صدقها وبساطتها اللذين يتفوقان على سحر ملامحها، تفهم تقلّباتها المزاحية، وفلتان لسانها الذي تداري به طبيعتها الخجولة، أصغى لحكاياتها وأدرك عمق معاناتها، ووجد في اقتلاع أمها من أرضها صدى لاقتلاع أخيه عزيز من أرضه واستسلامه لمصير مجهول. وجد معها الحب يجعله هذا يشعر بأنه أغنى من ابن البيه، وأقوى من الفتوة، ومن كل الناس، لديه ما ليس لديهم، لأنها معه، لأنها تحبّه أو في طريقها إلى ذلك، ألم تفصّل له العرائس بيدها المعتلة، رغم ضعف نظرها! طار من الفرح رغم أن المجهود الذي استغرقه إصلاح غرزها المنحرفة كان أكبر مما لو حاكها بنفسه، ألم تشفق عليه من وقوفه بعد تعب الشُغل لإعداد لقمة للأكل، وشرعت

تطبخ بنفسها! حتى لو كان طهوها.. غريبًا، فقد أكلا معًا، وضحكا معًا، ألم تغسل جلبابه! صحيح فعلت ذلك متأخرًا جدًا واضطر أن يلبسه وهو مبتل، حتى لا يتأخر على جمهوره، فأصابته نزلة برد قاسية، لكنه فرح، ألم تتوقف عن الحرص على عدم رؤيته لآثار جروحها! ألا يؤكّد كل هذا أنها تحبه! أو على الأقل في طريقها إلى أن تحبه، وهو سعيد، هو أسعد إنسان في العالم، كان كذلك.. حتى أخبره "زفت الطين" همام بموت البيه، يحس الآن بالتهديد، يخاف إن أخبرها أن يفقدها، أن يكون قد زرع الحب في أفنية الوهم، أن تتركه وتعود لاستلام إرثها، أن تعود ابنة البيه الثرية وتسقط من ذاكرتها الفترة التي ارتبطا فيها، منذ تلك الليلة التي أمسك فيها يدها ونزع منها السكين، ومنعها من القتل، منذ فضّلت بحره الصغير على العودة لسراية البيه، منذ جعلته يرى في نفسه أشياء لا يعلم بوجودها، فانطلق يهجو الظلم من وراء قناع الأراجوز.

يقصد بيت الكردي عبر طرق ملتوية وغريبة، يحب ليل هذه المدينة، هدير البنايات، الماكينات التي تدور في مصنع الدخان، سلالم الحجر في مداخل أزقة تحتفظ بأبخرة المطابخ، نباح الجراء الصغيرة تفتّش عن رزقها، همس المشربيات، ثم.. ذكريات الشوارع عن الذين سقطوا بالرصاص، أو تحت دوس الأقدام المتدافعة، عن الذين أصيبوا بالعجز

وعاشوا يلوحون لمصيرهم المسلوب، يتلفت كل خطوتين كي يتأكد أن همام لا يتبعه، فقد أحس بارتيابه فيه. يحس أنه أسير هذه الخبايا، بجحر الأرنب الذي يحتمي داخله يصبح سجناً يضيق عليه ويخنقه، وماذا الآن؟ هل سيخبرها عن موت البيه أم سيضيف للحبال الملفوفة حول عنقه حبلاً جديداً؟

ليلى

وجه ولدها الذي حُرمت منه لم يفارقها، جبينه المضيء بهالة وردية شفافة، شفتاه الصغيرتان تتلفّتان بحثًا عن حلمة ثديها، صياحه الرقيق الذي يهدأ عندما يستشعر ضمّها إياه، الدفء الذي تبعثه أنفاسه في أوصالها، لم يفارق كل ذلك ليلى وهي تتحسّس بطنها غير مصدقة! غير قادرة على التعبير عن امتنانها لكرم الله الذي عوّضها عن ولدها، ومنحها روحًا جديدة، أخبرتها الداية، بعد أن فحصتها، أن جنينها دخل شهره الثالث، وبعد ستة أشهر ستسمع صياحه.

- يا رب يعيش. يا رب كل حاجة تمشي بسلام.

لا يمكن لليلى ذكر السلام دون التفكير بنقيضه، فالقلق من كل شيء ومن أي شيء لا يفارقها، كما أن ذاكرتها تتشوّش عند الفصل الأكثر قتامة من حياتها، متيقّنة فقط من أن شخصًا اسمه "مدكور" قد

أخذ رضيعها، وأنها دقّت الباب حتى أوجعتها يداها ولم يجبها أحد، هل كانت معها جميلة؟ ولماذا تركتها بعد ذلك تعاني وحدها؟ آه، نعم، ربما لأن البيه منع استقبال الزائرين، فبقيت وحدها، هل تعرضت لحادث أم مرضت؟ تداهمها صورة شابات يرتدين مرايل بيضاء يطفن بين سرائر حديدية طويلة متجاورة، لكنها لا تعرف لماذا كانت نائمة على أحدها؟ ولماذا كانت مقيّدة الأطراف إلى عمدانها؟ ولماذا تساقط شعرها؟ أو كيف اختفى؟ فقط يعاودها الإحساس بدماغها ساخنًا وثقيلًا، بالإعياء يتمدّد في أوصالها، تتذكّر إطلالة طيف "لِيلة" ينبهها عندما اقتربت إحدى هؤلاء البنات ومدّت يدها تنتزع من عنقها السلسلة الذهبية ذات القلادتين، قلادة العذراء التي ورثتها عن "لِيلة" وقلادة ما شاء الله التي أضافها رضوان بيه إليها؟ لم تفعل شيئًا حيال تلك اليد، ولا حيال الخالة "جوليا" التي مالت فوقها، فأحست ليلى بملمس شفتيها، نارًا، فوق خدها الذي كان كبقية جسمها يتألم حتى من نسمة الهواء، يتراجع وجه جوليا وتتركز نظرتها على عنق ليلى متسائلة، بجزع، عن قلادة العذراء، ثم تحملق إلى أعلى، فيما تحسّ ليلى بدوار مريع، تشهق جوليا وتجري مختفية من مرمى بصر ليلى التي تحملق نحو السقف فتراه يتشقق، مرعوبة عاجزة عن الصراخ، تائهة لا تعرف إن كان ما تراه وهمًا أم حقيقة، إلا عندما تهوى كتلة كبيرة فوقها وتهرسها في الأرض، آااه،

تصرخ، عدا أن هذه الكتلة لحكمة ما لم تدفنها بالكامل، بقيت، رغم الألم، قادرة على التنفس، تشهد تداعي بقية كتل السقف من زوايا مختلفة، تئن أنينًا مكتومًا متّصلاً بجانبها الأيسر الذي نال الثقل الأكبر فآلمها بشدة، أدركها الرجل الذي ظهر فجأة ونجح في زحزحة الكتلة الحجرية وتخليص ليلى من تحتها ثم التقط طرفيّ ملاءة السرير المجاور الذي لم يتأذَ بعد، وغطاها بها، فلم تعد ترى شيئًا، فقط واصلت الأنين.

- هل يظنون أني مت حتى يدفنوني؟ لا تدفنوني وأنا حية. لا. اكشفوا وجهي.

يظهر أمامها طيف "لِيلة"، فتستنجد بها: خذيني. لا تتركيهم يدفنونني حية.

تنظر لها "لِيلة" عاجزة معتذرة، ثم تتراجع وتختفي، فيما تظل ليلى تنتحب على إيقاع زمجرة موتور أوتومبيل، لا يغطي تمامًا غمغمة جوليا التي تفتح منفذًا في طيات الملاءة يكفي للتنفس.

في اللحظات القليلة التي استعادت فيها الوعي، كانت تسمع نباحًا متواصلًا، وعواءً متقطعًا، يشبه البكاء، عواء كانت تسمعه في أثناء وجودها مع آمنة، فتقترب منها وتلبد بين ساقيها، فتحت عينيها هذه

المرة فرأت عجوزًا تبدو أكبر عمرًا من آمنة، تضع صليبًا على صدرها، وتخفي شعرها تحت غطاء أبيض، راحت تكمد مواضع الألم والتورم والازرقاق المروع في جانبها الأيسر بقطع من خيش رقيق مبلل بروائح نفّاذة، أغمضت ليلى عينيها ثم فتحتهما، فرأتها تتنهد وتشير برأسها يمينًا ويسارًا، فيأتي شيخ ذو لحية بيضاء وعباءة سوداء بسكين كبير، يحرقه في النار، ثم يقربه من ذراعها المتألّمة، فيما تضع العجوز قطعة قماش مطوية بين فكيها، وتغمي عينيها بطبقات عديدة منه، حجبت عنها الرؤية لكنها لم تمنعها من الإحساس، ستقول لخالتها وستتذكر في كل لحظة من حياتها بعد تلك اللحظة أنها أحست.. بألم ذراعها. آااه.. ذراعي.. إلى أين تأخذون ذراعي؟ تحلم، تهذي من فرط الألم، وتظهر جوليا، تقترب وتفتح فمها وتصبّ داخله الماء وسوائل أخرى لا تستسيغ طعومها.

- ساعديني لكي أموت. تهمس لطيف "لِيلة" التي تمرق بسرعة تاركة في أثرها دموعًا حارة تحسها ليلى فوق خديها، وتتذوق ملوحتها، تتوسل عيناها، لعجز لسانها عن النطق، العجوز التي تطببها أن تتركها لحالها، لكن العجوز تتابع تغطيس الخيش في الطنجرة الصغيرة كأنها لا تسمعها، وبين الحين والآخر يأتيها صوت الخالة: نامي.

ولكنها نامت شهورًا طويلة، كانت تشعر بجوليا ترمي بنفسها فوقها عندما تفاجئها نوبات التشنج حتى لا تطيح من فوق الفراش وتتأذّى، كما كانت تنقّط لها الدواء في فمها كي تعاود النوم، وعندما استيقظت كانت قد أدركت أن معجزة ربانية قد أنقذتها، أدركت أيضًا أن "ليلة" شملتها بعنايتها عندما أيقظت الخالة جوليا من نومها، وأرسلتها إليها في اللحظة المناسبة، هي والرجل الذي كان معها، الذي غطاها بالملاءة وحملها مثل خُرج فوق ظهره، وأسرع بالخروج قبيل الانهيار الكامل للمبنى، أدركت أيضًا أن الأب "سمعان" والأخت "ماري" لم يقطعا ذراعها، بل اضطرا لمداواة جراحها العديدة بالكحت والكي والخياطة، ما ترك حُفرًا ونتوءات شائهة وما زالت مؤلمة بمناطق مختلفة بجسمها، حتى لا يسري التلوث والقيح في بقيتها وتموت، وكانت ذراعها اليسرى هي الأكثر تضررًا.

- والمسيح ما كنت معشمة خالص إنك ترجعي!

تهمس جوليا وهي تمسح دموعها، فتتذكر ليلى إيقاع الترانيم ونقش الصلبان فوق جدران الكنيسة، وهي تغسل بذراعها المعطوبة جلباب متولي وتفكر بحملها ثم بالدانتيل الأبيض الذي زينت به قماط وليدها الذي سرقه مدكور أيام كانت امرأة عفية وجميلة كباقي خلق الله، ثم

يعاودها صوت جوليا الحزين تخبرها أن سجلات المشفى سجلتها ضمن المتوفين، عرفت جوليا بهذا بعد فترة، ولم تفكر أن تخبر البيه بأن ابنته ما زالت حيّة حتى لا يأخذها منها:

- خير ما عملتي يا خالتي.

- للدرجة دي يا كبدي كانوا بيعذبوكي!

- إيه؟ لأ. ماحدش عذبني غير المجرم اللي سرق ابني.

- بس أكيد معاملتهم كانت ....

- أبدًا. كلهم كانوا كويسين.

- برضه أكيد مراة أبوكي ..

- سعاد هانم؟ بالعكس دي طيبة.

- كلهم طيبين؟

- أيوه. تندهش جوليا:

- أمال اللي صابك ده كان من إيه؟ ترتعش ليلى فتغطيها جوليا بالحِرام الصوفي:

- الشتا طوّل قوي السنة دي.

يثير نبش سيرتهم ذكريات ليلى التي تنتهي إلى وليدها الضائع، فيؤلمها ثدياها، وينهمر منهما اللبن الذي لم يكن قد جفّ بعد، ويبلل صدر جلبابها، تنصحها جوليا بتفريغ صدرها في الحوض كي لا يتسبب اللبن المتكوم في تكوين خرّاج، تطيعها وتفرغه، لكنه يمتلئ من جديد، كأنه يعاندها أو يعاند قدره، فيصر على التجدد رغم اختفاء مستحقه، تتذكر "المجرم" الذي سرق ولدها، والرسائل التي لو تخلصت منها لما حدث كل هذا، فتبكي وتلوم نفسها ثم تردد الدعاء "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به"، وتدعو الله أن يعيد لها رضيعها، فتهمس جوليا "آمين" وهي تطبطب عليها.

بعد أيام قليلة من انتهاء ذلك الشتاء وبدء الربيع، وصل رسول من الأب "سمعان" يطلب من جوليا الرحيل إلى تخوم وادي المرمر بسوهاج، لرعاية عجوز أرمينية وحيدة هناك، ساعدتها ليلى في جمع ثيابها وحاجياتها، عدا سكينًا خبأته في طيات ثوبها، قبل أن تساعد جوليا على وضعهم داخل الحنطور، ثم أخبرتها أنها ستمضي بالطريق الآخر، دمعت عينا جوليا وغمغمت:

- بطلب من الرب يسامحني. كنت فاكراهم آذوكِي وعشان كده خبيت عنهم إنك لسّه عايشة. كان مفروض رجعتك من زمان.

- لا يا خالتي ده انتي خير ما عملتي.

- صحيح؟

- أيوه. ماكنتش هطيب لو رجعت.

رفعت جوليا صوتها بالدعاء: "امنحني القوة كي أغير ما ينبغي تغييره والصفاء كي أتقبل ما لا يمكن تغييره، والحكمة كي أفرّق بينهما"، ثم دعت الله أن يمنحهما الصبر والسلوان، فهمست ليلى: آمين وهي تمسح دموعها، مدت جوليا يدها تربت ذراعها اليسرى، ثم رفعتها، مقطّبة الجبين، بسرعة تنم عن الحرج، حتى الآن ما زالت ليلى نفسها تنسى أنها صارت بذراع معطوبة، فبينما تمد يمينها وتكشف الغطاء عن طنجرة الكسكسي التي أعدتها احتفالاً بحملها الجديد، تجد نفسها تهم بتحريك ذراعيها لتحملها، وبعدما تستوعب ضعفها تبدأ، بيدها السليمة، في جرجرة الطنجرة دون حملها، تفعل ذلك دون نقمة كتلك التي عرفتها من قبل عندما كان مشهد أي أم تحتضن وليدها يثير حسرتها، فترميهما بنظرة تجعلهما يتشبثان ببعضهما بخوف ويبتعدان عنها، يثيرها كذلك، وإن بدرجة أقل، مشهد السيدات المحترمات زوجات وبنات وجهاء وأعيان البلد، وهن ينزلن من الأوتومبيلات كي يدخلن للاجتماع بمقر "الاتحاد النسائي"، أو يتجمعن ويسرن، بوجوههن السافرة، في تظاهرة

حاشدة ضد الاحتلال أو للمطالبة بمساواة المرأة في الحقوق السياسية، كانت تحسدهن وتفكر بأنها كان ينبغي أن تكون بينهن، أن تكون مفعمة بهذه الثقة والوجاهة والتحضّر، لو لم يكن بحياتها رجل اسمه رضوان البلبيسي، أضاف قلادة ما شاء الله بجوار قلادة العذراء في سلسلة "لِيلة" التي تطوق عنقها، وعدا ذلك فلا تذكر له عملاً آخر طيباً، على الرغم من أنها أحبّته وتمنت أن يحبها، بل تحاول أن تنسى أنه تسبب في أذى بالغ لرجل لا تريد أن تتذكر اسمه، وربما لآخرين لا تعرفهم، وجعل من ابنته هدفًا لانتقام مريع، أي دمر بيديه حياة ابنته، لكنها هذه الليلة تشعر بأنها ولدت من جديد بينما تضع بضع حبات من الكسكسي فوق طرف لسانها، وتجرشه بأسنانها، كي تتأكد من نضجه، وتتساءل: ترى ماذا سيغني لي هذه الليلة؟

خفيف الروح بيتعاااجب
برمش العينِ والحاجب

تغني وهي تنظف الأواني وتعالج الفوضى العارمة التي سببتها، كي تعد كمية صغيرة لن يتبقى منها بعد عشائهما شيء للفطور، وعلى أي حال فمن كان يصدق أنها ستطهو أصلًا! تبتسم، تتمنى لو أنها ماهرة مثل سعاد التي تتحرك بإيقاع يبدو رتيباً، وتنتج في النهاية أشهى الأطعمة،

لكنها لم تجد من يعلّمها، وجدت فقط مخاوف تنمو داخلها وتورثها العناد.

- إنهم لا يحبونني، لا يهتمون لأمري، لن أطيعهم، لا.. لن أستسلم.

تتردد بداخلها هذه العبارة منذ اللحظة التي حطت فيها قدماها داخل سراية العزبة، لم تشعر أنها تنتمي إلى هذا المكان، الذي شهد إدراكها الأول لما يعنيه الشعور بالإهانة، عندما حملها أبوها ووضعها أمام صافيناز هانم، فسنوات عمرها الأولى قضتها تأكل كالأنعام، لا تعرف الكلام كوسيلة للتواصل البشري، لأنها لم تعرف من البشر سوى آمنة الطاعنة في العمر، إلى حد العجز عن تحريك لسانها، أو فتح فمها، سوى للضرورة القصوى، وعجوز أخرى كانت تأتيهما باحتياجاتهما بناء على أوامر البيه، الذي لم تره سوى مرات قليلة، تلك السنوات القاسية لم تشعرها بما شعرت عندما شرّحتها صافيناز بنظرة ملؤها الاشمئزاز ثم أشارت لخادمتها زبيدة:

- خد قذارة دي من هنا؟

سكبت زبيدة كوزًا من الماء الساخن عليها متأثرة:

- سامحيني.. دي أوامر الهانم.

بقية الدلو الساخن كان من نصيب زبيدة، التي أحجمت منذ تلك اللحظة عن الاقتراب من البنت "الغلاوية" التي لا تترك ثأرها.

ثلاثة شهور، نال خلالها كل من بالسراية نصيبه، انتهت بكسر ساق صافيناز ووضع البنت مع بقجة صغيرة على المقعد الخلفي للأوتومبيل، الذي قطع طريقًا طويلاً تحفه أشجار السدر والصفصاف ثم توغل بين جبال الرمل، حتى بلغ منطقة مكتظة بالبيوت التي تسمق من بين أسطحها مآذن تقترب قممها من السماء، بينما لم تتوارَ خضرة الحقول، تقدم في شوارع ممهدة منتظمة حتى وصل إلى شارع ذي أبنية أنيقة حمست السائق لرفع صوته:

- وصلنا شارع محمد علي.

ستعيش في بيت البيه، في عهدة سعاد هانم ذات العينين العسليتين والشعر البني والإرادة الفولاذية المصرة أن تنجح فيما أخفقت فيه صافيناز، وتلم لحم الباشا، هذا الهدف هو الذي ربط مصير الصغيرة ليلى بهذا الفرع من الأسرة، خاصة بعد أن عبرت الشهور الأولى بمشكلات محتملة، ثم استقر الحال في السنوات التالية، لن تنكر أن سعاد احتملتها، أحيانًا تقول عنها "العمشة" وأحيانًا تقول "بنت الغزية أو بنت الأرمنية"، لا تغضب ليلى من سعاد، بل تتحسر على المحبة التي لولا

رجل اسمه رضوان لكانت ممكنة بين أم بلا بنت، وبنت بلا أم تسألها، بلطف، عن صنف الطعام الذي ترغب فيه، بدلاً من أن تدفع بالصحن أمامها دون كلمة مسموعة، بينما تقول من ورائها: تحمد ربنا بنت الأرمينية اللي رماها لي رضوان ابن لبيبة. أو تقول: سابها سنين عايشة على الدريسة والعَلف وفي الآخر جاي يرميها في أرابيزي. لم تتوقف ليلى عن ترديد: إنهم لا يحبونني. لا يهتمون لأمري. ليس بسبب سعاد وحدها، فقد كانت تسمع من الناس أن الأخ سند، لم تجده في فارس، تنظر في العينين "اللعبيتين" الخاليتين من التعاطف، فلا تجد سوى الدهشة ثم الاجتناب بعد أن ظنها تعمّدت الوشاية به لدى أبيهما، عندما ذكرت أنها رأت حديقة الأزبكية مكتظة بجموع غفيرة، لمحت بينها فارس، يستمعون لخطبة تطالب بحق مصر في الاستقلال، صار يتوقف عن الكلام مع شفاعة عندما تقترب هي منهما، كأنه يتعمد أن يوضّح لها، بعدما نال عقاب البيه بالحرمان من المصروف أسبوعًا كاملًا، أنها لم تعد موضع ثقته، بدأ يتودد لها فقط بعدما توثقت صداقتها بجميلة، فصدته هي هذه المرة، غضباً منه، وغيرة على صديقتها، والأنكى من ذلك أنها لن تنسى أنه تخلى عنها ووقف كالمتفرج على سرقة رضيعها، وحتى الشفقة التي وضعها الله في قلب شفاعة لأجلها -التي جعلتها ترافقها كظلها وتهتم بأمرها- لم تخلّصها من قلقها ومخاوفها، صحبتها

عندما أرادت أن تزور أمها، كانت معها عندما التقت بهمام لأول مرة، عدا أنها تركتها وحدها.. لتعشقه، وتعاني، لم تطمئن لشيء كما اطمأنت لعينيه الذاهلتين، ولا حتى ليديه الحانيتين اللتين جعلتا جسدها الطفولي يطلق نشيجًا أنثويًا ناضجًا لم نتوقع أن يحتويه كيانها.

- نفسي أشوفه يا جميلة. نفسي أعرف جرى له إيه!! تقول بانفعال بعد أن اختفى فجأة.

- اعقلي يا ليلى هتودّي روحك في داهية.

تبكي ثم تتهاوى حين تسمع الحقيقة من جميلة:

- همام ده ابن مبارز عدو أبوكي.

- يعني إيه!! كل ده كان كدب؟!

تصغي ملتاعة إلى جميلة تؤكد بأنه سعى لجعلها تتعلق به، ثم تركها فجأة كي يعذبها وينتقم من أبيها، أهذا جزاء الحب؟! طالما تساءلت، وطالما أنّت وظنت أن قلبها من المحال أن ينبض لغيره، تبتسم وهي ترتب المكان، "مكانها"، وتتدرّب في أثناء ذلك على قول "أحبك" بعد قليل لرجل آخر، سيضبح بعد اكتمال شهور الحمل أبًا لولدها الثاني، تقطع الخضار لأجل وجبة مغذية تساعده على احتمال المتاعب،

مستخدمة سكيناً صغيراً، يشبه سكيناً آخر واجهت به ثلاثة ذئاب في ليلة لم تعد ترغب في أن تتذكرها، بينما يبدو أصغر كثيرًا من الآخر الذي كانت تخبئه في طيات ثوبها عندما وقفت أمام الملهى، وقفت مرتبكة يعيقها ضعف بصرها عن أن تركز مع أشكال وألوان الداخلين والخارجين من مرتادي الملهى، لا يثير صخب المزيكا فضولها لتتلصص على الداخل، فقط كانت تبحث عن الملكة "زينة"، أخبرتها "لؤلؤ" التلميذة النجيبة أن معلمتها "زينة" ماتت منذ شهور، وتركت لها كل شيء، مدّت يدها تمسح دموع ليلى، ثم التقطت شعراً مستعاراً ووضعته فوق رأسها شبه الأقرع ثم جذبتها من يدها ودفعتها يميناً ويسارًا، تأملت رسمها وكَسمها ثم قالت: بالصلاة على النبي هتبقى وش السعد علينا يا ريحة الغالية. عدا أنها شهقت عندما اصطدمت عيناها بآثار الكي والخياطة فوق بطنها وصدرها وذراعها: يا عيني يا أختي وده من إيه؟! سمحت لها، في آخر المطاف، أن تبيع الورد على باب الكباريه، عدا أن الود نما بين ليلى وإحدى العاملات الصغيرات، ومنها عرفت الطريق إلى ملهي "القلب الطاهر"، الذي كان يقضي فيه "مدكور" سهراته، وهناك عرفت أنه متغيب منذ عدة أسابيع، لوفاة طفله الذي لم يكمل عامه الأول متأثرًا بوباء التمشية والإسهال.

- مات؟ ابني مات!

تنتحب، تقع وتتمرغ في التراب، يرفعها المارة، فترفع صوتها:

- والله لأقتلك يا مذكور.

السكين في يدها وهي لابدة عند الباب، تراقبه جالسًا مع البنت التي شجعته على الشراب حتى صار "سكران.. طينة" كما اتفقتا، فيما أكدت البنت على ليلى أن دورها ينتهي عند هذا الحد، تعرف ليلى أن الباقي عليها وأنها وحدها ستقتله، وحدها ستفعل هذا وتشفي به غليلها، وحدها، حتى لو أن هذا سيكون آخر ما ستفعله بحياتها، حتى لو سيكون ثمنه حياتها، السكين يرتفع، تتبع خطواته المترنحة، تقترب من ظهره، وفيما تبدأ في إنزال السكين.. توقفها يد صغيرة وناشفة، فيما تكمم فمها اليد الأخرى، وفي أثناء ذلك يكون مذكور قد ابتعد.

صفعت متولي مرات عديدة لأنه حرمها تحقيقَ غايتها، فلسوء حظها كان قد أنهى وصلة غنائية بالداخل، ولتوه خارج عندما رآها ترفع السكين. أخذ يصيح:

- مَرة هبلة! هبلة! كان أحسن أسيبك تروحي في حديد.

انثنت تبكي، فطاح الوشاح عن رأسها، حدق في العينين اللتين يعرفهما، فأحنى رأسه حرجًا، سيخبرها فيما بعد أنه رآها قبل عام ونصف في سوق البهار فهتف مبهورًا:

- يا وعدي!

من أعماق عينيها الزرقاوين أطلت نظرة مفعمة بالعناد والصخب، انطبعت في وجدانه، انتبه على صوت فارس يزجره:

- اخرس يا حمار، ثم يستطرد بخجل:

- دي أختي.

أسرع فارس مقتربًا منها، يزجرها هي ورفيقتها "جميلة" على تسكعهما بالأسواق.

انتبه متولي على انفعالها، فأسرع يختطف السكين من يدها، قال كلامًا ليعتذر ثم آخر ليهدئ من روعها، وبعد أن فشل في إقناعها بالعودة لأسرتها، سارا عبر طرق متعرجة -هربا من حملات الجنود الإنجليز التي تداهم المنازل وتستوقف السائرين- حتى اقتربا من محل سكنه، توقف متولي لا يعرف كيف ستقبل ابنة البيه المبيت في بجره، لكنه أفضل من النوم على سلالم الكباريهات و"مش كل مرّة تسلم الجرة يا بنت البيه". يقول، فتطرق نحو الأرض، تبعت خطواته وصعدت ثلاث درجات من الجحر، ثم عبرت ثلاثة أزقة، وفي الرابع ظهر باب ضخم طرقه متولي:

- أنا متولي يا عم عدنان.

وافق، عدنان الكردي، متململاً على مبيتها في المقعد العلوي الصغير الذي يعتلي بيته، ريثما يجد متولي مأوى آخر في اليوم التالي، لكن الأيام تتابعت، يأتيها متولي، كل يوم، بما يستطيع من احتياجاتها، ويتبادلان حديثًا قصيرًا، قبل أن يذهب إلى عمله، أخبرها في إحدى المرات وأدرك أنه لم يته عنها بسبب قصر شعرها لأنه.. سحر بزرقة عينيها منذ رآها أول مرة، كما رآها في أحلامه مرات كافية لأن تنطبع صورتها في ذاكرته، لم تبتسم فأسرع مستأذنا ليذهب إلى عمله، استمرت الحال على هذا النحو حتى صاح الكردي:

-ماينفعش قعادها هنا يا عم الشيخ. الناس تقول إيه؟! حار متولي ثم صاح متسائلًا:

- مين أصلاً هيشوفها؟

- خلاص رجّعها لأهلها. ياما نسوان بتطفش وترجع.

صاحت ليلى بحشرجة ألم: أموت ولا أرجع.

زفر عدنان بضيق:

- خلاص اكتب عليها. مفيش حل تاني

شهق متولي: هه! لأ. إن كان ولابد يبقى اكتب عليها إنت.

استمرا بالنقار، فاجأتهما ليلى بزعقة محتجة:

- اخرس يا ابن الكلب منك له. مين فهمكم إني ممكن أرضى بأي واحد فيكم!

كان غضبها قد جعل لصوتها نبرة حانقة غريبة، همت بالخروج فلحق بها متولي معتذراً:

- أصل الجواز بجنابك حلم... كبيير قوي علينا. والختمة الشريفة دي الحقيقة.

ابتسمت وهي تغالب الدمع وتسمعه يطلب منها أن تختار، فأجابت:

- اللي يساعدني أنتقم من مدكور هو اللي أتجوزه.

رفع الكردي كفيه نافد الصبر وهو يحملق في متولي: مبروك عليك يا مولانا.

تضع يدها على قلبها وتردّد ما ستقوله، بعد قليل، لمتولي: مبروك علينا ابننا يا.. متولي، لا، بل.. يا مولانا، لا، بل يا.. حبيبي، ممتنة للرجل الذي أنقذها وأحبها أكثر من روحه، ومنحها أكثر ما كانت

تفتقده في الحياة.. الأمان الذي لم تجده في سراي رضوان بيه -التي لم تختلف كثيرًا، عن عشة "آمنة" التي عانت بين جدرانها الوحدة والوحشة والخوف من الذئاب- هذا الأمان الذي حسبت نفسها وجدته بين ذراعيّ همام، ثمّ واجهت وهمها وخسته عندما هجرها دون تبرير أو اعتذار أو وداع، فسّرت لها جميلة، بثقتها المدهشة في ذاتها التي تدفع من يسمعها لتصديقها دون تفكير، لعبته "القذرة"، فارتاحت لأن تفكر بأنها لم تحبه بل تعلّقت به لأنها كانت "عيّلة وهبلة"، وأنه كان الرجل الأول بحياتها، الرجل الذي دفعها لاكتشاف ذاتها وكينونتها، لاكتشاف حاجتها للحب وجدارتها به، وأن خطته الانتقامية جعلته يستخدم الحب كسلطة يسيطر بها عليها، يدفعها إلى أعماق بحر التحقق ويبقى آمنًا على شاطئه، يتفرج عليها وهي تغرق ويبتسم ابتسامة غامضة، تصنفها الآن بأنها ابتسامة ظفر أو ربما سبي أو تشفٍ، وترى إلى أي مدى كادت تفقد عقلها! فيما ظل هو يحتفظ بسيطرته لا على مشاعره وحدها بل أيضًا على خططه في تعذيبها، منتزعًا الأمان الذي ظنته قد منحها إياه، الأمان الذي لم تجده كذلك في بيت شرطي مهووس بجمع قطع السلاح، اسمه مذكور، رأته أول مرة في سوق الخيط فيما كانت تكيل الشتائم للبائع عندما انشغل مع زبونة أخرى ونسيهما "هي وجميلة"،

ثم للرجل الذي يلاحقهما بمعاكسات كلامية فاحشة، وحتى لمدكور نفسه عندما تطوّع بالدفاع عنهما:

- ما احناش عميان ولا مكسحين. باردون يا حضرة. مش محتاجين خدمات جنابك.

بعد شهر واحد وجدت نفسها تحت هذا الرجل في فراش عطّره بالورود، تدخل كلمات غزله الصارخة أذنها اليمنى وتخرج في الحال من اليسرى لاصطدام عينيها بضلفة الدولاب التي علق عليها بندقية وبلطة وسكينا معقوفا، وغيرها من أدوات لا تعرف اسمها لكنها تفزعها، إضافة إلى أن الطبنجة الميري التي تطل من سرواله الذي خلعه على السرير بجوارها، لا تنفك تدفع برائحة البارود إلى أنفها، تلتفت وتتوسل الأمان من صندوق صغير كانت قد جمعت فيه بوحها للأوراق بحبها ولوعتها وصدمتها في همام، كي لا تمنح الفرصة لمدكور ليسلبها كينونتها في فراش فرّت منه الورود، فقد تعلّمت الدرس، صدّت كل محاولاته لجذبها، فظلّ تواصله من طرف واحد، عدا أنها لما أحست بدفء نبتة رحمها صارت أقل تعسفًا معه، وإن أخفقت في أن تحبه، فكرت، مبكرًا، منذ كشفت لها جميلة سر همام، قبل زواجها، أن تحرق هذه الرسائل فلم يطاوعها قلبها، كانت الأماني ما زالت تكتنفها بأن يكون

مظلومًا لا نذلاً كما تصفه جميلة، فلو كان الانتقام بغيته لحرص على إلحاق العار بأبيها، وسدّد ضربته في ليلة واحدة، تفكر، ولكن لماذا هجرها دون كلمة؟ لماذا أيضًا لم يطاوعها قلبها على حرق الرسائل التي ستدمّر حياتها عندما سيراها مذكور؟! ليتني فعلت.. رددت هذه العبارة آلاف المرات بعدما هجر غرفتها، كان يحمل لها صينية طعام شهي ومغذّ ليتأكد من عافيتها في أشهر الحمل، يقدّمها لها بابتسامة لا تدع مجالاً للشك في تحسّن خلقه مع مرور أشهر الحمل، كبر في عينيها لأنه لم يشي بأمر رسائلها لأبيها أو أخيها، ومع أنه أصدر أوامره للخادمة بعدم استقبال ضيوف لها "مثل جميلة أو خالتها الأرمينية"، فإن ليلى ظلت تعتبره صاحب فضل، مهما كان سخيفًا أو ثقيل الظل أو... مغرمًا بالسلاح، شغوفًا بالعنف، يتباهى بقدرته على جعل المتهمين يقرّون بجرائم "ارتكبوها أو لم يرتكبوها".. فقط للخلاص من عذاب جهنم الذي يلاقونه على يديه.

تأخذ كف صاحب الفضل وتضعها على جانب بطنها، ليحسّ رفس ولده في رحمها، فيبدو عليه التأثّر حد البكاء، حتى إن مظاهر نبله المفاجئ كانت كفيلة بهز قلبها تجاهه، كما لو أنها.. توشك أن تحبه!! وفّر لها كل عونٍ عندما فاجأتها آلام الوضع، وما إن برزت رأس الوليد من رحمها، بوجه مطابق تمامًا لوجهه، حتى قبّلها قبلة دافئة، قبلة لم يهبها

مثلها من قبل -عندما كان يجتاحها بهوس مصارع وحوش، بهوس كان كفيلا بإثارة غضب وكراهية أي امرأة في العالم عدا هذه التي اعتبرت نفسها قد ماتت بعدما هجرها حبيبها- ثم بدأ في حزم أمتعتها، أخبرها وهو يصطحبها إلى سراية محمد علي أنه مسافر في مأمورية تابعة للعمل ولا يريد أن يتركها وحدها.

لم تكن هنالك فسحة من وقت كي تمنحها فكرة العودة للسراي أكثر من طيف عن وجودها كحقيبة أو خُرج يحملونه أينما يشاءون، في أي وقت يشاءون، أو عن الإجراء المفاجئ الذي أدخلها فيه مدكور قبل أن يجفّ دم ولادتها، خطر ببالها في تلك اللحظة أنه ربما لا يريدها، ربما قرر إعادتها هي ووليدها لأبيها، ثم تطليقها، ولم تجزع من ذلك الخاطر، بل كانت تضغط وليدها إلى صدرها في تلك اللحظة، مستعدة لأن تدفع أي ثمن لهذه النشوة التي منحها الله إياها في هذا الصغير، منذ أحسته داخلها، منذ نمت تلك العلاقة الفريدة بينها وبينه فأنستها كل شيء، حتى ابن مبارز، حتى الرسائل التي كانت حريصة عل إخفائها، نسيت هذا الحرص مع تلك النطفة التي راحت تحسسها وهي تنمو داخلها لتصير أول شيء حقيقي يخصها، ابن رحمها الذي سرقه مدكور بعد أن كسر عين البيه ببضع رسائل "لا تودّي ولا تجيب" وجعله يتخلّى عن حفيده الوحيد تجنّبًا للفضيحة.

تفكر بمتولي الذي لم يسألها لماذا ترفض العودة لأسرتها؟ لم يسألها عن أي رجل بحياتها، لكنها سألت نفسها مِرارًا وتجدّد جرحها كلّما تذكّرت وصف جميلة لكون همام قد جعل منها قطة جائعة، تموء ضارعة: أحبني، أيقظني، قبلني، اقتحمني أو اقتلني. كان يسهل عليها بعدئذٍ أن تقرر ببال مرتاح أن ما بينهما لم يكن حبًا، وأنها كانت ضحيّة خدعةٍ، عدا أنها أدركت أن هذا لن يكون حقيقيًا إلا لرغبتها في ردّ الطعنة، بأن تجعل صورة همام مستحقة للبصق، للاحتقار، بينما وحدها تعلم أنها لم تكن قطة تتضرّع، بل امرأة أحبّت رجلاً أحبها، حبًا ما كان ليكبر إلى هذا الحد إلا لأنه بادلها إياه، وأنها مهما فعلت لا يمكنها أن تهرب من صورته معذبًا دونها، دون الحب الذي سعى للهرب منه لكنه حاصره، هي حاصرته، تعترف، هي لم تقبل بأن تكون بالأعماق وتدعه آمنًا، لكنه هرب من حبه لها كما من حبها له، فلو لم يحبها لما حرص ألا يجور على برهان عفتها ولأذل أباها وحقق انتقامه، ولو كانت تهفو لذكَر، لبحثت عن غيره فور اختفائه، لكنها لم تقبل بسواه، حتى بعد أن تزوّجت مدكور، تكمل اعترافها بأنها صارعت همام على روحه، تجذبه نحو حبها فيتجاوب قليلاً ثم يبتعد، فتجذبه مرة أخرى، تتضرّع إلى الله أن يساعدها على تخليصه من الشر الذي كانت تحسه يتساقط منه، في عناقها، كالجلد الميت، يظهر سقوطه نضارة ما تحته من حياة وصدق

ونقاء، وكانت قد أوشكت بالفعل على انتزاعه من وحشته وشرّه، عندما فاجأهما ثلاثة ذئاب، فارتعب هو منها لا منهم، وهرب، هرب لأنه لم يحبّها بقدر ما أحبّته، كانت بحاجة لأن تعي أنه، مثلها، مجرّد ضحية للبيه -الذي إن أفلح مسعاها في مسامحته على هذا الجرح فلن يمكنها أن تسامحه على استخفافه بضياع ولدها- كي تستعيد تقديرها لذاتها، ثم تُسقِط هذا الماضي كاملاً عن كاهلها قبل أن تستجيب لحب متولي الذي تريد أن تبوح له بكل شيء، تريد أن تخبره أنها ليست من النساء اللائي يفعلن ما يحلو لهن، ثم يتمتعن بجنى ثمار طهارة مزعومة يستدل عليها الناس ببرهان واهٍ، لم تقصد أن تكون إحداهن، على الرغم من تفهمها لدوافعهن، عدا أن همام الذي حرص على ذلك لم يفكر بأوراق ذاكرة أحاسيسها التي ملأها بخطه، فلم تتسع لأن يضيف إليها "مذكور" الزوج الشرعي حرفًا، تريد أن تبوح بكل ذلك لمتولي الذي عرفت معه معنى الحرية والأمان، والنزوح الطوعي عن الذات، عرفت معه حبًا لا يستهدف السلطة أو الاستعباد بل العطاء، و... لكنها، رغمًا عنها، سوّدت عيشته شهورًا!

- اللي أوله شرط آخره نور يا ابن الناس. وأنا ما ضربتكش على إيدك.

خبأ السكين بين الجلباب والقفطان قبل أن يخرج، ثم عاد آخر الليل وألقاه على الأرض، التقطته بيمينها، وقربته من عينيها الضعيفتين فلم تجد أثرًا ولو لنقطة واحدة من الدم، حملقت في وجهه فنبس مخزيًا:

- إلا القتل. ربنا ما خلقنيش علشان أقتل. لأ. ماأقدرش.

دون أن تنظر نحوه ألقت بفراشه بعيدًا عن فراشها فهمس بمرارة:

- الأمر لجنابك يا بنت البيه.

لو كان البيه أبًا حقيقيًا لما أحسّت بنفسها مضطرة في تلك اللحظة للعودة إلى الشارع، تبيع الورد على مداخل الكباريهات -أو تتورّط فيما هو أسوأ- ما دام سبب زواجها من متولي قد انتفى، قضت الليلة تفكر بحبّه لها الذي تراه في كل لفتة منه، حبه لامرأة منكوبة، ضعيفة النظر ومعطوبة الجسد، ولم تعد بنت بيه "ولا يحزنون"، تفكّر بتعبه من أجلها، يحضّر الطعام آخر الليل وفي الصباح لا يجده.

- أكلته. تهمس بحرج، فيبتسم:

- مطرح ما يسري يمري يا ست الناس.

تظل مندهشة من معدتها التي تعافت بعد استقرارها معه، فصارت تأكل بنفس النهم الذي كانت تأكل به وهي في عهدة آمنة، استردت

عافيتها واستدار جسمها، وعاد شعرها الذهبي للنمو بنفس كثافته ونعومته القديمة، بينما أخذ متولي يذوي من شدة الإرهاق فينام وهو جالس، وكذلك يتضاءل من قلة التغذية "يؤثرها على نفسه ويترك لها نصيبه من الطعام مدّعيًا: شبعت أو مليش نِفس"، دفعها نبله للتفكير في أمر المال لأول مرة، فلم تعرف من قبل مزية الجنيه الذهب عن المليم، لم تعرف الجوع كما عرفه هو، ومع ذلك يترك لها طعامه! تتعجب، لكنها لم تسلم من الشك بأنه يفعل ذلك كي يكسر عينها، فتكف عن مطالبته بالانتقام من مدكور، تخفق في الفرار من هواجسها، لذا أخذت تجول في الأسواق تبحث عن مصدر للمال، ولو في فكرة تستلهمها من هنا أو هناك، مدّت يدها لكن نفسها لم تطاوعها على قول: لله يا محسنين. مثلما رأت غيرها يفعل ويجمع في سيالته نهاية اليوم مئات الملاليم، غابت الشمس ووجدت نفسها داخل سرادق تكركر من الضحك على الأراجوز، حتى إنها نسيت همومها، وقبل خروجها تقدمت ورأت عن كثب القفاز وعرائس القماش، طرطور الأراجوز والمنديل "أبو أوية" الذي تلمّ به أمه أو زوجته شعرها، رأت عن كثب أيضًا "الرِق" المملوء "على عينه" بفلوس المشاهدين "عشاق الأراجوز"، ولم يجد متولي ضيرًا من المحاولة، في البداية لإرضائها، ثم وجدته فيما بعد ينساق مأخوذًا بهذا العالم، لكن ليلى لم تتوقّع ما فعله وهي تفتح عينيها

وتفكر في "البقجة" التي ستلملم فيها ثيابها، والسلّة التي سترصّ فيها الورود على باب الكباريه بعد أن قال لها:

- ماقدرتش. كنت خلاص هأ..قتله بس ماقدرتش. إلا القتل.
فردت باقتضاب:

- خلاص نصيبنا سوا لغاية كده.

لم نتوقع أن تجده قد قضى الليل في تصميم شخصية أراجوزية جديدة، أو أن يهمس لها بمحبة:

- ماأقدرش على بعادك يا ست الناس. هنفذلك اللي انتي عايزاه. بس... بطريقتي.

ابتسمت بمرارة للشاويش "عَسعس"، بشاربه المبروم وعينيه الجاحظتين وحزام الطبنجة على جيده، وبدأ متولي يقرأ "كأنما من كتاب داخله" ما سهر الليل كله لأجله، فعسعس سيكشف للمشاهدين حقيقة سلطة الاحتلال والقلّة المتواطئة معها من المصريين، حقيقة الجرائم التي يرتكبها مدكور، ومن يشبهه، باسم الوطن في أبناء البلد، والتهم التي يلصقونها بأكثر الشباب وطنية، عن الرشاوى التي يتلقونها نظير التلاعب بالقانون للإفراج عن أبناء الباشوات والبهوات، والتعنت مع الغلابة:

- عسعس مدكور أقرع حنطور. الوش بوليس والقفا دبور.

جذبت متولي نحوها بعد أن انتهي من عرضه وعانقته، بذراعها الوحيدة، عناقًا طويلًا، فيما همست أعماقها: أنت رجلي.

تحشو الخبز بالفول واللفت وشرائح الطماطم، لكي لا يجوع، بل يظل تركيزه كاملاً على العمل، وتضع له غيارًا في "البقجة" لأجل الليالي التي سيقضيها في الريف الجواني أو الصعيد، يؤدي "دميان" الجرسون اليوناني ألعابه الأكروباتية المذهلة، ثم يبدأ عدنان في مغازلة عوده:

أهو ده اللي صار وآدي اللي كان مالكش حق تلوم عليا

ثم ينطلق متولي مع عسعس، الشرطي العنيف دائمًا، الغبي أحيانا، ثم مع "ألبرت" أبو وجه أبيض وقلب أسود، مدّعي التحضر الذي يملأه التكبّر والجشع، بينما تضع ليلى العرائس بين ركبتيها ثم تحيكها بيمناها بالإبرة التي يكون متولي قد لضمها بفتلة الخيط قبل خروجه، وتندهش من عِلة يدها التي تساعدها على تشويه الوجوه التي لا تحبها، فتبرز كِرش عسعس وتمط أنفه حتى يصل إلى ذقنه، وكأنها تتواطأ معها، هذه اليد التي تفلح في تربية الدجاجات أفضل ما يكون، ترعاها وتفهمها،

الدجاجات التي تحدّثها ليلى كما كانت تحدّث رضيعها وتبكي، أيضًا، لفراقها عندما يأخذها عدنان إلى تاجر من أصدقائه كي يعود لها بمال قليل يساعد على المعيشة.

غير أن الاحتجاجات لم تشتعل مثلما في السابق، ومثلما تمنت ليلى، كي يأتي اليوم الذي ترى فيه مدكور معاقبًا ومحتقرًا، سخرت من أمنيتها "العبيطة مثلها" في أن يوقظ "حتة" أراجوز الحراك الشعبي مجددًا، فقد أصاب الناس الإعياء بعد هذه السنوات من الكفاح، كما عرفت أن مدكور في سبيله للزواج من جديد، فعادت مهمومة بجرح ولدها ونار فقدانه، تُحرج، أمام جهد متولي لإرضائها، من التصريح بقلة جدوى مساعيه "المشكورة"، تعرف أنها لن تجد من يهتم لأمرها ويحبها مثله، وأنه تعرّض، بسبب الأراجوز، لكثير من مداهمات وملاحقات البوليس للأماكن التي يعمل بها، ينجو منها بأعجوبة، لكنه، على الرغم من كل ذلك، لم يفِ بالشرط الذي اشترطته عليه عند الزواج، ظلت تصارع أصواتًا تسمعها وحدها، أصواتًا ناقمة على البيه، رضوان بيه هو الوحيد الذي كان بإمكانه مواجهة مدكور وإيقاع الهزيمة به إن أراد، غير أنه أراد فقط أن يحافظ على مكانته وهيبته، حتى لو عنى ذلك أن يدينها ويسجنها، بل بلغ به حرصه على نفسه أن يحرمها كذلك من "جميلة"، صديقتها المقرّبة، خوفًا من تسرّب الخبر، تصارع أصواتًا ناقمة

أيضًا على جميلة، "كيف لم يخبرها قلبها أنني ما زلت حيّة؟! لماذا لم تبحث عني؟!" تهمس لنفسها بأسئلة وهذيانات لم تبرأ منها إلا اليوم، عندما عرفت بأمر الحمل الذي تشعر بأنه سينسيها ما فات ويصالحها مع نفسها ومع الآخرين، تفكر الآن بالعودة لبيت العائلة، ستعتذر لهم لأنها تركتهم يحزنون على موتها الوهمي، ستقول أيضًا إنه لم يكن لديها خيار آخر، ستذهب إلى جميلة وتنعم بالحديث معها كما في السابق، وقبل كل ذلك ستخبر متولي عن طفلهما، فقط بعد لحظات، فبعدما سمعت فتح البوابة في الأسفل أسرعت بفتح باب المقعد فظهر متولي:

- لسه صاحية يا مولاتي!! يقول بوجوم.

- عاملة لك حتة دين مفاجأة! ترد بفرح، فيتنهد طويلاً ثم يقول:

- يظهر دي ليلة المفاجآت.

- إنت كمان عندك مفاجأة؟ طيب قول. ولا استنّى. أنا يا سيدي عاملة لك أكلة بتحبها. حزر فزر.

- دي المفاجأة! يا شيخة وقّعتي قلبي.

- لأ مش دي المفاجأة. سلامة قلبك يا مولانا. قول يلا مفاجأتك.

- لأ قولي إنتي الأول.

- أبدًا. لازم إنت الأول.

- الأحسن إنتي الأول.

- لأ مش ممكن. بص خلاص. كل واحد فينا يكتب ورقة ويديها للتاني. واللي يشقط ورقته الأول يبقى حظه. خلاص؟

- خلاص. أحسن برضه. ساعات الكلام ...

تلتقط قلمًا وورقة تقسمها بأسنانها نصفين وتناوله نصفه مبتسمة: - خد.

يسند كل منهما على حرف من المائدة، وتكتب هي أولًا، ثم تعطيه القلم، وبعدما يكتب يبدأ كل منهما في طي ورقته ثم يلقي بها إلى الآخر، يفتح كلٌ ورقته على عجل، يبتسم متولّي ثم يكتم فرحته وينظر، بقلق، نحو ليلى التي تضغط الورقة في كفها.

حسنين

- المدنة والقبّة أهم حاجة. وبعدين نبقى نشوف المضيفة.

يشير الخولي حسنين بيده للبنّاء الشاب مفتول العضلات الذي فرش "المونة" على الأرض، وشرع يخطط حدودًا تبدأ من العتبة، وتنتهي بالضريح الذي تظلله شجرة "ذقن الباشا" أو "اللبخ"، وهي شجرة عتيقة يذكر أبناء الدرب أنها عاصرت نصير الدين بيه البلبيسي، الذي كان رجلاً عظيمًا وقويًا ومهيبًا، امتلك أطيانًا وثرواتٍ وزوجات عديدات، عدا أنه كان مثل أبيه وجده وجد جده، يجيد الحرث ولا يجيد البذر، يزفر حسنين ساخرًا، أنجب بناتٍ كثيرات، عدا أنه لم يُرزق إلا بولدين اثنين: "نعمان ورضوان" ثم جاءه حفيد واحد "فارس أفندي"، تضرب الشجرة بجذورها عميقًا منذ أرسل نصير الدين المراسيل ليأتي بشتلتها، بعد أن مات ولده البكري "نعمان" بضربة

شمس، فيما كانت أمّه مشغولة، تلت وتعجن خبيز العيد، ولم تنتبه للصغير الذي تعلقت عيناه بعينيّ قط صغير كامل البياض كالثلج، ذي عينين سماويتي اللون، استدرجتا الولد "نعمان" فتبعهما خطوة بخطوة وصولاً إلى الأرض الخلاء العارية، تحت وطأة شمس بؤونة التي لا ترحم، بعد أن دفن ولده استقدم نصير الدين من بلد في طرف آسيا الجنوبي شتلة، ستصبح شجرة ضخمة، فروعها كثيرة الانتشار، تجعل قمتها شاسعة ظليلة، وأزهارها صفراء مخضرة، تبرز منها الأقلام بشكل واضح مكوّنة عنقودًا يشبه الذقن أو اللحية، كما تجتمع في نوارات إبطية متدلية ذات عبير آسر، غرس نصير الدين الشتلة في نفس الموضع الذي وجد فيه ولده يُحتضر، وجعل بالقرب منها سبيلاً للعابرين يشرب منه الغادي والرائح، لكي لا تتكرر المأساة مع شخص آخر، ويكفّر بذلك عن ذنبه تجاه ولد لم ير الدنيا، لكن شجرته صارت بعد أكثر من نصف قرن دعامة أساسية يبني عليها حسنين حلمه، بينما يراقب حركة البنّاء الشاب، ثم يتراجع خطوات ليشاهد، من مسافة أبعد، موقع المقام في خريطة الدرب، يتنهد بارتياح لكونه يشرف على الديار التي تقع في خلفيتها الحقول الشرقية، كما لكون الواقف عند محكمة بلبيس ستقع المئذنة في مرمى بصره، تلسعه حرارة الشمس فيعود ليستظل بذقن الباشا فيما تداعبه خيالات البرَكة التي ستعم على البلد من وجود مقام للولي

سيدي رضوان بيه يقصده الخلق من كل حد وصوب، للزيارة والدعاء والتبرك وتقديم النذور، ويغريه اتساع المكان بالتفكير في تشييد مضيفتين لا واحدة، الكبيرة يجتمع فيها الرجال في المناسبات الدينية للاحتفال واستقبال الذاكرين والمدّاحين، والصغيرة ليستقبل فيها الشيخ "مبروك" العشَّاب المرضى نهارًا، لعلاج الحساسية والفطور والالتهابات بمسحوق بذور اللبخ، والإبراء من البرص والجذام بزيوت هذه البذور الثمينة، إضافة لعلمه الوفير بالرقى لكل أنواع الألم، يفكر أيضًا بتجديد السبيل بثلاثة شبابيك وفوهات سخيّة، حتى يكون زائر الدرب بمنجاة من الظمأ، وتزيينه بالرخام ونقش الآيات القرآنية على جدرانه، لكي يسرح عيال السوالمة حواليه، يبيعون السبح والمصاحف الصغيرة والبخور، ويعودون بالنفع على أهاليهم، وتُبعث الحياة في الدرب المنسي، بتمهيد طريق واسع تحفه الشجيرات بطول الطريق من محكمة بلبيس إلى المقام.

- قول إن شالله وبلاش تقاطع يا ابن بهانة. يتمتم، ويجفف عرقه ممتنًا لكل شيء يمضي كما لو أنه مرسوم بدقّة لصالحه، فطالما فكّر أن لحظة موت البيه ستلقي به إلى مصير مجهول، وإذا بهذه "الموتة المسخرة" ترسّخ قدميه بقوة في جنّة رضوان، إنها عطية الرزّاق للعبد لله، يتمتم، فبإرادته وحده أن يصبح حسنين ابن بهانة مؤتمنًا على سر

البيه، قابضًا على عنق "الكوتوموتو" فارس أفندي: يمين يمين.. شمال شمال، ولو أنه يعرف أنه لا يحبه، تشي بذلك نظراته رغم تهذيب الأفندية الذي يمنعه من التصريح، حسنين أيضًا لا يحب فارس، لا يحب الأفندية "بتوع المدارس" الذين لا يهتمون إلا بمظهرهم، ويتصوّرون أنهم يفهمون كل شيء، ويغترون بأنفسهم، لذا يتسرب إليه القلق من أن تأخذ الأفندي العِزة فيحاول أن يفسد خطته.

- مش معقول. هو مش قد الجُرسة.

لو عانده، لن يقف مكتوف اليدين، بل سيدافع بكل الطرق عن الفرصة التي منحه الله إياها، إنها بداية جديدة ولا بدّ أن تكون الكلمة كلمته، لن يأخذ على قفاه من الابن مثلما كان يفعل به الأب، فهو يعرف كل شيء، بينما الابن لا يعرف أي شيء، وهو يستحق لأنه يعرف، يعرف ويفعل، وفعل سابقًا الكثير بينما الابن لم يتعب في شيء، كل ما يريده الابن هو أن يعيش مثلما عاش في كنف الأب، بينما "حسنين" وحده يعرف كيف يمكن تحقيق ذلك، ولهذا يستحق أن تكون الكلمة كلمته، لا بدّ من وضع النقاط فوق الحروف، "وليرتَاح الأفندي في شارع محمد علي حيث يحب أن يكون، يبرطع في الكباريهات أو يتسكع بين المقاهي والمسارح.. لا شغلة ولا مشغلة،

ويكفي أن يأتي كل فترة للاطمئنان على الأحوال، أو يبقى هناك ويذهب له حسنين بالإيراد"، يحدّث نفسه، فإن لم يفهم، إن لم يذعن سيهدّده بإخبار السوالم بكل شيء عن البيه، وما أكثر ما لا يعرفه الابن، ستكون صدمته في أبيه عظيمة، يأمل ألا يصل الأمر لهذا الحد. يترحّم على البيه فينقبض صدره وهو يتذكر منظره الأخير، على المقعد الخلفي للأوتومبيل، ثم وهو يسكب الماء فوق جثته ويعطّره بماء الورد، ثم وهو يكاد يختنق بالرائحة التي تعاود التسرب من بين طيات الكفن. يتنهد ثم يصيح:

- هييه!! دنيا.

ويتذكر الرهبة التي اكتنفته عندما رأى البيه لأول مرة، اهتزت دواخله بما يفوق لحظة قبض عليه الغفر، وهو يتسلق سياج الحديقة ليسرق السراية، "عدموه العافية ضربًا". لكن طلّة البيه كانت أكثر تأثيرًا، كان شابًا "في عزّه" وسيمًا، مهيبًا، قليل الكلام:

- ما يقع إلا الشاطر يااا...

قالها بعد نظرة متفحصة لحسنين - الذي فرد هامته رغم إعيائه إجلالاً للبيه - لقدميه، كفيه، طوله، عرضه، نظرة عينيه.

- خدامك حسنين.

همس للبيه الذي سيصبح صاحب فضل يغرقه من "ساسه لراسه"، فبدلاً من أن يقدّمه للشرطة عفا عنه، أطعمه وكساه ثم منحه عملًا، لا يتذكر عدد المرات التي قبّل فيها، في تلك اللحظة، يد البيه، لكنه سيفهم على الفور فيما أن هذا الرجل العظيم اصطفاه ليكون ذراعه اليمنى.

- ويا زين ما اخترت يا سيدي البيه.

يتمم حسنين بفخر، فمن جهة أسهمت غلظة حسنين التي لا يختلف عليها اثنان في ترسيخ دوره نكولي للعزبة، يُشرف على العمل اليومي، بينما يبقى وجه البيه نائيًا ومضيئًا، ويداه إحداهما رادعة لأعداء السوالمة، والأخرى محسنة بيضاء لأهاليها، يتكفّل بالمداحين في الليالي المفترجة، ويوزّع الذبائح عليهم في المواسم والأعياد، فيتلقى الدعوات من قوم لا يفهمون أن هذا السخاء "من دقنه وافتل له"، يتمم حسنين ضاحكًا، ويتذكر كيف كان يقوم بمعاقبة من يكسل أو يقصر بالعقاب المناسب، وكيف تقبّل البغض الذي ناله من الأهالي جرّاء هذا الدور بلا مبالاة، في النهاية يحصل الجبايات للسلطة ثم يجمع صافي الإيراد ويضعه في حجر البيه، ومن جهة أخرى كان البيه ضامنًا لولائه التام له بعد أن أنقذه من السجن ومن الفقر والضياع في حياة بلا معنى أو

هدف، حد الترحيب بأن يكون يد البيه الخفية الباطشة بمن يحاول التمرد أو تأليب أهالي الدرب عليه، يفعل ذلك عن طيب خاطر، بل يفتدي بروحه الرجل الذي منحه حياة ما كان ليحلم بها، فقد صار لديه بيت وزوجة وابن يعدّه ليكون امتدادًا له، ويفكر بمستقبله وهو يشحذ طموحات الشيخ دياب إمام المسجد والشيخ سالم كبير السوالمة طوال الليلة الفائتة، بخصوص المقام وما سيضيفه إلى الدرب، يضحك وهو يفكر بما قاله الشيخ دياب عن أن البيه في موته سيكون أكثر كرمًا منه في حياته، يثق حسنين بأن البخل ليس إحدى صفات البيه، بل كان رجلاً يعرف متى يقطر ومتى يغدق، وأين يضع القرش ليعود إليه بآخر.

- شأن كل العظماء.

يفكر، ثم يمصمص شفتيه أسفًا على الرجل الذي راح "في شربة مية"، رغم هيبته وقوة شخصيته واعتداده بنفسه، وكل خصاله التي يرجعها إلى النباهة التي اختصه الله بها، والتي يحسده عليها حسنين، إذ لا يفوته شيء، يقرأ ويتابع الأحداث ويكتشف الفرص، يجيد الإصغاء لما يقال فيُلم بما يجري، حتى لو "دبّة النملة" لا بدّ أن يعرفها، ويبني عليها ما هو آتٍ ويستعد له، فمنه أدرك حسنين أن من يعرف يحكم ويتحكم.

- مش عارف تشوف لك سكة تسهل بها الأمور في البنك الزراعي؟

يضع حسنين وجهه في الأرض، بينما يفتح البيه محفظته ويعطيه المال لأجل الموظف "الفلاني"، يأخذ حسنين المال ولا يقول للبيه إنه حاول من قبل مع هذا الرجل "المتعنطظ"، وفشلت محاولاته، لكنه يفاجأ به يقبل هذه المرة، وينفّذ ما أراده البيه، ولكن كيف عرف البيه بأن الرجل معذور في "جهاز" ابنته العروس، إلى حد قبول ما يعتبره رشوة؟ لا يمتلك الشجاعة لسؤال البيه، فقط يزداد إعجابًا به، ويبذل جهودًا مضنية لكي لا يشخبط أحد موظفي البلدية فوق أوراقه، فتجري مياه النيل بعيدًا عن أراضي الدرب، فضلاً عن شجاعته في اتخاذ القرارات الضرورية مهما كانت مؤلمة:

- بيدي لا بيد عمرو، خليها بجميلة أحسن.

قالها عندما تبرّع بنصف المحصول لسلطة الاحتلال في أثناء الحرب، ردوا له الجميل بعد الحرب بما عوّضه وزيادة، أما غيره من أصحاب الأطيان، ممن لم تواتهم الشجاعة لاتخاذ مثل هذا القرار الصعب، فقد ولولوا فيما بعد عندما أجهزت عليهم السلطة وأخذت غصبًا ما تريد، لهذا يقر الجميع بعظمة البيه وقوته، على أن أحدًا لم يعرف ضعفه واضطرابه، أو ارتعاشة الخوف في صوته سوى حسنين، الذي يستشعر ذلك بينما البيه يؤنبه:

- مش عارف تأدب شوية فلاحين مقملين مافيهومش واحد بيعرف يفك الخطّ؟!

على الفور يكون حسنين جاهزًا بالحل السحري، فهناك كشوف الجهادية أو فرق مكافحة الجراد أو مواجهة الفيضان أو الأوبئة، يملي على موظف المركز، بعد الاتفاق مع سالم الكبير، أسماء من يثير الفتن من شباب السوالمة ضد البيه، ليضعهم في مقدمتها، لكن الأمر استفحل في السنوات الأخيرة، خاصة بعد الجرأة التي أشاعها استغلال فلاحي بعض القرى والعِزب ثورة الأفندية ضد الإنجليز، فقاموا بمهاجمة المزارع الكبيرة، وتخريب ممتلكات الأعيان، وفي مناطق أخرى استولوا على الأرض موجّهين انقلابهم ضد الإنجليز والأعيان معًا، وهذا ما لم يسمح حسنين قط بحدوثه لرضوان بيه، يضع أمامهم الجرانيل ليريهم صور القرى التي أحرقها جنود الإنجليز ولم يتركوها إلا بعد أن تحوّلت لكومة رماد، والأخرى التي لم يتورعوا عن ضربها بالطائرات جرّاء تمردها، وإذا لم يشعر بأن هذا كافٍ، فإنه لا يجد مناصًا من إعادة المقاطيع - الذين هجروا الجبل منذ سنوات، مات من مات وسافر من سافر - إلى الوجود، ليقوموا بسرقة رأسين من المواشي، أو نهب قنطار قطن، أو إردب قمح، أو إشعال نار محدودة، فيما يكون الغفر متأهبين لاستعادة ما سرق أو لإطفاء النار دون خسائر كبيرة، وسرعان ما

يتحوّل صراخ الفلاحات لأدعية للبيه حامي الزرع والضرع والأنفس من أعداء السوالمة، بينما يسرع بالاختفاء "ابن بهلول" دون أن يراه.

- غيرش التور "ابن بهلول" فلتت منه في المرة الأخرانية.

عجز الغفر عن تحجيم الحريق، وبينما يعدو ابن بهلول ليلحق بالقطار، ليعود إلى رفاقه الأوباش في تخوم القاهرة، كان الجُرن بما فيه ومن فيه قد انتهى.

- حد كان قال للأفندي يرمي مرته حدا أهلها في الليلة الغبرا دي!

يضرب كفًا بكف. ما زال قلبه يوجعه كلما تذكّر ما أصاب "قدرية" بنت أبي سماعين.

- صغيرة، ويادوبها كام شهر جواز. والمصيبة طلعت حبلى كمان.

- حد كان قال لها تنعس في الجرن! موتتها، هنعمل إيه! مقدر ومكتوب.

كانت غضبة البيه عليه كبيرة، صفعه على وجهه بكل عزمه، صفعات متلاحقة يمينًا ويسارًا، أوقعت إحداها سنه، فاضطر أن يخترع حدوتة للست "اعتماد" عن غشم عسكري البوليس الذي ظنه شخصًا

آخر محترف إجرام. ولم يقل لها إن حمرة عينيه سببها البكاء، لشعوره بالمهانة، لكنه عاد وأرجع الخطأ لنفسه وجريرته التي استفزّت البيه وأخرجته عن اتزانه المعهود.

- معذور البيه. لكنها ما كانت لتفهم. يتمتم. ثم يقرأ الفاتحة على روح الفقيد ويمسح وجهه بكفيه.

من بعد الحريق، يتذكر، ظهرت في نصف وجه البيه الأيمن رعشة يعجز عن التحكم بها، ذهب إلى الطبيب إرضاء لزوجاته، عدا أنه كان يعرف أن داءه ليس له دواء لديه، هذه الرعشة والحزن الذي صاحبها غيَّرا سلوكه، فصار يميل للوحدة، لكنهما لم يؤثرا في نباهته ولم ينالا من هيبته، كذلك انسياقه للعب الورق لم يُقلق حسنين الذي يتفهّم سعيه للباشوية وما يبذله لأجلها من حرص على العلاقات والمجاملات لذوي النفوذ والمقربين من ملك البلاد، أحس باهتزاز هيبته فقط عندما نعقت أم قويق:

- خيبة بالويبة على العجَز وسنينه!

تمنّى لو لم يصعد، لو لم يدق الباب ليسأل عن البيه، بعدما تأخر عليه فتفتح له هذه المرأة شبه العارية، فيضطر لخفض رأسه عن لحمها:

- لا مؤاخذة يا ست، البيه كان مديني ميعاد،

شهقت شهقة بذيئة:

- نايم ياخويا بيشخّر جوّه، خيبة على قال إيه،، الرجالة!!

أحس بالغيرة على هيبة البيه، وكرهه في هذه اللحظة، لأنه أهانها بنفسه، داسها ومرغها في الوحل، يسير بجواره صامتاً طوال الطريق، عدا أن التساؤل لم يكف عن التردد داخله:

- ما الذي أعجبه في أم قويق هذه؟ ما الذي يبحث عنه؟

يعرفه متطلبًا، ذا ذوقٍ عالٍ، لا يرضى بأي شيء والسلام، فما الذي جرى؟

يبدو البيه شاردًا وعجوزًا، كما لو كبر عشرين عامًا في أثناء ساعة أم قويق هذه، لو كانت معه "اعتماد" في هذه اللحظة لشخرت:

- هو الراجل ده عاملك عمل!

تعرف أنه يحبّه ويجله، رغم الإهانات التي يتلقّاها منه، بين الحين والآخر، ولا تتورّع عن المبالغة:

- يا راجل ده لو عيل من عيالك مش هتحمل همه كده!

يغار حسنين على هيبة البيه، يعرف أنه يقدّر قيمة الحياة ويحب الفرفشة: ساعة لعقلك وساعة لقلبك.. ضحك، شراب، نساء، لكن ذوقه لم ينحط إلى هذا المستوى من قبل، فلديه زوجتان يشهد بجمالهما كل الناس، أكابرهم وبسطاؤهم، ومع ذلك كان حسنين يتفهم حاجته إلى امرأة، "خليلة" عابرة تروِّح عنه من آن لآخر، إلى مغامرة تشحذ همته وفحولته، وتحفز قدراته على التحدي، على النصر والظفر، عدا أنّه ظنّه توقّف، كان يجب أن يتوقّف مع بلوغه هذا العمر بدلاً من أن يلقى وجه ربه عاريًا مفضوحًا، هذا ما لم يخطر ببال حسنين.

كان يغار أيضًا على ماله إن أغدق على الفلاحين مرة:

- دول بقر ما يستاهلوش سعادتك.

كل مرة يقولها كان يكتشف بعدها قصر نظره، وعى الدرس بعد ذلك، وأدرك أن البيه لا تأخذه نوبات الكرِم إلا عندما تكون بورصة القطن في ارتفاع، أو يكون تعرف على تاجر جديد يأخذه بسعر أعلى، لم تأخذ حسنين الشفقة يومًا بالفلاحين، فهم في نظره أنفار، سخّرهم الله لخدمة الرجل العظيم، لأن الدنيا كما يراها "ناس فوق وناس تحت"، هو

يعرف أن سالم الكبير نفسه يقر بهذا الناموس، وإلا لما غضّ الطرف عن أي عقاب يوقعه البيه "بيد حسنين" على من يتمرّد.

ظلال ذقن الباشا لم تخفف كثيرًا من حرارة بؤونة، ولم توقف سيول العرق المفروز فوق وجه حسنين، وعلى جلبابه من تحت الإبطين، ومن رقبته تنحدر فوق ساقيه، انتبه على صوت البنّاء الشاب وهو يدكّ الأرض ليمهّدها:

- الأرض ناشفة. يكونش جدر السجرة؟
- لغاية عندك! مش معقول يا راجل!
- هه. هتعوز حاجة؟ شوية وراجعلك
- سايق عليك النبي يا سي حسنين تشيعلي حبة شاي.
- جيت في جمل يا خي!

سار حسنين خمس خطوات، أو خمسين خطوة، لن يتذكّر، لأنه سيقطع باقي الطريق هرولة، بعد أن أحس بلدغة النحلة في كفه اليمنى، وعندما رفع كفه اليسرى ليصفعها وجدهما اثنتين، وبينما يهشهما اخترق الأزيز المروع أذنيه، وبلغ أعماق دماغه، وجعله يجري تلاحقه دوامات من أسراب النحل. لن يكون بمقدور أبناء السوالم نسيان هذا

اليوم الذي لم يفرّق فيه النحل بين ضحاياه، رضيع في شهره الأول، أو شيخ في عقده الثامن، امرأة تنسكب من طنجرتها حبّات الدريسة فوق رءوس الفراخ، رجل يفلت منه فأسه ويسقط فوق قدمه، كهل يقاوم حتى لا يترك الصلاة، لكنه في النهاية يخرج مهرولاً صارخًا، حتى في السراية اضطروا لإغلاق الأبواب والشبابيك وأسدلوا الستائر، وأنفقوا الوقت في ملاحقة العدد القليل الذي تمكن من الدخول رغم كل احترازهم، وبقي المعزّون -الذين لحسن الحظ لم يكن بينهم غرباء- مسمّرين فوق الكنب، حتى منتصف الليل، فيما وصل حسنين بيته منهكًا وقد تورّم وجهه وكفيه ومناطق كثيرة بجسمه مع احمرار مريع، حكت الست "اعتماد" زوجته أنه فقد وعيه ثم استعاده عدّة مرات، وأنها رقعت بالصوت أكثر من مرة، كما أنه ذكر في إحدى هلوساته اسم البنّاء الشاب، تذكر بعد أن أفاق أنه فكر بأمره وهو يهرول، لكنه لم يقدر على الالتفات إلى الوراء، رجل آخر من السوالم سيكون هو الشاهد على مصير ذلك الشاب، فقد حكى أنه رأى وهو يجري كتلة نحلية متحركة تنتفض ببطء على الأرض، لم يدرك إلا متأخرًا أنها البنّاء الشاب وقد غطّاه النحل تمامًا من رأسه حتى قدميه، عقابًا له على زلزلة عرش مملكة النحل المستقرّة منذ سنوات طويلة في الجذع المتين لذقن

الباشا، في الصباح لن يجدوا البنّاء ولا جثّته، بل مزقا ونسائل تركها النحل بعد أن دعا ضيوفًا شتى إلى وليمة.. من اللحم الآدمي.

فارس٣

طلع النهار على السوالمة، وهم لا يصدقون أن غزوة النحل قد انتهت، وأنهم نجوا، عدا قلة ما زالت تعاني إصابات متفاوتة، وفي طريقها للتعافي. ترك فارس شفاعة تصغي لحكايات أختي البنت "قمر" عما جرى، ووقف يرقب من شباك السراية حركة الحياة تشدّ خطاها في الدرب، في اليوم الثالث والأخير لعزاء البيه، عدا أن اليوم سيشهد جنازة أخرى ومأتمًا للبنّاء الشاب ابن "كفر مرزوق" الذي أتي أهله قبل قليل، ولملموا نتف "جثمانه". يحس فارس بالذنب تجاه الشاب المتوفى الذي راح ضحية مقام البيه، أو مطامع حسنين، ومن أجل هذا يحتسي كوب شاي ثقيلا "يوزن الدماغ" استعدادًا للقاء حسنين، كي لا ينعس قبل أن يقول له ما لديه، فقد قضى الليل متيقّظًا، يعصر شفاعة كي تخبره بما لا يعرفه عن مبارز بعد أن صاحت:

- ابعد عن ابن مبارز.

نفس ما تقوله كلما أتت سيرته، كررته ليلة أمس عندما قال فارس إنه يريد أن ينزل القاهرة ليصفّي حسابه مع ابن مبارز، عدا أنها هذه المرة أضافت:

- يا عالِم مين الظالم ومين المظلوم.

تُلمح إليه كمجني عليه لا كجانٍ، تسبب في موت أبيه وأخته ليلى من قبله، لا كمجرم هارب من العدالة انتحل شخصية فارس وسرق بدلته وطربوشه، وجعله يقضي ليلة "ما يعلم بها إلا ربنا" في الحجز.

- يا عالِم؟!

أليس أبوه مبارز هو الذي طارد فارس وهو طفل صغير، ودفعه نحو قضبان السكة الحديد؟ ألم يخفي إنذار القطار من أجل قتله؟ ألم يتسبب في دهم القطار لعنزته؟

شفاعة ليست غبية، كما أن فارس يثق أنها تحبه تمامًا كابنها، فلماذا تتكلم بإشفاق عن هذا الرجل وعن ابنه؟!

في إحدى ليالي "كياك" الباردة، تسلل عقرب صغير إلى فراش "رية" هانم، بنت نصير الدين، فهرول شاب، صغير هو الآخر، حاملاً مخلاة شيخ من الرفاعية سيمرر حجراً فوق كعبها، ثم يشير للصبي الذي سينحني فوقه بشفتيه متفانيًا في شفط السم من كعبها، إلى حد ابتلاع قدر منه، ما اضطر الهانم إلى معاونة الشيخ طوال الليل في مداواته، حتى اطمأنا لتعافيه، بعد أسابيع، في ليلة ممطرة من ليالي "طوبة" اقتحم الغفر دار هذا الشاب، الذي يُدعى "مبارز"، وصاح أحدهم: حراامي، وهو يلوح بإسورة ذهبية ادّعى أنه اكتشفها بين طيات الثياب في سحارة قديمة بأحد أركان الدار، بينما أمعن الآخران في تقييد مبارز "الحرامي" -الذي راح يحدّق في الإسورة مذهولًا- ثم في اقتياده إلى مركز بوليس بلبيس.

ما حدث خلال كياك وطوبة، يصعب التيقّن منه، خاصة أن شفاعة لم ترَ "رية" سوى مرة واحدة، في عُرس إحدى بنات السوالمة، دعاها لحضوره الولد مبارز، أتت متلفعة في إزار أسود اللون لامعه، تتذكرها شفاعة كامرأة لم يغادرها وهج الشباب بعد، لم يُمحِنِ الزمن قامتها المديدة ولا نال من لمعة عينيها الجسورتين، أو لسانها المتعجرف، تجمع بين قوة البأس والأسى العميق الذي سكنها بعد عراك دام سنوات مع مرض زوجها، الذي تحبه أكثر من روحها، انتهى بموته تاركًا لها ثروة

طائلة دون ابن تستند عليه، ولهذا اضطرت للعودة للسراي التي أجمع من خدموا بها من نساء السوالمة على أن التفاهم بين رية وزوجة أخيها "صافيناز هانم" كان أندر من الكبريت الأحمر، كثر الكلام بعد تلك الليلة، فسمعت شفاعة أن الهانم لبّت دعوات نساء السوالمة، فأكلت عند هذه وشربت عند تلك، ووجدت ونسًا تفتقده في السراية، حتى إنها عزمت أن تجعل من الدرب جنة - بتشييد مستشفى كبير، ومدرسة ابتدائية تتبع نظارة المعارف، وبيوت جديدة آمنة للفلاحين- ولأن شفاعة من أولئك البشر الذي لا يأمنون للفرح، فقد لعب الفأر في "عِبّها"، ولم يهدئه ما قيل عن أن الهانم التي حفظت قدماها طريق الدرب، أخذت هذا القرار تأثرًا بموت الشابة السوالمية التي حضرت عرسها عندما انثال الدم من بين ساقيها، ولم يجد أهلها وسيلة لنقلها بالسرعة اللازمة لمستشفى بلبيس، تأثرًا أيضًا بمنظر بيوت الطين المعرّشة بالبوص الذي يسرّب مياه المطر فوق النائمين، فيصاب بعضهم بداء الرئة، بمشهد الأطفال شديدي الذكاء الذين يهرولون حفاة في الطرقات دون مدرسة تؤهلهم ليشبوا أفضل حالاً من أهاليهم، فقررت أن تنفق من الثروة التي لا وريث لها على الدرب، زاد الفأر من لعبه في "عِبّ" شفاعة بعد ما رأته من استبشار في وجوه السوالمة، الذين بدّلوا وضع رية من هانم إلى شيخة: الشيخة رية عملت، الشيخة رية سوت، إلى أن

جمعهم سالم الكبير ليؤكد أن الهانم رية "مخها خفيف حبّتين" وعليهم أن يغلقوا أبوابهم في وجهها، ويقطعوا رجلها من الدرب، لأن جنونها يثير غضب البيه، وستكون له عواقب وخيمة، تزامن ذلك مع حكي الخدم -والله أعلم بصحته من عدمها- عن مشاجرات اشتعلت في السراية، عندما اعترض البيه على خروج رية وسلوكها "الأهوج"، فكان رد فعلها هو مطالبته بحقها في إرث أبيها، عند هذا الحد توقّف السوالمة عن الحلم وانتظروا الكابوس، فأرض نصير الدين كانت مرهونة للصراف باشي عند موته، فوجد رضوان نفسه مفلسًا ولم يسترد ثروة أبيه ومكانته، إلا بكدّه وشقائه، فيما كانت رية هانم تتثاءب في فراش زوجيتها، لهذا أتي عِقاب البيه لأخته "بحبسها ومنع الزائرين عنها" مفهومًا، رغم قسوته، عدا أنهم استنكروا تلفيق التهمة للولد مبارز المعروف بيده النظيفة، ثم عادوا وعذروا البيه ثانية بعدما تردد "والله أعلم" عن تجرؤ الولد على تسلق أسوار السراية كل ليلة، والتسلل لرؤية أخت البيه من بين قضبان شباك محبسها، فهذا كان بعرفهم جريمة تفوق السرقة نفسها.

- مالنا والسراية وأهل السراية؟ لا هم من توبنا ولا إحنا من توبهم.

يقول سالم الكبير ويؤمن رجال السوالمة بحركة شواربهم العريضة عليه.

قيل إن رية قدّمت بعد ليلة العقرب مبلغًا من المال لمبارز، فرفضه، وأن تأثرها بنخوة الشاب الصغير هو الذي جعلها تتخلّى عن تعجرفها وجرّ رجلها إلى الدرب، قيل أيضًا إن مكر الولد جعله يرفض مبلغًا من المال، طمعًا في جرجرة العجوز الوحيدة إلى إنفاق ثروتها عليه هو وأمه "فقد اشترت لأمه سريرًا نحاسيًا بناموسية من التل الأبيض واشترت له إبريقًا من الفضة و..."

المؤكد أن مبارز هرب في أثناء ترحيله من قسم بلبيس إلى سجن الزقازيق، لكنه لم يعد لقوم تخلّوا عنه، بل هجّ ليحتمي بالجبل من مطاردة البوليس، ثم تسلل في إحدى الليالي وفي يده شابة من الغجر، قال لأمه إنها زوجته، وقيل إنهما كانا ينحدران من الجبل كل عدّة أيام، ويتسللا لرؤية رية التي باركت هذا الزواج، وأن البيه أوصى الغفر بإطلاق النار عليهما، لكنهما كانا محظوظين بالنجاة، عدا أنهما اضطرا للامتناع عن زيارة رية التي، قبيل انتهاء أمشير بزعابيبه الكثيرة، كانت قد تركت لرضوان الجمل بما حمل، وكانت "خرجتها" مهيبة.. "من يرى مقدّمة الجنازة يعجز عن رؤية مؤخرتها" استردّت فيها وضعها كامرأة صالحة منصفة للغلابة، وذهبت إلى النسيان الهائم المتعجرفة، والأخرى المجنونة، التي اختلقها البيه، وما زال السوالمة يقرأون لها الفاتحة ويغرسون عند قبرها الريحان والصبار، حمّل مبارز البيه مسئولية موت

رية مقهورة وذليلة، وكذلك تشرده هو وزوجته الغجرية التي ماتت متأثرة بحمى النفاث، في أثناء مطاردات البوليس لسكان الجبل، وتركت رضيعها الذي أتى بوجه يشبه تمامًا وجه رية، قيل إنها توحمت على ملامح رية الأرستقراطية الحادة، وقيل أيضًا كلامٌ كثيرٌ عن السحر، ولكن من سحر من؟ لا أحد يعلم، قيل إن الغجرية ظلت تتحول شيئًا فشيئًا حتى صارت صورة طبق الأصل من رية "في شبابها"، قيل أيضًا إن سحر رية لمبارز هو الذي ربطه بها، وجعله يراها، ولا يرى الغجرية، فأتى ولده يشبهها، كما ذهب البعض إلى أن مبارز هو الذي سحرها بعنفوان شبابه وأخرجها من ثوبها وجِلدها، فغضب البيه عليها، حتى ماتت.

هل حاول مبارز بعد ذلك الانتقام من البيه فقتله الغفر؟ الحقيقة مدفونة مع "عضم التُرَب". أنهت شفاعة حكايتها بتنهيدة طويلة ثم قالت:

- ابن مبارز مش عدوك. والتار كان تاره مش تارك.

تمصمص شفتيها:

- راحوا كلهم. مبارز ورية وليلى وأبوك.. ربنا يرحم الجميع. سلّم أمرك لله يا ولدي. لو سألت عضم الترب هيقولك.. مفيش حق بيضيع عند اللي خلقك.

يستحضر من ذاكرته ملامح ابن مبارز، ويتذكر الخوف الذي عايشه بسببه ثم بغيظ:

- كدب كدب. يتردد صدى الكلمة في أعماقه.

يعاود النظر إلى شفاعة فيراها ساهمة، فيمَ تفكر؟ أثمة تخاريف أخرى ضحكوا عليها نساء السوالمة وأودعوها دماغها؟!

أكمل فارس الليلة يفكر، حتى استقر على ما سيبلغ به حسنين، فالبيه لم يعد موجودًا ليهنأ هو بالراحة اتكالاً على قراراته، حتى لو أوجعه بعضها، فإلقاء اللائمة على الغير مريح للدماغ، كما أن لدور "الضحية" لذته، انتهى كل ذلك والآن عليه وحده أن يتخذ القرار، ولن تفلح نظرة أمه المتوسلة -التي تضعفه فينصاع لها دون تفكير- في إثنائه عما نوى:

- ربنا عايز كده وأكيد له حكمة. نصيب أبوك يتعمل منه ولي. حتى لو.. مش حقيقي.

- هنضحك على ربنا يا أمي!

- أستغفر الله. ماحدش يقدر يكدب على ربنا. حسنين كدب على الناس. على يدك كان مضطر. خلاص بقى.. ما باليد حيلة.

- اضطرينا ندفنه جنب الشجرة آه. لكن مقام وهليلة لأ.. ده شغل حسنين لوحده. وأكيد لغرضٍ في نفس يعقوب.

- حسنين مش سهل. ما تصغرهوش قدام الناس. ده ممكن يعمل أي حاجة وإحنا مش قد الجُرسة. استنى على الأقل لغاية ما تستلم ميراثك وساعتها نبقى نشوف هنعمل إيه.

- أستنى لما يشيّد كل حاجة؟ وأنا هقدر أهد بعد كده!

- ما الواد البنّا راح فيها يا عيني. وحسنين نفسه مرمي والحمى وكلاه.

هل كانت ستتخذ نفس الموقف لو عرفت أن أباه مات عاريًا في فراش امرأة أخرى؟ أخبرها أنه وجده في أحد المقاهي كي لا يقسو عليها، يفكر فارس وهي تتكلم ولا يسمعها بل يسمع صيحات غضب وصرخات موجوعين، وجد نفسه بينهم في الحجز، وقضى معهم ساعات أحسّها أطول من سني عمره كله، لم يكن قلقًا جرّاء توقيفه، فموقفه القانوني يؤكّد براءته، حتى لو استغرق إثباتها يومًا أو بضعة أيام، ما استغرقه هو التفكير بموت أبيه، بانسحابه المفاجئ من حياته، بحرّية

مطلقة هبطت عليه مثل صاعقة، إنه مسئول منذ الحين، وعليه أن يكون حذرًا، إنه خائف، لا يريد أن يظلم أحدًا، لا يريد أن تلاحقه هذه الصرخات التي تعذّبه من حناجر هؤلاء الذين يشاركونه الزنزانة، إنه، أيضًا، لا يصدّق أنه لن يكون مضطرًا أن يعمل حساب أبيه في كل خطوة يخطوها بحياته، لن يكون مضطرًا لنشر مقالاته في مجلة "الفجر الجديد" باسم مستعار، ثمة ميلاد جديد لا يريد أن يلوّثه، لا يريد أن يبدأ حياته الحقيقية بكذبة، ثم إن غزوة النحل ليست عبثًا، ربما تكون رسالة، إنذارًا بلعنة تصيب من يحاول أن يجعل من رضوان البلبيسي وليًا.

على عجل يرتدي بدلته، ويضع طربوشه فوق رأسه، ويلتفت فيجدها بثوبها الأسود مستندة على الباب، ويلاحظ زيادة التورّم بشفتها السفلى، وعيناها الحمراوان تهيجان دواخله:

- عايزة حاجة يا أمي؟

قالت كلامًا كثيرًا، قالت إنه ولدها ولا يمكنه أن يكذب عليها، وإنها عرفت أن أباه لم يمت في المقهى، بل كان مع امرأة، وإنها تسامحه لأنه زوجها وتثق أنه على الرغم من كل عيوبه كان لديه جوانب طيبة، ترجو فارس أيضًا أن يسامحه، وأن يقوم بواجباته، ويزور المصابين ضحايا

غزوة النحل، كي يُطمئِن الناس بأن كل شيء سيمضي، كما كان دائمًا، على خير ما يرام.

استقبله الفضاء بدفقة هواء ساخن، بمجرد أن خرج من السراية، قطع الطريق بمحاذاة الترعة بين صفي الحقول، ثم انحنى مع درب النخيل نحو ديار الطين المعرّشة بالبوص، حيث بدأت رائحة التبن وروث البهائم تضمّخ أنفه، لم يجد شيئًا قد تغيّر من أيام طفولته، نفس الديار الصغيرة المتهالكة، بدائية مقوّمات الحياة المنذورة للشقاء التي أصابته بغصة عندما قارنها بالريف الفرنسي، والسخرية التي تملكته وهو يكرر عبارة أمه: كما كان دائمًا، على.. خير ما يرام.

- لماذا لم يشيّد البيه مدرسة لصغارهم؟ لماذا لم يؤسّس وحدة طبية؟ أو حتى يمهّد الطريق لمستشفى بلبيس؟ أوه! يفكر، على الفور سيقول أبوه لو سمعه: على الأقل لم أكن أجلدهم بالسوط كما كان يفعل الجد "نصير الدين" وأبوه وجده و....

يمشي، وبدلاً من أن يتجه نحو بيت حسنين، تأخذه قدماه إلى دغل التوت، ثم الجرن، ثم دار أبو قدرية:

- فارس أفندي جاي يتطمن عليك يا "زاهر". يقول شاب يبدو أحد أقارب زاهر أخي قدرية.

يجلس على الكنبة البلدي أمام زاهر، وعلى الحصير المفروش على الأرض، يرى مقاطف تفوح برائحة التوت، يضبط نفسه يتلفت باحثًا عن قدرية، يلمح طيفها يعبر ويختفي، إنها هناك، تطل من وراء الباب، ربما لم تمت، آه! إنها ضفائرها معلّقة على الجدران، فعلاً لم تمت، ضفائرها متدلية من السقف، ممدودة فوق الأرضية، تقب من كوب الشاي، هل يهذي؟ هل ...؟

- اتفضّل الشاي. ينتبه على صوت الشاب قريب زاهر، فيقول لزاهر:

- صحيح إنت ما جيتش تعزّيني في أبويا، بس أنا عمري ما أزعل منك. أنا جاي مادد لك إيدي.

ثمة كلام كثير قاله زاهر بعينين جاحظتين بالغضب، سيتوه فارس حتى يتوقف عند صيحته:

- عالم تقتل القتيل وتمشي في جنازته.

يتذكر أنه انتفض، في أذنيه صرير عاصفة هوجاء، ربما هي نفسها التي لفحته بالغبار ليلة ترك قدرية غاضباً، لماذا تركها؟ لماذا أكلتها النار؟ ولماذا يقول أخوها الآن هذا الكلام الحقير؟

هب واقفًا وأسرع إلى الخارج يتبعه الشاب قريب زاهر:

- جنابك ما تزعلش من زاهر برضك جرحه لسه حي. برضك معذ....

- معذور!!

هل أمسك فارس بخناقه عندما كاد ينطق بهذه الكلمة؟ أم عندما قال:

- ما هو البيه هو اللي .....

ضيق على أنفاسه:

- اخرس.

ثم تركه حتى لا يموت في يده، فيما بعد سيحمد الله أنه لم يكن قد وجد الطبنجة بعد، لكان قد فرّغ رصاصها في صدر رجل شهم تحمّله، ولم يُخرج صوتًا يلمّ به الناس على ابن البيه، ولم يذكر ما فعله به، وهما

يحتسيان الشاي، كأن شيئًا لم يحدث، في دار الشيخ "ربيع القصاص" ذي الصوت المشروخ المميز والعينين اللامعتين:

- عمر قصي ما خاب، ولا مرة خذلني.

يحدّق فارس في حاجبيّ القصاص المرفوعين وجبينه المكرمش، ولكن لماذا كان أبوه يثني على القصاص بهذا الشكل؟ لماذا لم يترك له ثغرة للشك بأن سعي القصاص قابل للخطأ وليس وحيًا منزلًا؟ وأن اكتشافه لمطابقة أثر "قدم" بهلول لأثر من أشعل الحريق تحتمل الشك؟ لماذا لم يمنحه أبوه فرصة لتبرئته من جريمة إشعال النار في الجرن، من دم قدرية؟ على أي حال فقد اعترف بهلول بعد أن أمسكوا به وهو متجه للقطار، بعد مغادرته بيت حسنين في الليلة الماضية، لم يسمع فارس اعترافه ولا يريد أن يسمعه، كما لا ينتابه شك حول شهادة هؤلاء القوم.

يمشي ويمشي، حتى في أرحم التبريرات، ربما أراد البيه تأديب السوالمة الذين تطاول عليه بعض شبابهم، ربما أراد تذكيرهم بفضله كحامٍ للبلد، ولم يقصد، بالتأكيد، قتل قدرية وجنينها، ربما.. أي شيء آخر، لكنه لعب بالنار، يحمد الله أن أباه مات في الوقت المناسب، وإلا.. لقتله زاهر بهذا الغضب الرابض في مقلتيه، الذي قد لا ينجو منه

الخولي حسنين، ولا سالم الكبير الذي اعتبره زاهر "أس البلاء" الذي يضع رقاب السوالمة "من لا يطيعه منهم" تحت سكين البيه أو سكين السلطة، سالم الكبير الذي أذعن رجال السوالمة لأمره، وتركوا بهلول بعد أن صاح: القصاص كبر واتعذر.

- ليه سكت على كده يا عم ربيع؟ يوجه قريب زاهر سؤاله للقصاص الذي يتكرمش جبينه أكثر حتى يصير كفروة خروف قدّدتها الشمس:

- أنا قلت كلمتي يا ولدي. كلمة القصاص كلمة حق. إنما الحكم من شأن الكبير.

- والنار اللي قايدة ف زاهر وماحدش حاسس بيها! والحق! سكوتك ده ظلم يا عم ربيع.

يمشي وقد أمسكت نار زاهر بتلابيبه، وهو يتذكر باقي تبرير الكبير كما سمعه من قريب زاهر:

- الواد ابن بهلول بعد الضرب اللي أكلهوله الواد زاهر والعيلين اللي معاه ده كله.. طبيعي يقول أي حاجة زاهر عايزه يقولها، واللي مش طبيعي أبدًا.. إن حد يستجري ويتهم البيه إنه يكري على حرق

الجرن، ليه؟ بقى ده رد الجميل للراجل الصالح "سيدي رضوان بيه"؟ ده يبقى فُجر واللهِ.

انكسرت عيون الرجال وسحّت دموع النساء حتى أغرقت طرحهن، وانبروا يخلصون بهلول من يدي زاهر:

- اخزي الشيطان يا ابن أبو سماعين.

- إن بعض الظن إثم ياخويا.

قذفوا بابن بهلول داخل القطار الذي أتى فيه قبل قليل، وارتفعت الأصوات تقرأ الفاتحة على روح البيه الولي الصالح.

- ظن، مجرد ظن. يقول فارس.

أم إحساس بالذنب هو الذي جعل البيه بعد موت قدرية ينقلب حاله، قالوا في السراية إن حزنه عليها فاق حزنه على ابنته "ليلى"، لحمه ودمه. ولكن من الذي جاء بسيرة مبارز؟ غرق في ذكرياته ولم يسمع بقية ما قاله قريب زاهر عن ...

- يا ابن المجرم.

هل صاح أحد؟ أم أنه يتخيّل ذلك بعد أن رفض مصاحبة الشاب الشهم قريب زاهر له؟ يخرق الصوت أذنيه، ينفذ إلى رئتيه، إلى قلبه، فتضطرب خطواته ويقع..

- الحمد لله ماحدش شافني.

ينهض فيجد بقع الطين قد لطخت البدلة، ويرى طربوشه غائصًا في الوحل

- آخ. كده البدلة باظت! مصيبة!

ماذا لو وجد في السراية الآن معزّين جُدد من معارف أبيه! المشكلة أن البدلة الداكنة الأخرى سرقها الكلب همام، ينوي استردادها منه حتى لو اضطر لضربه أو حتى.. قتله، لن يسمح له بالنجاة بفعلته، سيستردها ثم يحرقها بعد ذلك، فلا يمكنه أن يضعها فوق جسده بعد أن لبسها هذا الكلب، إذن سيحتاج بِدلا جديدة، وطربوشا، أو حياة جديدة بدلاً من هذه التي تلوثت بالدم ورائحة الرمة التي يصر الحقير حسنين على تشييد مقام فوقها وجعلها مزارًا.

- الكلب همام والحقير حسنين!! حيلك حيلك يا ابن البيه.. يا ابن جناب البيه!! المحترم! النظيف! الصالح!

ينام البيه في قبره، بينما تقتل غزوة النحل الشاب البريء ابن كفر مرزوق، يفلت البيه بينما يقف ابنه ببدلة ملطخة، وحقيقة مخزية، مفعمًا بالإحساس بأنه عارٍ.

- البس بدلة من بدل أبوك.

ستقول سعاد هانم التي لا يفرق معها شيء، ولم تفهمه يومًا، لن تفهم أنه حتى لو فقد كل ما لديه فمن المحال أن يلبس بدلة البيه، سعاد هانم التي على الرغم من طول معاناتها مع البيه فإنها اليوم تريد لفارس أن يكونه، مع بعض التعديلات، ولا يهمها ما يريده هو، لن يذهب إلى حسنين مثلما رتب طوال الليل، سيكتفي برسالة يخبره فيها بالتوقف عن هذا الهراء، وسيذهب في صباح الغد إلى شارع محمد علي، سيبحث عن همام ويسترد البدلة ويحرقها، سيحرق بدل أبيه أيضًا، ثم يذهب إلى ... جميلة، هو يثق بأنها تعرف أنها تفرض عليه شروطًا يعجز عن تحقيقها، وبأن هذا الألم الذي كشفت عنه غمغمتها أو آهتها الكتيمة هو الثمن الذي ارتضت أن تدفعه لكي تعيش بكرامة.

لماذا تعجبتَ من موقفها يا ابن رضوان؟ يسأل نفسه، ما الذي تريده منها يمانع شروطها؟ بعدما لطخك الوحل وجرائم أبيك، ما الذي

يضيرك من كلام الناس أو انتقادهم؟ أم تريد أن تبيع وتشتري فيها؟ أن تعذبها كما فعل أبوك بنسائه، وتبرّر لنفسك:

- دي طبيعتي والعرق يمد لسابع جد. مش بإيدي.

مع سوزان تسرح: لو بس غلباوية زي جميلة! لو قدرية مثقفة زي سوزان! وتلوذ بأحلامك، فتفر سوزان وتقع مأساة قدرية.. مأساتك، ألن تكف عن تجاهل ما جرى! أخفت قدرية عنك حقيقتها بينما سوزان _ التي تكتفي عيناك برؤية منديل دموعها لفراقك وتتجاهل ضمة كتفها القوية للحقيبة التي جمعت فيها كتاباتها وصورها الفوتوغرافية مع وُجهاء البلد وفي أجمل أماكنها _ فقد برأت منك وحققت طموحها وصارت جورنالجية واعدة ببلادها بينما أنت مازلت ترتجف "من أبيك أو من السلطة" وتكتب مقالاتك باسم مستعار، وتتعجب من جميلة التي تخشى أن تكون أنت وأبيك شخصًا واحدًا، شجرة واحدة، شجرة العائلة المحترمة التي تجتاح أحلامك الرومانسية، الثعبان ذي الرءوس العديدة، رءوس الأسلاف المحترمين ذوي الأيدي البيضاء بينما تلوح الأُخر بالسوط أو بالكمبيالات، جامعي الثروات والزوجات، ما الفرق بينك وبينهم؟ في الغالب كان رضوان البلبيسي يبرر أفعاله كما تفعل أنت، ولم يعتبر نفسه باغيًا. ربما أرجع العلة للنساء أنفسهن، فكلهن جميلات،

ياللشقاء!! الشقراء لا تغني عن السمراء ولا العكس.. قد يكون عليك الآن أن تفعل ما لم تتخيل أن تفعله كي تتمكن من انتزاع هذه الجذور اللعينة من داخلك، عليك أن تكتب وصيتك من الآن _ يفكر، بألا تدفن تحت أية شجرة، بألا يشيدوا فوق قبرك مقامًا، أو يجعلوا منك كذبة، بألا تظلم امرأة.. بألا...

- أوه! تأخر الوقت. ينظر إلى ساعته ثم ينفض عن البدلة ما علق بها من أوساخ ما أمكنه، ثم يفرد جذعه ويرفع هامته استعدادًا لأداء دوره في طقوس العزاء.

صافيناز

تبدو غرفة نوم صافيناز هانم في سراي العزبة مفعمة بالسحر، الفُرش وثيرة ذات ألوان منسجمة وأنسجة منتقاة بعناية، الحوائط مغطاة بستائر حريرية مشغولة بخيوط رقيقة، والأرضية مكسوة بسجاد تغوص فيه القدم شبرًا، ثمة ثريات متلألئة متنوعة التصاميم ومتفاوتة الأحجام ومتوزعة الإضاءة، تجعل الناظر للغرفة يحسبها قطعة من الجنة، أما في بيت محمد علي - الذي عرجت إليه الهانم فور وصولها ميناء الإسكندرية بعدما أدّت مناسك العمرة واغتسلت روحها - فتجلس على حافة السرير القديم، وتنظر بانزعاج إلى الغرفة الصغيرة ذات الألوان المتنافرة والفرش الرثة والإضاءة الكابية، وتمتعض من الإهمال الذي تعاملت به ضرّتها "سعاد" مع كامل البيت، خاصة أنها تعتمد في كل شيء على العجوز "شفاعة"، التي لا تدري شيئًا عن النظافة أو الذوق، تبدأ

صافيناز هائم في تخيل التعديلات التي ستضفيها على كل ركن، لتحوّله بلمساتها الفنية الراقية إلى قصر يليق بها، يصبح مَعلمًا بارزًا في الشارع الرئيسي، كما ستشيد في قطعة الأرض المجاورة دارًا للأيتام وتجعل تحتها سبيلاً للمارة، مثل ذلك الذي كانت ترى الناس يرتوون بمائه ثم يرفعون أياديهم بالدعوات الطيبة وبقراءة الفاتحة لروح السيدة التي شيدته -ضمن مجموعة عرفت باسم "السكرية" نسبة إلى تجار السكر والحلوى في تلك البقعة- فجعلت فوق السبيل كُتّابًا لتحفيظ القرآن ورَبعًا للفقراء من الحرفيين، كما شيدت وكالة تجارية وحمامين يستغل ريعهم لأوجه الخير. تفلت صافيناز الطفلة يدها من يد أمها، تتحسّس نقوش الآيات القرآنية في مقدمة السبيل والمشغولات الزخرفية على جدرانه وأطر شبابيكه، ثم يلفتها تصميم نهود بأعلاه، فتخبرها أمها بأنها رمز لعطاء الجدة "نفيسة البيضا" التي قدمت ثروتها لأعمال الخير كما هو مسجل بالنقش.. لوجه الله ما صنعت نفيسة.

تحس صافيناز بغصة مؤلمة من سهوها عن رضوان الذي لم تبرد جثته بعد، تلمحه بِطلته المشرقة العفية التي تشي بأنه سيعيش دهرًا، لم تتصور قط أن يموت قبلها، بل كان يداخلها يقين في أنه سيقتلها بجحوده وتصرفاته غير المسئولة، ثم يعيش بعدها دهرًا، يعربد كيفما يشاء، تضغط صدرها بكفها وتكتم البكاء، تترحّم عليه وعلى الجدّة

"نفيسة البيضا" صاحبة السيرة العطرة وملهمة صافيناز هانم التي يبلغ منتهى آمالها أن تصبح مُقدرة ومُمجدة مثلها، مثل الشركسية "البيضاء" التي أذهلت المصريين بجمالها وذكائها وثقافتها الواسعة التي جعلتها تحفظ الشعر العربي القديم أفضل من شعراء العرب أنفسهم، أعتقها علي بك الكبير وتزوّجها، وأورثها بعد مقتله ثروة معتبرة تنجح هي في تعظيمها بفضل حسّها التجاري، وتغدق على زوجها الجديد "مراد أغا" كما تنفق الكثير على أعمال الخير، تغمض صافيناز عينيها، فترى مراد أغا يقبل كفيها فتسري إليه وداعة روحها وتحسن معاملته مع أبناء الشعب، فيمنحونها حبهم وأطيب أدعيتهم، ترى نابليون بونابرت يخلع قبعته وينحني احترامًا لها، ويصرّ على تقديم قطعة من الحلي بألوان العلم الفرنسي هدية لها، تراها ترفل في ثوبها الحريري وتضحي بثروتها لإنقاذ حريم المماليك اللاتي قبض عليهن بونابرت، كما تظل موضع احترام السلطات لتستحق، عن جدارة، أن يتخذها المصريون.. ملكة غير متوّجة.

تنهي صافيناز قراءة الفاتحة وتمسح وجهها براحتيها، فمنذ أخبروها، وهي في عرض البحر، بموت رضوان، وهي تبكي رجل حياتها بكاءً مرًا، تنتحي ركنًا بعيدًا عن العيون لأنها لا تحب أن يرى بكاءها "ضعفها" أحد، تمرّر يدها فوق خاتم زواجها ثم تمسح بقايا دموعها، لن تدع حزنها يغلبها، فالأسى لن يعيده إلى حضنها، وما يجب أن تفكر به -

وكل ما يفصلها الآن عن غريمتها "سعاد" هو باب هذه الغرفة الرثة- هو حماية نفسها، فالعناق الحميم الذي وحّدها بسعاد في مصيبة فقد رضوان، لحظة وصولها، وأغرقهما معًا بالدموع حزنًا على رجل تقاسمتاه لأكثر من ربع قرن، لن يتكرر بعد تلك اللحظة -تلتقط منديلها وتمسح بقايا دموع سعاد بامتعاض من فوق كتف فستانها- وعليها الآن أن تدافع عن وجودها. حرصت طوال عمرها على أن تكون صاحبة فكر وموقف وليس مجرد امرأة جميلة، حظيت بتوقعات عظيمة من عائلتها، ثم أجبرتها الظروف على الزواج من رجل أقل بكثير مما تستحق، فسعت بكل قوتها لتغييره وتطويره.. لتكبيره ليصبح "على قدّها"، تحتضنه، تحتويه، تسحره بمشاريعها، أحلامها، فينقاد لها طائعًا:

- مظهرك. أناقتك.

تساعده على عقد صداقات بكبراء البلد، هدايا، حفلات، تألق حد النجومية في صالونات البكوات كما في صفحات "الجرانيل"، فيحصل على الأفندية، الباكوية، الأطيان، العقارات، يصير الحلم واقعًا، والسعادة تحوطهما، تدمجهما، تغرقهما، وهي طافية، متسامية، توشك أن تمسك السحب بيديها، لولا.. أن السعادة لا تكتمل، فقد خذلها رحمها.

- ليه يا ربي تحرمني؟ ليه تظلمني؟

تمشط شعر "كريمان" ابنتها التي تستند برأسها على بطن أمها ملامسة رحمًا أبى أن يمنحها الأخ الولد الذي يبتغيه أبوها رضوان، تُغرق صافيناز الوسادة بدموع حارة، ثم تستغفر الله وتصلي وتصوم، في النهاية تقرر القبض على زمام المبادرة:

- اتجوّز يا رضوان.

عبارة لا تصدر إلا عن زوجة نبيلة ووقور، امرأة نفيسة "كما تحب أن تكون"، صاحبة أيدٍ بيضاء.

- أنا؟ غيرك؟ لا يمكن.

من أول ما تزوجته تعرف عن عينه الزائغة، عن نساء يعبرن حياة رجلها بلا حب، بلا رباط، أمر أقل كارثية من فكرة الزواج بأخرى تقتسمه معها مدى الحياة.. قسمة شرعية. تضغط صدرها براحتيها وتزفر زفرة طويلة ثم تلتفت نحو رجلها بابتسامة مشجعة:

- واحدة تجيبلك ولد يونّسنا إحنا الاتنين. ما هو هيبقى ابني برضه.

- عه؟ طبعًا هيبقى ابنك.

بعد طول انتظار أتى فارس عاريًا محمولاً من ساقيه "كي تباركه الهانم صافيناز" في قبضة الداية التي تصفع خفيفًا ظهره، كي يزفر بقايا سوائل ودم الولادة، سارعت صافيناز تدثره بحرامها الصوفي الوثير، وجِلة من الملمس الهش المدهش لـ"حتة لحمة حمرا"، بجفون منتفخة وعيون مغمضة، هي حلم رضوان، أي حلمها، ولد يحمل اسم أبيه ويكون سنده في حياته ووارثه بعد مماته، ثمة فرح يثمر في خلاياها الحيوية، فلا تكف عن الصلاة شكرًا لله، ثمة حلم بالولد يكبر في فراشها مستدفئًا بينها وبين رضوان، عدا أن زبيدة صارت تعود من غرفة سعاد بيدين خاويتين:

- أمه بترضعه.

عرفت صافيناز مبكرًا أنه ليس ولدها، كما اتفق معها رجل يقسم ليل نهار على حبها ومكانتها ثم يضعف أمام إحساسه بأمومة سعاد، فلا يعلّق على رد زبيدة.. الخائب.

لم تجد بدًا من السعي لإغراء الصغير -الذي يتكعبل بين أرجل الكراسي والمنضدة- بقطع الحلوى واللعب الصغيرة التي تعجز أمه عن إحضار مثلها، كي يقترب ويعطيها.

- بوسة وحضن كبير قوي.

من فراق أمها، الفراق الذي صار يطول لسنوات دون حيلة لصافيناز التي صارت تشعر بالحكة القديمة تعود لغزو وجهها.

مبكرًا خرجت الأمور عن سيطرتها، كبر فارس ولم تعد حلواها تبهره، كما صار أبوه يطيل المكوث وراء باب غرفة سعاد، ثم لاحقًا صار يقضي أكثر من نصف الأسبوع معها في المحروسة..

- سعاد إيه اللي تشغلك. أنا كلي ليكي.

يغرقها بالقبلات والهدايا -التي تستحقها عن جدارة، ليس فقط لكونها جعلته يعيش حياة ما كان ليحلم بها، بل أيضًا لحرصها على تنامي ثروته، باستدراج أقاربها في الكلام كي تلتقط منهم الأخبار والفرص الخفية "مزاد أراضي، عقار للبيع" التي لم يتوانَ رضوان عن اقتناصها واحدة تلو الأخرى حتى جمع كل هذه الثروة التي يحسده عليها أقرانه- فتطمئن لحبه ولمكانتها سنوات وسنوات، ثم يزل لسانه في الفراش ذات ليلة:

- إنتي حد بيجري وراكي! دي البت سعاد بتاخدني ع الهاااادي.

كيف يجرؤ على مقارنتها بسعاد كأنها غريمتها؟! على امتداح هذه البليدة ذات الإيقاع الرتيب التي تقف النهار بطوله كي تعمل طاجن

أرز! هذه الفلاحة التي لا تعرف كيف تنزع شعر إبطيها وعانتها! ألم تأتِ من أجل الولد فقط! أوووه! طالما غضت بصرها عن "رمرمته" وجريه وراء النسوان "الدون"، تنظر بتسامح للشبق يطل من عينيه كأنه ابنها المراهق الذي تنتظر نضجه بل تسعى لإنضاجه، عدا أن الطبع غلّاب، ومع ذلك كانت تسامحه، لكنها لم تستطع أن تغفر له انتقادها بهذه السوقية؟

- حد بيجري وراكي!!

لماذا لم يغضب من جريي كي أرفع من شأنه؟ من سباقي مع الآخرين، ضد كل الناس، كي أعمل منه إنسانًا ذا قيمة واعتبار!! تصرخ.

حتى الولد الذي كانت تسعد به صار ذريعة لابتعاد رضوان، الولد محور كل شيء..

- علشان فارس محتاج طلبات للمدرسة. يأخذ سعاد في الأوتومبيل.

- علشان فارس يلعب مع أولاد زيه. يأخذ سعاد في الزيارة للعائلة الصديقة. ثم:

- فارس كبر ولازم يدخل مدرسة محترمة في المحروسة. تنظر في المرآة فتجد بقعة فوق خدها.

- يا سلام!! سعاد تعيش بين قصور شارع محمد علي وأنا أفضل محبوسة في الأرياف!!

انتظرت أن يشعر بجرمه ويصحح الوضع، لكن هيهات! اعتبرت قراره طعنة غادرة في الظهر، غائرة في القلب، عافته نفسها، وكلما حاول الاقتراب منها:

- أنا متوضية.

- أنا صايمة.

أسرفت في العبادات والشعائر كي تعاقبه، عدا أنه لم يفهم الرسالة، يغيب طويلاً ويتركها وحيدة بين جدران سراية طويلة عريضة، تمشي ثم تجلس هنا أو هناك، تهري وتنكت، تخربش بظفرها صورة الصبية الحسناء شاهقة البياض التي كانتها عندما عشقها شاب محترم يعود نسبه إلى النبيل "حسن كاظم باشا"، وتكتشف أنها لم تعرف قط لماذا هي تحديدًا حدث معها ما حدث؟ وصار الناس يخافونها:

- وشها اللي زي لهطة القشطة ده طلع نحس. الشر بره وبعيد.

قرص ثعبان خطيبها الأول فيما كان يشذّب الأشجار في حديقة سراي أبيه، ودهم القطار خطيبها الثاني بينما يعبر المزلقان في طريقه إليها، ومات الثالث مصادفة في أثناء فضه لمشاجرة في الشارع فور خروجه من بيت أهلها، انقطع الخُطاب وراح بياض وجهها يتعكر بمهاجمة بقع شبه مستديرة سمراء، تدلكها بدهانات شتى وما تكاد تتخلص من إحداها حتى تظهر أخرى في الوجه الذي صار كابيًا، كاشفًا عن نفس صامدة، تدين لهذه البقع بالفضل، فقد نبهتها لوجوب ألا تأمن لشيء خاصة الزمن، ولا لأحد مهما بدا وِلهًا بها، وأن تحرص على المكوث بعيدًا، بمسافة تكفل لها النجاة من تحديق الآخرين فيها واكتشاف علتها، تجاوزت محنتها النفسية عندما أتى رضوان بقلب جسور وعين مفتوحة على آخرها لتلقف الفرص التي ستتيحها له مصاهرة عائلة معتبرة.

- مزيج من الجشع والتفاؤل هو مزية ومحنة هذا الرجل. تتمتم.

- ألهذا تصور أنه سيعوض خساراته في القمار؟ نتساءل.

لم تصبها عدوى التفاؤل فور زواجهما فقد رأت التخوف في أعين أم رضوان وأخته "لبيبة ورية"، هي نفسها لم تتخلص من مخاوفها إلا متأخرًا، فعقب ليلة الدخلة كانت تنتفض مع نور كل صباح

وتقترب من رضوان كي تتأكد من أنه ما زال حيًا، وأنها ليست قدم نحس كما قيل عنها، وكما ظنها كذلك الشاب المحترم ابن النبلاء الذي عشقها أصدق ما يكون العشق، وسعى للزواج منها بكل ما ينم عن التقدير والتشرف عدا أن تحذيرات أهله، بعدما وصلتهم أخبار ضحاياها الثلاثة، نجحت في إثارة ارتيابه، ولما حدست صافيناز تردده أخذت زمام المبادرة وأعلنت رفضها له بعد أن أحرقت المنديل الذي مسحت به الكحل المختلط بالدموع من فوق خديها كي لا يراه أحد. عاد ابن النبلاء يتحين الفرص للاتصال بها بعد زواجها من رضوان، نادمًا، آسفًا، يرقب بإعجاب صعود نجم رضوان في الأوساط الاجتماعية. سعادتها بالنجاح، بالمجد الذي دفعت رضوان نحوه هي التي كبحت اندفاعها حنينًا لعشقٍ لم يبقَ منه سوى ذكرى تمسخها ملامح رجال ماتوا قبل أن تتزوجهم وتركوا بوجهها بقعًا نجحت، بصعوبة، في إخفائها بمساحيق التجميل، ولم يعد له من معنى بعدما صارت ملكة متوجة على عرش رجل يقدرها ويحبها، تاقت لهذا العشق القديم فقط في لحظات قنوطها من إخلاص رضوان، وكذلك حينما عادت رية بعد موت زوجها لتعيش في السراية، أرملة تجاوزت عمر الشباب وأخت لزوجها تكبره بأعوام وتحظى بموضع مفضل في قلبه..

- رباه!! لم أعرف أخًا يحب أخته بهذا القدر قط!!

تأكلها الغيرة من هذا الحب الذي رسخ مكانة رية كسيدة للسراية، هذه المكانة التي استفردت، طويلًا، بها صافيناز، فمنحتها تعويضًا لها عن عشق عصي على النسيان لسليل النبلاء، تنظر إلى رية بغيظ من فرط جرأتها واندفاعها، وتحرص -كي لا تمنحها فرصة للنيل منها ومساواتها بالآخرين- على اللجوء إلى ذلك السمت المتعالي كدفاع منيع، خبيث أحيانًا وبعيد عن التسامح أغلب الأوقات، تفكر بأسى، فعلى فراش الزوجية انبرت تؤجج غضب رضوان من أخته العجوز المتصابية التي ترفع الكُلفة بينها وبين الفلاحين، تتكلم بصوت مرتفع بغير لزوم، ثم تصغي لهمسات يودعها في أذنها شاب صغير "عقرب صغير يبخ سمه في قلبها" يستغلها طمعًا في ثروتها ويجر رجلها إلى الدرب لتبدد ثروتها على الفلاحين، ما سيجعلهم في النهاية يتمردون ويتنمردون على البيه ولي نعمتهم، حققت صافيناز مرادها وتفاقمت خلافات الأخوين، ولو صدق العالم أجمع أن المال كان سبب هذه الخلافات لما نجح في تغيير تصور صافيناز عن أن الحب هو السبب، فغضب رضوان من تجريس أخته له كان عظيمًا، بقدر حبه لها، غير أن الشفقة أكلت قلبها على سيدة السراية الجديدة يوم أهانها رضوان وأمر بحبسها، فهي "أخته الكبيرة" رغم كل شيء، ما زالت تتذكّر

كيف رأتها منثنية الجذع، يتدلى حول وجهها شعر مشعث لم تبقَ فيه خصلة واحدة سوداء، تنزلق من عينيها نظرة زائغة تنم عن روح كسيرة، فيما تقيء عصارات معدتها الحساسة التي اهتاجت من ظلم أخيها:

- خلاص مش هنزل الدرب ولا حتى هطلع من الباب خالص. بس بلاش تسجن الولد الغلبان.

تحدجها صافيناز بنظرة مندهشة من تحوّلها المريع، عدا أنها تعجز عن إظهار شفقتها "الهائلة بالفعل" عليها خوفًا من أن تهب فيها غاضبة، إذ ما كانت لتأمن لها رغم كل شيء، لكنها ستدرك فيما بعد أنها أضاعت الفرصة الأخيرة، فريثما استجمعت شجاعتها واتفقت مع الخادمة التي أودع رضوان مفتاح الغرفة في عهدتها أن تفتح لها الباب، ريثما أخذت في يدها صحن المهلبية بالمكسرات الذي أعدّته خصيصًا للغلبانة رية، كانت هذه قد امتنعت عن الأكل وتيبس فكاها بالفعل منذ فترة، وصارت.. جلدًا على عظم، كما لم تكن في وعيها لتسمع اعتذار صافيناز التي لن تنكر أنها تاقت بالفعل إلى تأديب رية ومعاقبتها، ولكن ليس إلى هذا الحد، لا.

- الله يرحمك يا رية. الله يرحمك يا رضوان. تمتم.

برّرت له أخطاءه، كالزواج من طفلة أرمينية أو خادمة سودانية - خلال أسبوع عمل قضاه في أم درمان - لأنه في النهاية رجل، لكن كيف لامرأة ذات حسب ونسب تحظى بهذا الحب المدهش من أخيها أن تخذله وتجرّسه أمام الفلاحين؟ تعود وتسامح رضوان على قسوته المفرطة مع أخته، على نزواته وفضائحه، وحتى على أن يكتب لها بيت "الأزبكية" ويخص فارس وحده -مذعنًا لمؤامرة سعاد- بالعزبة وبيت محمد علي، لكنها لن تسامحه قط على إهانتها بتفضيل سعاد عليها.

واتتها الفرصة عندما قصدها يطلب مالًا، اكتشفت عندئذ أن بذرة الكراهية - التي رواها بإساءاته ثم بلامبالاته، ورعتها هي بجفائها - قد أينعت. أعطته من مالها أكثر مما يريد، ثم بدأت، بعد أن نفد المال، تعطيه مجوهراتها واحدة إثر الأخرى، أراد أن يكتب لها بقيمتها كمبيالات فرفضت:

- مالي هو مالك يا رضوان.

تأثرًا بنبلها وضع ثقته في الكفة المقابلة، كما توقعت من رجل "ربته" على يديها وتعرفه أكثر مما يعرف نفسه، فغلبت كفته كفتها، كتب لها رهنية لبيت محمد علي ثم للعزبة - بعد أن تجاوز المعقول في

اقتراضه، فرغب ألا يلقاها مطأطئ الرأس - على أمل أن يعتدل حظه في "القمار" فيسدد ما عليه ثم يستعيد ما رهنه، ولكن.. لماذا نسي أنها تفوقه فطنة ودهاء؟ ثم كيف سيعتدل حظه وهي تدعو الله ليل نهار أن يخسف به الأرض ويعيده إليها ذليلًا، يطلب غفرانها على خطيئته في حقها، في حق امرأة أحبته ودعمته و... تستعد -بدموعها وكبريائها الجريح، وقلبها الذي أحبه ولو.. "بحكم العِشرة الطويلة"- للصفح عنه إذا ثاب إلى رشده، وعرف قدرها الحق وأتي طالبًا غفرانها، غير أن الموت حرمها هذه الفرصة. لم يمهله للاحتراق بالقنبلة التي تنوي أن تفجرها الآن بوجه سعاد، ستتلذذ بمشاهدة خيبة أملها وإفلاسها، ستعود فلاحة بنت فلاح كما كانت، ستعود إلى البيت الطيني، دون وصيفة ولا حتى خادمة، ستعود إلى ما تستحقه، عدا أن ما يؤلمها فعلاً هو أنها لا يمكنها أن تقتص من سعاد دون أن ينال هذا من فارس أيضًا، آه، فارس، ستخسره نهائيًا ولن يعود له من وجود بحياتها، هو الذي من أجله كانت تسهر الليل قلقًا من مشاركته بالمظاهرات، الوحيد الذي تخلت معه عن سمتها المتعالي ورجته، بل تضرّعت إليه، أن يحافظ على نفسه وألا يزج بها نحو المخاطر: استقلال إيه حبيبي؟ إنت أهم من أي حاجة. بح صوتها في إقناعه بسذاجة

المصريين الذين يتخيلون أنهم قادرون على إدارة البلاد بشكل أفضل من إدارة البريطانيين لها ولما يئست استماتت حتى نجحت في إقناع رضوان بضرورة إبعاده، فكان سفره لباريس، يحز في قلبها خسرانها لما يظهره تجاهها من محبة وتقدير، حتى لو كان مضطراً لذلك باعتبارها زوجة أبيه، حتى لو ظلت المسافة شاسعة بين مشاعره تجاهها والأخرى تجاه أمه التي تحظى بمكانة لديه طالما تمنت صافيناز لو حظيت بمثلها من كريمان ابنتها، طالما تمنت لو وجدت منها نصف أو حتى ربع الوداعة والامتنان اللذين يودعهما فارس في قبلته لأمه، طالما تمنت لو أنه ولدها هي، فهي التي تستحقه، لكنها الآن تستعد لسلبه إرث أبيه كله.

- إيه؟ ضيع كل ثروته ع القمار؟! تصيح سعاد غير مصدقة.

- وكل مجوهراتي كمان. عشان كده رهن لي العزبة والبيت. الورق قدامك أهه.

- يعني إيه رهن لك العزبة والبيت؟ دول حق فارس.

- طبعًا حقه. بس بعد ما يسد الرهنية.

- بس إنتي عارفة إننا مانقدرش... الحقني يا فارس اسمع مراة أبوك ..

جاءت اللحظة التي كانت تخشاها.

ولكن من أين أتى كل هذا الدمع لينسكب من عينين اثنتين؟! كأن كل ما كتمته من انفعال منذ نظر إليها فارس تلك النظرة المصدومة تجمّع داخلها حتى دخلت الغرفة وأغلقت الباب، "صارت وحدها"، فانسكب كالمطر. الكلمات التي أرادت أن تقولها له لم تنسكب مع الدمع، ظلت داخلها تجلدها وتعذبها، تريد أن تصرخ:

- إلا أنت يا فارس. أنت تعلم كم أحبك. أنت ولدي أنا، أنا الأجدر بك منها.

كراهيتها لسعاد، وغضبها من رضوان أضاعا منها فارس، ولن ينفعها بشيء، وهي وحيدة، كل هذه الثروة، ولكن لا، انهضي يا صافيناز.. هانم، ولا تدعيهم يشمتون فيكِ، تحث نفسها، لقد انتصرتِ، افردي هامتك وسيري برأس مرتفع ويدٍ بيضاء.. بيضاء، سوف تمحو هذه البقع الداكنة من وجهك، سوف تدخلك التاريخ مع جدتك "نفيسة البيضا" ال....، ولا تصدقي من يزعمون أنها لم تكن..

وفية لزوجها الذي أحبها وأورثها بيوتًا وقصورًا وتجارة وجيشًا وأسطولًا، أو أنها تزوجت من قاتله "مراد أغا"، لا تصدقي من يزعمون أن كل ما فعلته من أعمال الخير لم يكن لوجه الله، لا تصدقي من يزعمون أنها لم تكن.. بيضاء، لا.

العناية التي أولاها البيه لسراي العزبة بتزيين واجهتها بعمدان ضخمة تعتمر تيجانًا مزخرفة، كما بغرس شجيرات ونباتات نادرة بالجنينة، ثم بإضافة نافورة مزخرفة في قلب الجنينة يبدأ من نهايتها زوجان من السلالم الخارجية الملتوية، يصعدان في نصفي دائرتين ليلتقيا عند البوابة الداخلية، ناهيك عن تجديد أثاث وديكورات الداخل، وتزيينه بثريات باذخة الضوء ومرايا مزخرفة وشمعدانات وأنتيكات مدهشة، كما بسلالم داخلية ذات درابزينات مشغولة، هذه العناية لم نتوفر لبيت محمد علي الذي بناه الجد الكبير لرضوان، قبل قرابة المائة عام، ثم جدّده ولده عندما أصدر محمد علي باشا فرمانًا بشق شارع يمتد من قصر عابدين عبر القاهرة العتيقة بطول كيلومترين، فاعترضت إنشاءه بيوت كبيرة وصغيرة وعدد غير قليل من المساجد والمطاحن والمخابز والحمامات، أمر الباشا

بهدم بعضها كما أزيلت أنصاف بعضها، وإن ظلت مأهولة بالسكان كاشفة أسرار الغرف الداخلية "المضحكة أو المبكية"، كما أمر الباشا بإعادة بناء واجهات البيوت على طراز عصري، وكان جد رضوان بيه، لحسن حظ شفاعة، من أوائل من ضبطوا المواصفات، حسب ما حكته "ست أبوها" وهي تلت العجين، عدا أن هذا البيت ظل، منذ ذلك الوقت، دون تجديد، واكتفى البيه باستعماله كاستراحة قبل أن يجبرهم فارس على سكناه.

البيت المتواضع المقسم إلى حجرات صغيرة، عدا قاعة واحدة واسعة في كل دور خفف من أعباء شفاعة التي أحبت غرفتها الصغيرة فيه، أحبت الخبز في الفرن الصغير وحكايات ست أبوها عن أولئك الذين قضوا قبل استكمال أبّهة الشارع، فأعاد الحنين أرواحهم تصطخب بين البواكي ليلًا، أحبت سعاد بسيطة ومطمئنة بعيدًا عن صافيناز، تتفنن، بإيقاعها الهادئ، في تحلية الكعك بالشوكولاتة أو القرفة، بدلاً من سكر البودرة، تميل شفاعة أحيانًا إلى الانزواء في ركن صغير - مكون من اثنين من قطع الفوتيه القديم تحت شباك مزخرف برسوم وألوان هادئة يطل على الشارع الرئيسي- تختلي فيه بنفسها وتشرب فنجان الشاي، أو تمد يدها وتجذب الستارة فتسمع أصوات هشيش المكانس تحركها أيدي عمال النظافة أو أصوات الباعة الجائلين يدللون على

بضائعهم، بعدما منعها داء المفاصل من الخروج، عدا أن الصوت أتى هذه المرة من داخل البيت، حاولت النهوض لنجدة سعاد التي عرفت صوت صرختها فلم تسعفها ركبتها، نادت الخادمة الصغيرة لكن صوتها لم يطلع! هي التي كانت ترقع الزغرودة في درب السوالمة فيسمعها أهالي "كفر مرزوق" وأهالي "منية الغضبان" المجاورتين، فيأتون لحضور العرس دون دعوة!

تنظر فترى وجه امرأة خارجة من الحرب، لأن الحزن بنظرها أسوأ من الحرب، فقد سود وجه سعاد وبعثر ملامحها وهي تذكر الرهنية، بينما لا تصدق شفاعة أن يكون رضوان بهذا الجنون، فيبدد ثروته "إرث ولده الوحيد".

- يا لهوي ضيع اللي حيلته على شوية ورق!

تسأل نفسها، سمعت من قبل حكايات عن أعيان ورجال ذوي شأن ضيعهم هذا الورق، ولم تفهم لمَ يضعفون هكذا أمامه؟ ما ذنبها سعاد؟

- هتجنن. مش ممكن رضوان يعمل فينا كده! حتى لو مخه اتلحس! لو ركبه ميت عفريت! فيه حاجة غلط! وبعدين المجوهرات اللي بتقول إنه رهن لها قدامهم العزبة والبيت هو أصلاً اللي جايبهم.

ما ذنبه فارس الذي ما زال عوده أخضر ولديه أحلام؟ تتمتم شفاعة.

- خلاص يا أمي ده أمر واقع. هنعمل إيه؟ أبويا فعلاً في الفترة الأخيرة ماكانش على طبيعته. وأنا.. هشتغل و.. مش هخليكي تحتاجي لحاجة. همس فارس وهو يطبطب على سعاد.

ثم تلك الأفعى صافيناز ماذا ستفعل وحدها بكل هذه الثروة؟ تفكر شفاعة وهي تستعيد صورة رأس صافيناز المتخشب المرفوع وصوتها البارد:

- أنا لا أجبرت رضوان على حاجة ولا أخدت حاجة مش حقي. دي إرادة ربنا.

نظرت شفاعة بعجز إلى لوعة سعاد وهي تصيح:

- أبدًا. مش ممكن يحصل. حتى لو وصلنا للمحاكم يا صافيناز.

بعد أن عرفت شفاعة أن "نقبها طلع على شونة فاضية" وأن البيه لم يترك لها فدانًا كما وعد، ولا حتى قيراطًا واحدًا "يوحّد ربنا"، تجسّد أمامها جعفر العبد المخصي الذي تبرع به البيه من أجل الخدمة في

الكعبة المشرفة، كما فعل بسابقه، رأته دون الشفقة التي كانت تأكل قلبها عليه أو تحوطه بهالة من قداسة ما؟ الآن تردد:

- والنبي الجدع ده كان طبعه حلو، وإيده فيها الشفا.

تتذكر براعته في المداواة مستعيناً بخبراته الموروثة، مجدولة بمعارف مجموعة من بلدياته وأصدقائه، ما كان يثير غضب البيه:

- عايز تروح لأصحابك الدجالين!

ومع أن جعفر أكد أنهم لا يقيمون الزار ولا يفتحون المندل أو غيرها من ممارسات متخلفة انتشرت بالبلاد، بل يعتمدون على بعض الأعشاب ذات القيمة العلاجية التي أقرها قسم كبير من الأطباء الأجانب، إلا أن البيه لم يكف عن اتهامهم بالدجل، ولم يعبأ بسلب جعفر سعادته بما يمنحه المرضى من أدعية طيبة حينما يشفون على يديه، فلم يسمح له بالخروج إلا مرات قليلة، ثم انتهى كل ذلك عندما اكتشف أنه كان يداوي المصابين من الثوار، والأدهى أنه كان يخرج دون إذنه، على الفور تبرّع به لخدمة الكعبة المشرفة.

- يا سلام على صوته أما كان يغني! يقطع القلب بأغاني الغرام!

تتنهد شفاعة وتحسده الآن لأنه سيموت في مكان قد يمنحه امتيازًا للنيل ممن جعلوه مخصيًا، وممن جعلوه عبدًا عندما يؤول الأمر لله، أما هي فيبدو أن دمها تفرق بين القبائل، لا تعرف إن كانت ستدين رضوان وحده أم سالم الكبير أيضًا؟ أم ستدين نفسها لأن خوفها من العوز جعلها تتنازل عن منصور وتتمسك بالعيش في هذه الخرابة؟

الشيء الجيد، تفكر، هو أنه يمكنها أن تتقبل الآن العيش في دارها التي كرهتها بعد موت يونس واعتبرتها جحيمًا خالصًا، الآن تبدو لها أقل جحيمية من "جنة رضوان" التي غدرت بقاطنيها.

خطر ببالها أيضًا ملكة العوالم "زينة".. ليتها، في ذلك الوقت، فوضتها في التصرف مع البيه، تقرأ الفاتحة على روح السيدة النبيلة التي لم تتردد في تقدير شفاعة ولم تعاملها قط كخادمة، بل بكت بعدما سمعت منها ما جرى ليونس وأبيه، كما لن تنسى أن هذه المرأة التي يثمن وقتها بـ"شيء وشويات" كانت، بعد تنامي الصداقة بينهما، تصغي لفضفضتها بالساعات:

- اختفى منصور. فص ملح وداب. تلاقيه لاف على واحدة تانية. يلا. ما كلهم ولاد كلب.

ترفع زينة كفها محتجة:

- لاااا. ما تبقيش هبلة يا شفاعة. الرجل منصور ده راجل على حق. اسأليني أنا.

غيره كان استهبل فيها وخد اللي عايزه منك وخلاص.

الراجل اللي تبقي معاه برضاكي وعايزك بالحلال. عايز يعجز وإنتي معاه. يموت وإنتي

جنبه. ده راجل على حق يا أختي مش زي البلاوي اللي بيوردوا عليا.

عارفة أنا لو قدامي واحد زي ده.. ورب العباد لكنت سيبت الدنيا كلها عشانه. لكنت أرضى

أبقى خدامة تحت رجليه.

- لو هو زي ما في بالك كده ما كانش خلف اتفاقنا واختفى.

- الغايب حجّته معاه وأكيد الشديد القوي هو اللي مانعه وبكره تقولي زينة قالت.

تتذكر تعجب سعاد من بكائها عندما بلغها خبر موت زينة:

- الله يجازي شيطانك يا شفاعة! كل البكا ده على عالمة!

تتشهنف شفاعة وتهمس:

- وإيه يعني عالمة! كل مخلوق بيسعى على رزقه، هي لقت وظيفة تعيش منها وقالت لأ! أهو أحسن من الشحاتة.

ماتت زينة "موتة ملوكي"، تتذكر شفاعة، فالبنات اللاتي علمتهن الصنعة وجعلتهن لا يحتجن لأحد حفظن جميلها "الأصيلات منهن على الأقل"، لم يدعنها تترمط ليلة واحدة في مستشفى مجاني حيث "الجتت مرمية" على البلاط، بعض رواد الملهى من البهوات والباشوات عملوا الواجب "من تحت لتحت":

- اللي يبعت قرشين واللي يزورها في السر.

ربما لا تحب شفاعة أن تكون عالمة، لكنها لا تحتقرها كما تفعل الهوانم اللائي يهرب بهواتهم من سراياتهن وقصورهم كي يسعدوا بساعة زمن عند "زينة"، الهوانم اللائي يتكبرن على خلق الله ثم يلتفتن ويتزلفن لأزواجهن البهوات الذين ينفقون عليهن.

تنتبه شفاعة لرنين التليفون، وقبل أن تتحرك ترى سعاد وهي تترك جاراتها اللائي أتين لتعزيتها، وتسرع برفع السماعة، تتحدث لفترة ثم تقترب من شفاعة صائحة:

- الحقي يا شفاعة! لقوا تعبان ساكن في الشجرة.

- هه!

فوجئت شفاعة بغزوة النحل، عدا أن ما كانت تتوقعه وتخشاه من خبايا شجرة اللبخ هو الثعبان...

رأته مرة واحدة، كانت طفلة صغيرة راعها شكله وحجمه وأكله للتراب وزحفه على بطنه والسلاسة التي يتزلق بها دون صوت، صرخت فهدّأ أبوها من روعها، وهمست جدتها: هو في حاله وإحنا في حالنا. راقبته شفاعة الطفلة حتى أنهى جولته ثم اختفى داخل وكره، بعد عدة سنوات مر غريب تحت الشجرة وداس بقدمه بيضة كبيرة لم يكن يعرف أنها بيضة الأفعى زوجة الثعبان الذي خرج من جحره ولم يترك الرجل حتى أرداه قتيلاً، لذا اندهشت شفاعة من أنها وحدها التي أصابها الهلع عندما عرفت بدفن رضوان عند الشجرة، صاحت مستسلمة :

- الأمر لك يا صاحب الأمر.

ظنت أن ذاكرة السوالمة أصابها العطب، عدا أنها بعدما انكشف غدر البيه وما فعله بفارس وسعاد وبها أيضًا، فكرت بأن السوالمة ربما لم تخنهم ذاكرتهم، ربما يقولون ما تقوله هي لنفسها الآن وهي تمصمص شفتيها:

- يلا. هنخاف من تعبان.. على تعبان!!

توشوشها الخادمة الصغيرة فتنهض، وضعت قدميها في الشبشب وتسنّدت على عصاها مندهشة "الجارات يأتين لتعزية سعاد، ولكن من يأتي خصيصًا لي؟!"، تؤلمها ركبتها فتبرطم:

- يووه! وإحنا ناقصين زيارات! تلاقيه الواد الخباز له فلوس واحنا ناسيينها ولاّ الولية الشحاتة ولاّ ...

خطر ببالها الكثير لكنها لم تتخيل ان يتجرأ ابن مبارز على دخول بيت البيه، تحمد ربها كون فارس نائمًا "في سابع نومة" بعد إرهاق الأيام الماضية.

- الله يجازي شيطانك يا دي الواد. إنت لسه عايش! توك ما افتكرت تسأل على عمتك شفاعة!

- حقك علية يا عمة. الدنيا مشاغل.

تنظر للفة وضعها بجواره ولا تسأل. لكنها حريصة على متابعته بعينيها لأنهم قالوا:

- نشال. يسرق الكحلة من العين. تبادره:

- إيه اللي حدفك علينا يا ابن مبارز؟ قول الحق.

- والله أنا جايلك إنتي أصلاً يا عمة. قلت أتطمن عليكي.

- إيييه!!

- وكمان واحد محملني أمانة من زمان.

- عبيط مين ده اللي يحملك إنتَ أمانة! على عمتك شفاعة برضه! يقهقه:

- ما هي مش فلوس ما تخافيش. بالراحة عليا يا عمة. إنتي فاكراني لسّه زي الأول!

- ها؟ قول وأنا اللي أقول إن كنت زي الأول ولّا لأ.

- منصور. عربجي اسمه منصور.

- إيه!!

قال كلامًا كثيرًا جعل الدم يقفز إلى وجهها كالفيضان مرات، وينحسر مرات أخرى، فهمت أنه التقى منصور في السجن: ليه؟ تصيح متسائلة:

- كان راكن بالحنطور قام عسكري إنجليزي سكران رمى جتته عليه وعايزه قال يفسحه بالحنطور، منصور نشف دماغه وقال له مستنظر ناس.

تهمس شفاعة: يعني كان مستنظرني! ماطلعش خاين زي ما ظنيت!

فرحت، حزنت، ضحكت وبكت، ونسيت وجود همام ثم انتبهت له مستطردًا:

- دماغه ناشف. مارضيش يتحرك. كلمة في شتمة نقح العرق الإنجليزي وضربه العسكري هو وزمايله وجرجروه على القسم. شفاعة بلوعة:

- هه! نتقطع اليد اللي تمد على منصور.

- تعرفيه منين يا عمة؟

لا تهتم بالإجابة بل تسري حرارة مدهشة في جسدها وهي تسأله:

- وهو فين منصور دلوقتي؟

- ياااه! العمر الطويل ليكي يا عمة.

- هه! مات!!

- الوبا قش مساجين ياما ديك الأيام.

- مات!! منصور مات!! تصيح عاجزة عن إخفاء لوعتها.

- ما كلنا هنموت يا عمة.

تحدق في نظرته المتعجّبة ولا تفسّر. هان عليها ضياع الفدان وضياع العمر والعافية وتمنت فقط لو بقي منصور، لو لم تتركه في تلك الليلة، لو لم تسئ به الظن، لو..

ينهض همام ويترك اللفة التي تظهر من طرفها بدلة فارس، تنتبه على صوته:

- أشوف وشك بخير يا عمة. تهمس من بين دموعها:

- ماشي؟

- إيوه.

- تعالى.

جميلة

- نشاطركم الأحزان، جميلة،

تبتسم لموظف مكتب البريد ثم تخرج، فيلفحها الصهد ويزخم أنفها برائحة ورق الشجر المحمص..

- عِيش محمص، حُمص الشام، حمص بلدي، بلدي يا بلدي وأنا بدي أَروّح بلدي....

تلقائيًا تقع في شرك الألعاب اللغوية التي احترفتها منذ كانت تلميذة بالمدرسة الابتدائية، تضع يدها في جنبها، وترفع رأسها باعتزاز: جمل يجمل فهو جميل وهي جميلة،

- أنا "جميلة" البنوتة اللي مفيش أنبه منها،

تترك مكتب البريد وراءها، كما تترك لقدميها العنان، فيما يبدو كأن هناك انفصالا بينها وبين قدميها، وكذلك بينهما وبين الأرض التي تدقّها القدمان الصغيرتان في انتقالات خاطفة تعبر عن ميلٍ خفي للطيران، سكنها منذ كانت طفلة تركض مثل ريشة في الهواء، وتجد نفسها كل يوم في مكان جديد..

- يا بت. إنتي غاوية توهة!! في الآخر هيسمّوكي التايهة.

- فشرتي يا بنت بطني. جميلة دي أوعى من الخديوي بجلالة قدره. دي بنتي أنا. ملكيش حاجة فيها يا جمالات. تقول ست أبوها جدة جميلة ضاحكة.

- أهو كلامك ده هيخليها تتفرعن عليه زيادة. ترد جمالات فتقهقه جميلة - التي صارت تعرف هذه المدينة بوكالاتها التجارية وقصورها وحاراتها، كما بتكاياها وأسبلتها وحماماتها - وترتمي في حضن جدتها التي تمشّط لها شعرها وتخضب أظافرها بالحناء ثم تحكي..

- جدتك ست أبوها مدوّباهم أربعة.. شرعي، تقهقه، الجدع من دول يبقى ميت فل وعشرة قبل الجواز، وقال بعده يظهر ويبان على حقيقته أقوله: بالمعروف ياخويا دخلنا وبالمعروف نفترق.

- ماكنتيش بتخافي ما تلاقيش جوز بعده يا ستي.

- ما ألاقيش! فشر. ده أنا ست أبوها يا عين ستك...

أنا اللي اتكتبلي على باب الزقاق.. مايروح عاشق إلا ويجي ألف مشتاق.

- هه! ألف مشتاق يا ستي؟

- ومين فيهم اللي قلبك هواه يا ستي؟

- اللي إيده اتمدت عليّ كرهته. وأبو عين زايغة قلتله الباب يفوت جمل. أنا زي الفريك ماأحبش شريك. والبخيل طهقني. إنما إيه عمري ما استنيت مليم من حد.

ثم تشير إلى يديها:

- والبركة في دول. عطية ربنا. رزقي على الله وكلمتي من راسي. عشت كده وهموت كده.

- بس دول تلاتة يا ستي؟

- مصحصحة قوي كده ليه؟ لازم تفكريني بالرابع!

- قولي والنبي يا ستي.

- الرابع ده كان زي النسمة. بس يا ميت خسارة راح مني في غمضة عين.. وسابلي أمك.

صحت جميلة قبيل الضحى ووجدتها فوق "الصوفة" وأمامها العجين، اقتربت: يسعد صباحك يا جدة. لم ترد. بصعوبة انتزعت كرة العجين من بين كفين متيبستين، وتمتمت بالشهادتين.

تفاقمت خلافاتها مع أمها بعد موت الجدة.

- بوزي في بوزها على طول! ارحمني يا رب.

تمنحها حرارة الجو التي دفعت الناس للاحتماء بجدران بيوتهم الفرصة لكي تمشي وحدها وتشعر أنها تمتلك هذه الشوارع بهوائها الحار وأشجارها اليابسة وأبوابها المغلقة، لا ترغب في العودة إلى البيت الآن، تحب هذه الساعة الأخيرة من النهار، قبل هبوط الليل وصحو المخاوف من الاصطدام بعساكر الإنجليز المسلحين في أول الليل، السكارى في آخره، وفيما عدا ذلك فهي لا تخاف شيئاً في الشوارع التي تعرفها كما تعرف ملامح وجهها، فمنذ بلغت الخامسة من عمرها وهي تجوب الأسواق بدلاً من أمها، أو من أبيها، وصولاً إلى السنوات التي امتلأت فيها الشوارع بالناس وبالهتافات:

- تحيا مصر حرة مستقلة.

- وإنتي مالك يا بنت حسب الله بالسخام ده! هو إحنا ناقصين! تهتف أمها.

ثمة أمل كان ينمو داخلها.

- مالي ونص كمان.

كانت ترى وتعي، تميل للعناد والمشاكسة، تحلم بمدينة آمنة لا تسمع فيها كل يوم عن مظلمة فعلها الملك أو وقعت بسبب عساكر الانجليز، في البداية دفعتها الشفقة للمشاركة في تحضير الضمادات لإسعاف الجرحى ثم تغلبت على خوفها ذات ليلة، واعتلت سطح البيت تراقب الطريق لتأمين الشبان الذين تسلقوا العمدان ليقطعوا أسلاك التليفون، ويحطموا أعمدة التلغراف، ثم وجدت نفسها في اقتراح طرحته على أهالي الحارة بحفر خندق بعمق مترين وعرض ثلاثة كما فعلت حارات أخرى، حماية من اجتياح عسكر الإنجليز الذين التاثوا فزعًا من الزخم الشعبي، فراحوا يطلقون النار "عمّال على بطال"، وبالفعل حفروا الخندق، تبتسم أمها زهوًا بنباهة ابنتها، لكنها لا تتوقف عن تأنيبها، مع أن هذه الأم لا تمل الحكي عن إضراب عمال الترومواي الذي كان

يقوده "حسب الله" و"نعيم النجار"، زميلا العمل وصديقا العمر والجيرة "الحيط في الحيط" اللذان افترقا عندما تسللت الإغراءات والتهديدات إلى حسب الله ففك إضرابه واستأنف العمل، ووراءه عدد آخر كبير من العمال، فتيسر بذلك انقضاض الإدارة على الباقين، عدا نعيم برأسه الناشف الذي يعاود جر العمال مرة أخرى إلى الإضراب، غير أنه ذات ليلة يغيب نعيم ويجدونه في الصباح في كومة قمامة غارقًا في دمه، ويبقى حسب الله بحزنه على صديق عمره، عاجزة رجلاه عن صعود الترومواي، لا مات مثل صديقه ولا ظل حيًا. تحكي جمالات فتسخر منها جميلة. يريد هذا الرجل، تفكر، أن يرجع سبب "وكسته" وإدمانه على "الحشيش" وتخليه عن زوجته وأبنائه إلى ذلك الحادث، فيما تكشفه جميلة ابنته وتلومه وتكرهه و.. تتعلق ببطولة نعيم.

- اطردي الراجل ده.

- يا بت ده مهما كان أبوكي.

- أبويا! شي لله يا بويا!

أين كان أبوها في الليالي التي كانوا يبيتونها دون عشاء؟ كفا جدتها يتورمان من العجين، وظهر أمها ينحني على القماش بالخيط والإبرة، وأول ما تقبض قرش يظهر حسب الله على الباب.

- مسا الخير يا أم جميلة.

- بيشم ريحة الفلوس. تقول جمالات ضاحكة.

تنسى جمالات الهجر والغدر، وتطمح لاقتناص لحظة سعادة، مدركة أنها "سواد الليل" وأول ما يطلع النهار يتبخر الرجل الذي اختارته زوجًا وربًا للأسرة، عدا أن ذلك لم يمنعه من تركها.. دون قرش، تنتظر جمالات الإحسان من الهوانم الميسورات، مثل سعاد هانم زوجة البيه، اللائي شملنها بعطفهن، بينما تحمّلت عيناها وعافيتها العبء الأكبر، يظهر الوهن في صوتها وهي تحدث ابنتها التي صارت تنطوي على نفسها، هربًا من أن تصبح في رأي الناس معقدة ومستحقة للشفقة:

- بلاش غباوة يا بت. مش كل الرجالة زي أبوكي.

لم يكن أبوها هو الذي وقف بينها وبين فارس، بل أمها وأبوه البيه، كانت تخشى أن تصبح بمثل ضعف "جمالات"، تخشى أن يصبح فارس بمثل تكبّر وتعنّت وأنانية وجشع "رضوان بيه" الذي لم تره قط، لكن ذكره يستدعي إلى ذهنها صورة رجل بشارب كثيف مبروم وعينين واسعتين لامعتين وخاليتين من المودة، يرتدي عباءة من الحرير

الأبيض، يحيطه صفان من فتيات في ريعان الشباب بثياب تكشف كل أنوثتهن، ينتعلن قباقيب بكعوب عالية ويحملن صواني عليها ما لذ وطاب من طعام وشراب، أباريق ماء وطشوت للتشطيف، يقدمنها واحدة واحدة للرجل المستلقي في فراش النعيم، فقط ليأخذ، فكل شيء في متناول يده، فقط لأن له وحده الحق، في اللوحة المعلقة بالسراي التي دخلتها مع جدتها ست أبوها العجانة بعد خمس سنوات من لقائها بشفاعة في الخان:

- تايهة يا روح أمك؟

- لأ. بيتنا أهه. بصّي.

بنان الصغيرة قاد شفاعة إلى جمالات الخياطة وأم جميلة وجدتها ست أبوها العجانة، التي بدأت منذ هذه اللحظة ولسنوات عديدة تسهر ليلة الجمعة أمام نار وابور الجاز، تُسيّح الزبد وتفتّر اللبن ثم تلت العجين وتقطعه قُرصًا وكعكًا فوق الصاج الذي تذهب به إلى الفرن، ثم إلى باب السراية، كانت حيلة ابتدعتها ست أبوها لتنال الإحسان من جارتها "الهانم زوجة البيه"، بدلاً من التسول المباشر، بعد سنوات وقفت جميلة تحدق في اللوحة عندما طلبت الهانم رؤية العجانة، وهناك التقت فارس لأول مرة، بعدها صارت تلمحه عند باب مدرستها -التي

تكفّلت ست أبوها بدفع مصاريفها من "حر مالها"- فتضحك ثم تسرع مبتعدة، بعد ثلاثة أعوام وقع الاختيار عليها لتعلّم ليلى.

- معقول تلموذة تعلّم تلموذة!

تمصمص شفاعة شفتيها، وهي تمسح جميلة الصغيرة النحيلة بتحديقها "من فوق لتحت"، تخبرها بقلق عن "ريتا" المعلمة اليونانية التي وضعت يديها في الشق من ليلى، فتبتلع جميلة ريقها بصعوبة، تمصمص شفاعة شفتيها ثانية، وتخبر جميلة ساخرة بأن فارس هو الذي استمات في إقناع سعاد هانم بما سمعه عن نبوغ جميلة في مدرسة البنات، لكن شفاعة وحدها هي التي حضرت الدرس، ذلك أن فارس حبسته أمه داخل غرفته تحت حراستها شخصياً.

صفعت ليلى جميلة على وجهها بغتة، جعلت من جميلة تستغرق دقيقة أو أكثر في استيعاب الموقف، قبل أن ترد لها بصفعة استجمعت فيها كل طاقتها، التوت ليلى متألمة وصائحة:

- تضربي بنت الباشا يا بنت العجانة!

طرفت عين جميلة، تنفست بعمق ثم فتحت الكرّاس، نظرت ليلى نحوها بغيظ كأنها تستعد لفعل شيء فظلت جميلة على ثباتها، أشاحت

ليلى بوجهها، فيما بدأت جميلة في الكتابة، فالتفتت ليلى بتوجس إلى جميلة التي بدأت الدرس كأن شيئًا لم يحدث.

تأملت شفاعة ما حدث بقلق، ثم حدقت بملامح "جميلة" ولم تعفها من التعليق:

- برضك "ريتا" ف الأول كانت جدعة زيك كده.

التفتت جميلة وتأملت نحت الخشب المبهر في قوائم كراسي الصالون، ثم فردت أصابعها فوق خدها لكي تداري موضع الصفعة، لكن عندما لحق بها فارس في الشارع واستأذنها في توصيلها إلى بيتها ابتسمت ورفعت رأسها، وبدأ حلم العيش في السراي يخايلها، الشيء الذي سيمضي متزايدًا في إرباكه إياها يومًا إثر يوم هو عجزها عن أن تختبر مشاعرها الحقيقية نحوه -نحو هذا الذي كانت تكفيها نظرة واحدة لارتعاشة شفتيه كي تطمئن إلى كونه يحبها- فهو لا يتمثل لها منفصلاً عن ثروة أبيه، بل يبدو هو والثروة شيئًا واحدًا، حلمًا واحدًا أو.. هاجسًا واحدًا، تخونها نباهتها فلا تعرف ما الذي تتمناه أكثر: أن يفقد ثروته حتى تختبر مشاعرها نحوه؟ أم ثروته نفسها؟ نتعثر أيضًا في فهم ليلى: الطيبة أحيانًا، العدوانية أحيانًا أخرى، التي تبدو غير معنية كثيرًا بأمر المال.

في زحام الأسواق تسير بجوار ليلى التي تلقي بالمال بلا حساب، تشتري أشياء لن تستعملها في الغالب لأكثر من بضع دقائق، تلتقي فيها سعاد على مائدة الغداء، أو حينما يدعونها لاستقبال واحدة من قريبات العائلة أو إحدى الضيفات.

- آخد ده ولّا ده يا جميلة؟

تسأل ليلى وقد وضعت في سبابتيها خاتمين ذهبيين، سيؤرق بريقهما نوم جميلة ليالي طويلة. ومع ذلك تجيبها بهدوء:

- على هواكي.

- لأ قولي إنتِي.

تختار جميلة.. وتلبس ليلى التي تثق برجاحة عقل صديقتها.

جميلة التي سعت لأن تكون صديقة لابنة البيه -التي "ترفس وتركل وتلكم" ولم تكف عن اعتبارها نصف معتوهة- كانت مستعدّة لبذل أي جهد يعزّز وجودها قريبة من فارس.

تقف جميلة أمام مرآتها تتأمل بريق السوار الذهبي في معصمها.

ينعكس البريق في ضوء المصباح على مرآتها، ويرتد نحوها مثل قوس ذهبي.

- جميلة أنت يا جميلة.. تنظر لصورتها مأخوذة.

لكنها في اليوم التالي تعيد السوار لصاحبته.

- ما أحب الذهب يا ليلى.

منذ حدق فارس فيها فسألته سعاد هانم: بتبص على إيه؟ أجاب مرتبكًا: ودنها كبيرة. قهقهت سعاد وابتسمت ست أبوها وغضبت جميلة، لأنه لفت نظر أمه إلى أن أذنها اليسرى كبيرة، أكبر قليلاً من أذنها اليمنى، لحق بها قبل أن تخرج من البوابة: زعلانة مني؟ لم ترد ولم تنظر نحوه، فأسرع وقطف وردة بيضاء وقدمها كاعتذار لها، فتركتها تسقط على الأرض، سبقها وسد الطريق بذراعيه: ما كانش قصدي. ابتسمت فغافلها وقبل أذنها اليسرى قبلة خاطفة ثم تراجع، بعينين مفتوحتين "مذهولاً من جرأته" مترين إلى الوراء، ثم التفت وجرى بكل قوته، ولم يبتسم عندما أتت بصحبة ست أبوها في المرة التالية، تضحك جميلة كلما تذكرت شقاوته وملمس قبلاته الخاطفة فوق خديها وتتعجب من قدرته على التظاهر بأنه لا يعرفها قط أمام أمه، تفرح بقبلاته

وتخاف أباه الذي لا تعرفه، تعرف فقط أن الهانم أمه "بجلالة قدرها" بالنسبة له "صفر على الشِمال". أدركت كلما كبرت أن فارس يعجز عن أن يكون فارسها بحق، وارتضت بأن يكون الشاب الصغير الذي تحبه، وتخشى تقلباته وتحسب لتخليه ذات يوم عنها.

مرات عديدة تكرر على أمها السؤال: ليه سمتيني جميلة؟ كانت تفضل أي اسم آخر.. فتحية، سميحة، عطية، وتشعر بجاذبية نحو اسم "ليلى"، وتتمنى المبادلة بينها وبين ليلى:

- إنتي اللي يليق عليكي اسم جميلة.
- انتي كمان جميلة.
- أنا؟

أذنها اليسرى الكبيرة أتاحت لها إنصاتًا أفضل ونمّت نباهتها، وجعلتها رجاحة عقلها موضع ثقة الجميع، عدا أنها لم تتخلص من الحرج، تحبك لف الطرحة فوقها، وتحتفظ بحب الولد الذي أدرك "عيبها" وأحبه، و.. قبّله، تبتسم عندما تندهش ليلى من إعادتها الأسورة:

- ما تحبي الذهب!! غريبة!

لم تعرف ليلى أنها مضطرة دوما الى توخي الحذر كمن يسير على حبل خشية أن تتزحزح شيئًا فشيئًا، لتجد تفانيها في مهام صداقة ابنة البيه لأجل عينيّ فارسها قد ألصق بها دور الوصيفة الذي سيفقدها هذا الحب، عدا أنها أحست في أحد الأيام بكونها أقل من وصيفة، كانت متعبة من اللف في الشوارع بعد أن طلبت منها ليلى أن تبحث عن فارس خوفًا من أن يقتل همام ويُضيع نفسه، وقفت تلهج لفترة بعدما رأته جالسًا على طرف كرسي داخل مقهى "مسك الليل" حتى هدأ تنفسها فنادته.

- كنتي عارفة!! صاح صيحة ملدوغ بعقرب وهو يضع يده داخل صدرية البدلة التي لمحت جميلة بروزها وحدست أنه يخبئ داخلها الطبنجة.

- شايل طبنجة!!

- مش شغلك. ليه ماقلتليش؟

- ماكنتش أقدر أفشي سر ليلى. تهمس بتأثر.

- سر ليلى!! ولا شمتانة في بنت البيه وبتتفرّجي عليها وهي بتغرق وتحط روسنا في الوحل!

- شمتانة! يا لهوي! أنا أشمت فيك! في ليلى!

شهور طويلة مضت وهي تبكي ليلى التي ظلمها الجميع، حتى جدران المشفى، حتى صديقتها الوحيدة "جميلة"، تلوم نفسها، كان يجب ألا تتركها وحدها، ألا تنجرح من رفضهم لزيارتها وتعود بخيبتها، كان يجب أن تصل إليها بأي طريقة، حتى لو اضطرت لمواجهة الرجل الذي سلبها أغلى اثنين لديها، لمواجهة رضوان البلبيسي.

انتظرت أيضًا أن يأتيها فارس معتذرًا بوردته البيضاء، لكن "ابن البيه" استكبر على نفسه الاعتذار أو ربما استكثره عليها، تفكر حائرة، أم أن الوردة صارت أثقل من أن يحملها؟!

عرفت أنه سافر، وبعد فترة أخبرتها شفاعة:

- شيّع جواب بيقول إنه هيتجوز خواجاية. بيضا زي القشطة.

صارتِ تخانق "دِبان وشها" وتضرب الناموسة بعنف: قرصتني كم مرة المجرمة دي!

يخرف سن الإبرة من أمام عينين ورمتهما الدموع ولم يسعفهما الضوء الشحيح المنبعث من شريط لمبة "الجاز"، ولكن لماذا تحسب نفسها قوية يعجب الناس بنباهتها وحسن تصرفها ثم تفاجأ بنفسها سريعة

الجرح؟ تنحني متألمة من شكة الإبرة، لولا اعتدادها بذاتها الذي ينجح في إخفاء ذلك:

- معلش هصلحها. يظهر الشريط عايز يتغير.

تشعر جميلة بأمها تعرف بحبها لابن البيه، فيما أرادت هي لها رجلاً من ثوبهم، بدلاً من الحلم غير المشروع لفتاة فقيرة تأكل من إحسان البيه، ولا يجب أبدًا أن تتنكر لجميله وتحوم حول ابنه.

ترفع جمالات صوتها مستنكرة:

- الشريط ولا عنيكي!

تصمت جميلة فتستطرد جمالات بينما تقطع الخيط بأسنانها:

- وماله سيد؟ عيبه إيه؟

أقرب أصحابه! تفكر في نفسها وتنقم على نباهتها التي لم تنفعها، على التفاهة التي بثّها القنوط، فبعد أن سافر فارس دون كلمة، وبعدما أرهقها تردي الأحوال، تعلّمت كيف تسبِّل عينيها المكحولتين وكيف تهز رِدفيها من تحت الملاية اللف وتتمخطر في الأسواق، فيأتي بدل العريس اثنان وثلاثة.. حتى أتى سيد، تمصمص جمالات شفتيها، بينما تشهق شفاعة وتضرب صدرها بيدها:

- هه! يا لهوي! مش لاقية غير صاحبه! أقرب واحد ليه!

- هو حلال له وحرام على غيره! زمانه متنعّم مع الخواجاية اللي زي القشطة.

* لا يعرف قلبي الألاعيب مثلك يا غدّار. تكتب في كراسها.

* بعدك أنزلق.. إلى مسافة متوهمة بين الحب والخداع، بين الجلد والخواء.

صالحت أباها ساعة زمن، ريثما عانقت كفه كف سيد ثم ارتفعت الأكف لقراءة الفاتحة وقبل أن يخطف أخوها الصغير كوب "شربات الورد" ظهر شيخ بعباءة بيضاء:

- بكره صيام كل سنة وإنتم طيبين.

واربت جميلة المشربية، وتطلعت إلى السماء فلم تشاهد هلال رمضان، فقط شاهدت، بينما تهبط ببصرها، ظلال أشخاص أعلى مئذنة جامع السلطان حسن التي ازدانت، في غضون دقائق بالأضواء. أسفل الشباك كان الصبية يمرون بالفوانيس: حالو يا حالو. رمضان كريم يا حالو.

أملت في بركة الشهر الكريم لتكلل خطبتها، وطلبت الستر وراحة البال، وبدا لها جموحها وعنادها قد صارا من الماضي، خاصة أن "النصيب" أتاها بابن "نعيم النجار" الرجل الذي تُجله، البطل الذي مات من أجل زملائه، وترك فيضًا من روحه في ولده "سيد" المتيم بالزعيم مصطفى كامل وموزع المنشورات من مارس ١٩١٩ وحتى هذه اللحظة، عدا أنه.. لم يقدر الفول السوداني حق قدره:

- كده جيبنا كل اللي عايزاه؟
- مافاضلش غير الفول السوداني. خالتك جمالات نفسها فيه.
- سوداني إيه يا شيخة! ما إحنا جيبنالها الأهم.. غلة ورز اللهم صلي ع النبي.
- بقولك نفسها فيه.
- خدي شيلي.............

تحدق في قدميها وهي ممّددة في السرير متسائلة: على فين؟

تفاجئ سيد بالإبرة والمقص في يدها في اليوم التالي وتخبره أنها لن تخرج بل ستبقى لمساعدة أمها فتلاحظ ضيقًا في نبرة صوته رغم عبارته: وماله.

في مرة أخرى فاجأها:

- روحي امسحي الحتة لأمي يا جميلة.
- هه! ده أنا لسّه مخلصة مسيح عندنا. ما تمسحها أختك.
- أختي بعافية شوية.
- ألف سلامة إن شالله اللي يكرهها. خلاص الحتة مش هيجرالها حاجة لو ما اتمسحتش يوم.
- كده! طيب يا جميلة.

توجست من نبرة الوعيد في صوته، انتظرت قليلاً قبل أن تخبره أنها ستستمر في العمل بعد الزواج، فأطرق إلى الأرض، كان لديها احتياج حقيقي لأن يكون لها قرشها الخاص، تنفقه على أمها، على تعليم إخوتها، كما فعلت معها ست أبوها، أو حتى على نفسها دون أن يمنعها أحد، رفع رأسه بنظرة حاسمة وقبل أن يعلن عن رفضه لعملها فاجأته بالضربة القاضية:

- العصمة ف إيدي.

تصرخ أمها بعد أن طار سيد:

- فاكرة نفسك بنت بارم ديله! ابقي قابليني إن حد عبّرك بعد كده.

وعلى الرغم من أن سيد عاد واعتذر، وعدّ تعنتها ردّ فعل على تعنّته، بل بلغ به الأمر حد انتقاد نفسه، ثوريته في مواجهة الاحتلال بينما ما زال يحبو في معركته ضد الأفكار التقليدية الرجعية، خاصة فيما يخص النظرة للنساء، عدا أن كلامه لم يعنِ قبولاً بشروطها، لذا لم يدفع بالثقة إلى نفسها.

دارت رحى الحرب بينها وبين أمها طويلًا.

- فهميني إنتي أمي ولا مراة أبويا!!

منتشية بالماء، تحس انزلاق قطراته بين ثنايا جسمها يدًا حبيبة تدللها، أكثر من غيرها متعطشة إلى الحب، إلى رجل يشاركها أحلام وسادتها، تسكب ماء الطست وتلتقط جلبابها "أبو كم طويل" وتنظر إلى حبات الخرز والخيوط الملونة التي طرزت بها "بيديها" قمصان نوم بأكمام قصيرة أو بحمّالات أو دون أكمام ولا حمّالات في انتظار رجل يعطرها برجولته الحقة، رجل لا يشبه قط رجل اللوحة الذي يخدمه صفان من البنات، لا يشبه رضوان البلبيسي. فقد الخرز بريقه ولم يأتِ الرجل.

- يا وكستك في بنتك يا جمالات!

تردد أمها بعد أن طار سيد وكل من أتوا بعده لبنت "بارم ديله"، فردَّتهم بشروطها، بكت جميلة عندما ماتت أمها وتمنت لو تقاسمتا يومًا واحدًا من الوئام، قبل هذا الموت المفاجئ، لو أخبرتها، ولو مرة، كم تحبها.. رغم كل شيء، أحست بعدها جفوة الحياة، دون صفع ودون حنان أيضًا.

عرفت مبكرًا عناء البحث عن الرزق، وما إن اطمأنت على قدرتها على خوض هذا التحدي "بفضل ما أنفقته ست أبوها على تعليمها" حتى بدأن يتسربن ويتركنها وحيدة.. ست أبوها، ليلى، جمالات، تشعر بالسرداب طويلا ومظلما، الأبواب كلها مغلقة، والطريق لا ينتهي، أين أنا؟ توقد عود بخور وتستعيذ بالله من شر الوسواس الخناس، تتحسس نصف فراشها الخالي ثم تتلمس أخبار فارس.

- وسيد عامل إيه؟ يجدها بعد عودته.. لأنه يحبها "تُمني نفسها وهي تتأمل آثار الشهور والسنوات فوق وجهه ثم تجيبه مبتسمة".

- لأ خلاص. مفيش نصيب. بس..

- عندي خطيب جديد.

يذهب ويتزوج ثانية ثم تموت زوجته فيعود.

- وخطيبك عامل إيه؟

- هقولك إيه! برضه مفيش نصيب.

تتذكر تلك النظرة التي تخترقها بها أمها لائمة:

- طفشتي سيد وكل اللي بعده عشان ابن البيه!!

تنكسر عيناها أمام أمها، عدا أنها، ولدهشتها، ستردد نفس "الحجج الفارغة" أمام فارس:

- بس أنا دلوقتي بشتغل. وكان شرط الشغل إني أكتب إقرار بإني ما أتجوزش.

تتلذذ وهي ترى عينيه تهبطان نحو الأرض، تتشفى في صدمته، ثم تلتفت وتنحني لتكتم بكاءها بعد رحيله.

تقف أمام بيت رضوان بيه العتيق الآن، وترى أعمدته تطول نحو السماء، بينما تشعر بقامتها تقصر تحت ثقل البدن الذي بدأ يترهل ويفضح كهولته وتعاستها.

- لماذا تكذبين؟ لماذا تهربين ممن تحبينه؟ لماذا تأخذك قدماك إلى السراية راجية الله أن ترينه الآن؟

تسأل نفسها ولا تجيب، فقط تتنهد ثم تتعجب من أن يجيب الله رجاءها بهذه السرعة.

- ياااه! مش معقول.
- فعلاً مش معقول.
- مش مصدق إني أشوفك دلوقتي. من زمان وأنا بتمنى.
- فاتني أعزيك في وفاة البيه.
- حاسس إنه من زمان قوي.
- سامحني على التأخير.
- أي تأخير فيهم؟
- ماتنساش إنك سافرت من غير حتى..
- وإنتي ما صدقتي.
- وإنت؟ مش اتجوزت؟
- يمكن اتلخبطت كتير. بس الحاجة الوحيدة اللي متأكد منها إنتي عارفاها. إحنا الاتنين.. من أول مرة.. من أول يوم..

فيما يتكلم تتأمله، فترى في ملامحه نفسها وكل ما تمنّت:

- بس.. فات وقت كتير قوي وإحنا...... تهمس.

أخبرها عن الثروة التي طارت، عن مؤامرة صافيناز وصدمة سعاد، أجهدت نفسها كي لا تبتسم حتى لا يظنها شامتة فيه مرة أخرى، همت بالكلام فقاطعها:

- عندي كلام أكتر من كلامك. بس ورايا مشوار ضروري.

لو تركها تتكلم لقالت له: ولا يهمك. إنت تقدر تبني نفسك. إنت بالنسبة لي أحسن من كل الناس. عدا أن الفرصة لم تسنح؛ في كل مرة يلتقيان في وقت غير مناسب، يلتقيان لحظة يليها افتراق طويل؛ كأن قدريهما يتقاطعان في نقطة، ثم يخالف طريق كل منهما الآخر.

تنتبه إليه يضغط صدره "موضع الطبنجة" داخل البدلة ويهمس متعجلاً:

- ساعة زمن وراجع.

تراقبه وهو يمشي ويبتعد، وتفكر في ضغطة يده بوجل:

- راجع؟

مصباح الكيروسين الذي أضاء دفترها لتحضِّر درس اليوم التالي، ألقت في ناره رسائل فارس فيما راحت ذكريات القبلات الخاطفة في بئر السلم وعلى سطح البيت.. تمايل كالأشباح فوق الجدران الكابية.

- ليلة حافلة.

يهنئ الشرطي مدكور نفسه بعد أن استصدر أمرًا بمداهمة الشقة موضع الاشتباه، جهز رجاله، سلاحه، السيارة، ثم دعك راحتيه إحداهما بالأخرى.

- طاخ طاخ.

طرقوا باب الشقة بعنف.

- اكسر الباب. أمر مدكور العساكر.

ظهرت أمامهم صالة صغيرة، متواضعة التأثيث، بكنبتين بلديتين تمتد بينهما مائدة مستطيلة يجلس إلى كراسيها أربعة شبان تحركوا بقلق، فبادرهم:

- مكانك انت وهو. تجمدوا ذاهلين.

انبرى العساكر يجمعون بضع وريقات وأقلام من على المائدة، فانسكب فوقها أحد أكواب الشاي.

أشار لهم مدكور: فتشوا المكان.

يمسح بعينيه المكان، يزفر ساخرًا من صورة الزعيم "محمد فريد بك" معلقة على الجدار، ثم يلتقط كوب الشاي الذي لم ينسكب ويجرعه "مرة واحدة". يظهر العسكري آتيا من غرفة داخلية:

- مفيش حاجة.

يتابع مدكور عين أحد المجتمعين فيجده ينظر إلى درج البوفيه فيفتحه ويخرج منه رزمة ورق يلوح بها متسائلًا:

- أمال ده ايه؟

يرتعش أحد الشبان الأربعة:

- انا ما أعرفش حاجة عن ده.

- إخرس.

- مش ده المنشور اللي .. يتساءل أحد العساكر فيقاطعه مدكور:

- حرز المضبوطات، منشورات معادية، حبر طباعة، طبنجة ..الآلة الكاتبة فين؟ انطق.

يظهر عسكري آتيًا من غرفة داخلية وبين يديه الآلة الكاتبة. يضحك مدكور ثم يرفع يده:

- اقبضوا عليهم.

يشعر بانتشاء حقيقي أن يحش هؤلاء الثورجية مثل أعواد البرسيم، هؤلاء الذين يتملكهم الغرور فيظنون أنفسهم أقدر منه، من الباشوات الكبار، من المندوب البريطاني، من ملك البلاد نفسه، على تقييم الأمور ووضع تصورات عن مستقبل البلد، وينبرون لتحريض العامة والغوغاء على المظاهرات والإضرابات الاحتجاجية، لن ينسى قط محاولة اقتحام قسم الشرطة حيث يعمل، لم يفكر بعدد من قتل ومن أصيب، كان همه الأوحد حماية عتبة القسم، لن يسمح بذلك أبدًا، على هؤلاء الأوباش أن يقتلوه أولاً قبل أن يعبروها، لو كان الأمر بيده لكبل هؤلاء السفلة الأربعة الآن وألقاهم على قارعة الطريق ثم هرسهم تحت عجلات هذه العربة التي حشرهم العسكري داخلها مهانين، مكبلي الأيدي، هرسهم الذي يتمناه للأسف لن يفيده، فهو بحاجة إلى اعترافات، لن ينام هذه الليلة قبل أن يحصل عليها، كي تكتمل وتُحبك بها أركان قضية يأمل

أن تؤهله لترقية تعوضه عن أخرى ضاعت بسبب الكلب السوالمي الذي سرق محفظته، وجعله موضع سخرية الصغير قبل الكبير في الجهاز، لكونه صار ضحية لنشال هلفوت، اضطره لاستخراج أوراق شخصية جديدة، والأسوأ أنه حرمه من مبلغ محترم من المال يصعب أن يعوضه، ويصعب أيضًا أن يعلن سرقته خوفًا من المساءلة عن مصدره، ولهذا ظل لسنوات يبحث عن الكلب السوالمي، حتى وقع في قبضته مصادفة، عذبه عذابًا لا يحتمله بشر لكنه لم يقر بمكانها ولا حتى اعترف بسرقتها.

- هل كرهه أكثر مما حسده أم العكس ؟؟ يتساءل.

الأسوأ أن تعذيبه سبّب له حرجًا أمام المفتش الذي أخلى سبيله بدعوى عدم كفاية الأدلة، بل بلغ به الأمر أنه "ما صدق يمسك عليه غلطة" أبلغ عنها القائد الذي وبخه ونزع اسمه من قائمة الترقيات، إلا أنه لم يدع هذا الكلب يغيب عن عينيه، ولم يهدأ حتى تأكد ظنه عن صلته بالتنظيم السري، وبدأ يلملم الخيوط التي تضعه ضمن المشتبه بهم في جريمة خطف عساكر الإنجليز المتكرر في أثناء خروجهم مترنحين من الملاهي والحانات. استعاد ثقة القيادة، حقق نصرًا على زميله مدعي النزاهة، وعلى آخر يتهمه بالتلذذ بتعذيب المعتقلين.

- غبي. عايزني أطبطب ع المجرمين اللي بيخربوا البلد!!

أكثر ما يغيظه هو هؤلاء الضباط الخونة الذين ينحازون إلى الأوباش مدعي الوطنية، حتى الإنجليز وجد بينهم من يؤنبه على تعذيبهم:

- بالقانون مش بانتها كه.

أراد أن يصرخ في وجه "جون":

- قانون إيه مع دول! روح العب بعيد يا دلوعة أمك.

ينظر لجون وهو يمرر أنامله الرفيعة في شعره الأشقر الحريري، دائم الترنح فوق عينيه، ويشعر أنه أبعد ما يكون عن شخصية رجل البوليس، كان مناسبًا ليكون شاعرًا أو رسامًا أو غيرها من المهن التي يطيب للمخنثين اختيارها. يبصق من شباك السيارة.

"ألبرت" هو الذي يفهمه، يجد فيه نفس صرامته وقوة بأسه، إضافة إلى الوقار والكياسة البريطانية الشهيرة، والابتسامة الباردة التي لا تفارق شفتيه، ناهيك عن النظام المتأصل في أعماقه، فبين عمله وسهراته الترفيهية حدود قاطعة، يعرف كيف يعطي لكلٍ حقه، يراه في الملهى منتشيًا بدرجة لا يبلغها هو "مدكور" إلا عندما ينجح في انتزاع اعتراف من "مجرم".

- خد جون على هواه وبعدين اعمل اللي انت عايزه.

- جون واجهة يعني؟

- واجهة إيه! نو نو. جون وأنا .. كلنا بنحترم القانون. مش معنى إن الظروف بتجبرني أحيانًا اني .... أبقى ما بحترمهوش. لأ.

يشعر بافتخار حقيقي كونه يحظى بثقة وتقدير ألبرت، يجمعهما توافق الأفكار والتقدير المتبادل، و.. سهرات كباريه "القلب الطاهر"، منحه ألبير فيضًا من خبراته في اختيار جودة وعتاقة الخمر، وأمامه وحده سمح ألبير لنفسه بالتعبير عن افتقاده لوطنه ومرارة ابتعاده عن أسرته، مرة واحدة وبخه فيها ألبرت واتهمه بتجاوز الحدود بشكل يسهل إثباته عندما مات أحد المعتقلين "في يديه":

- عيب المصري إنه ما بيعرفش يتحكم في انفعالاته.

لكنه يدعمه في أغلب الأوقات، لذا سمح له بتخصيص مخبر لمراقبة السوالمي الكلب لأكثر من عام حتى أتت اللحظة التي انتظرها لسنوات.. هكذا ظن:

- قبضنا على الواد.

فرك كفيه ببعضهما، فأحس بنافورة دم تتدفق داخلهما، أحس بقدمه ترتفع بطاقة كبيرة لتدفع باب غرفة المكتب، عدا أن نظرة واحدة للوجه جمدت حماسه:

- ده مش هو يا حمار. ده ابن رضوان بيه البلبيسي. قالها زاجرًا المتباهي ومغتاظًا من الكلب الذي تحول إلى ثعبان مراوغ وخبيث، ثم حدج ابن رضوان بنظرة متشفية ورفع ضحكة وقحة.

لفترة طويلة كان معجبًا بشخصية رضوان البلبيسي التي هيأته للصعود إلى مصاف كبار البلد، بدهائه وتوازنه اللذين أكسباه هيبة وتقديرًا، ثم صار يشعر بمرارة تختلط بلعابه مع نطقه لاسمه، فيما تجاهل الآن ذكر اسم "فارس" ابنه الذي بقيت علاقته به شائكة طوال فترة اقترانه بليلى، لا يحب قط أولئك الشبان الأرستقراطيين المنعمين - عندما يدّعون الوطنية- الذين يمكن اعتبار فارس هذا أحدهم، لديه كل شيء، المال والمكانة والمستقبل المرموق، ملعقة ذهب في فمه من المهد إلى اللحد، ما الذي يضيره أن يحكم البلد مندوب بريطاني أو عثمانلي أو جن أزرق!! ما الذي يضيرهم من الإنجليز الذين فتحت لهم أبواب البلاد هوجة عرابي التي يصرون على اعتبارها بطولة لا "خيبة قوية" كي ينضموا للرعاع ويدفعوهم للخوض في صراعات ليسوا أهلاً لها!

- تحيا مصر! يا قلب أمك إنت وهو!!

مدعون حقيرون لا يجدون ما يفعلونه بحياتهم. كان سيتلذذ بتركه عدة أيام مهانًا بين المجرمين، لكنه خاف أن يثير هذا لغطًا من حوله لأنه أخوها، عرف كثيرات قبلها وبعدها لم تجرحه إحداهن بقدر ما فعلت هي، "ليلى"، كانت تتمنّع عليه، تزجره، تتجاهله ويحبها، يعرف أن قلبها ليس معه ويحبها، يموت فيها، حتى في بلادتها تجاهه التي أحسها من ليلة الزفاف، كانت حبلى في الشهر الخامس مستغرقة في النوم على جنبها، يتأمل وضاءة بشرتها وانحناءات جسمها الحانية ويشكر الله على نعمته، ينظر للصندوق الصغير الموضوع على الكومودينو الذي تجمع فيه مساحيق التجميل ويبتسم لأنها لم تستعمل شيئًا منها قط! صندوق صغير أثار أنفًا خبيرًا يشتم رائحة الجريمة من على بعد أميال، رائحة الجريمة لن تداريها العطور المثيرة أو رائحة البودرة والكريمات، بهدوء حتى لا يوقظ هذه الجميلة النائمة يأخذ الصندوق، يفرغ محتوياته، يقوده أنفه الخبير إلى هتك قعره القطيفي الذي يرتفع قليلاً عن قعر الصندوق، آه.. وجدتها، يطير من الفرح مفتخراً بأنفه الخبير وحاسته المهنية المرهفة، فرحًا يستمر معه وهو يقرأ رسائلها.. الرهيبة.. كلمة بكلمة، بعناية من يذاكر دروسه لأداء امتحان، أو من يبحث عن دليل دامغ يقدمه

للقاضي ضامنًا، بضمير مستريح، الحكم بالإعدام، اهتزت كل خلية فيه بذبذبات حادة يمكنها أن تشغِّل جهاز الجرامافون عوضًا عن الكهرباء.

لم يجد منها ما يشي بهذه الطاقة العاطفية المذهلة، يتعجب ويغضب، ومع أن الجمود الذي وجدها عليه كان يمثل له أجمل ما فيها، ومع أنها لو أظهرت له مثل تلك العواطف الحارقة التي حوتها رسائلها اللعينة لقل شأنها في نظره، إلا أنه اكتوى بالغيرة من آخر تعشقه على هذا النحو، تستجدي رضاه وتشتهي قربه، صاح وهو يضرب المائدة بسيف يده متألمًا كأنه المضروب لا الضارب:

- آآاه.. المسكينة!!

لم يوقظ المسكينة من النوم، فقط ظل يسب ويلعن البيه المتغطرس الفاشل في التربية لتركه ابنته "تدور على حل شعرها"، انتظر حتى استيقظت وأكلت وشربت اللبن المفيد للحبالى، ثم وضع أمامها الرسائل، بلعت ريقها بصعوبة ثم أجابت السؤال الذي لم يسأله:

- شيء انتهى من زمان. انتهى.

وضعت المصحف على عينيها وأقسمت له أنها لم تلتقِ ذلك الشخص منذ فترة طويلة قبل زواجها.

زفر بارتياح، لم يبقَ إذن سوى أمرٍ بسيط: أن تذكر له من هو؟ هذا هو سر الرسائل، شوكتها الخفية التي تجرحه كل لحظة، وعدا ذلك فلم تخفِ نيران كلماتها العاشقة بذلك الخط المنمنم شيئًا، عدا أنه بعد طول الأخذ والرد لم يحصل منها على اسم، مجرد اسم يشفي غليله هو كل ما أراد، كان ينتوي أن يأتي بصاحب هذا الاسم حتى لو من سابع أرض، كان الفضول يقتله لرؤية هذا الذي جعل من معبودته ذات يوم بعيد عبدة له، نعم، يرغب في رؤيته ثم تمزيقه أو حرقه كي لا يبقى لذكراه ذيل وينتهي الأمر، بل الأفضل أن يدفنه حيًا أو أن يعبئه في "شوال" محكم ثم يقتله رفسًا لئلا يقع على الأرض شيئًا من دمه يثير ذكره، هو يستحق دون شك.. "أليس من يفعل ذلك، من يجعل هذه المليكة البريئة تتولّه به إلى هذا الحد، يستحق أن يُقتل مرات ومرات؟ يفكر وهو يكز على أسنانه غيظًا.

لكنها لم تجبه. لو فعلت، فقط لو فعلت، لو أجابته، لو ذكرت اسمه، لما حدث شيء مما حدث، ولبقيا معًا إلى الأبد، لكنها لم تفعل، لم تذكر اسمه، خشيت أن تفعل، خافت عليه!!

- الحقيييرة. تخرج الكلمة مفتتة من بين كزه لأسنانه.

الحقيرة التي يعشقها حرمته متعة إذلال وتعذيب وتحقير من ارتكب بحقه هذه الجريمة، غسل وجهه بماء بارد ثم وقف أمامها، لم يلمسها، بل راح يطبطب عليها ويذرف الدمع لأنه يعرف أن قاضيه لن يتراجع عن الحكم بالإعدام، بل أسوأ، سيبتدع أسوأ عقاب يمكن أن تعاقبه امرأة، ولا يمكنه منع نفسه عن ذلك، يقبلها في جبهتها كل يوم ثم يذهب ليفش غله في نزلاء القسم:

- فاكر نفسك مين يا خَول منك له!!

تشرئب أعماقه بالرضا وهو يرى ارتجافهم من صوته وعجزهم عن فتح أفواههم أو رفع عيونهم نحوهم، يربيهم بدلاً من أهاليهم الفاشلين، ويصيح في وجه زميله الذي يتهمه بتعذيب المعتقلين:

- ده تعذيب!! إيه عرفك إنت بالتعذيب!

حتى بعد أن أخذ الولد الذي يشبهه تمامًا -ويا للعجب من قدرة الخيانة على المخادعة، فالولد بالفعل ابنه، لكن هذا لا يعني أنها لم تخنه، لم تخن تصوره عنها، الصورة البريئة الطاهرة التي حسبها هي يوم رآها وسعى على الفور لأن يتزوجها- وذهب إلى الواحات، لم ينسها ولم يتوقف لحظة عن حبها، ثم بكاها بكاءً مريرًا بعد أن علم بموتها، حتى إن حزنه الكتيم جعله يهمل الولد "الذي يشبهه تمامًا":

- بطنه سايبة. عنده استفراغ وتمشية. الوباء.. إنت عارف.

- يا وقعة سودة!! يطيح مدكور فوق الكرسي منهارًا.

رأي بعينيه الطبيب يسحق حبوبًا ثم يذيبها في الماء ويقطرها في فم الصغير لكن جهوده عجزت عن إحراز أي تقدم.

- اتأخرت. يقولها لمدكور ورأسه في الأرض.

ليته ما ذهب إلى الواحات، يهمس لنفسه وهو في القطار الذي سيعيده إلى نفس القِسم الذي كان يعمل فيه، لو وجد "ضناه" أمًا ترضعه بدلاً من خادمة غبية وجاهلة وكسول لربما ما مات، يحدث نفسه لائمًا، نادمًا، تذوب عيناه من البكاء، ولا يخفف عنه إلا صراخ المعتقلين الذي يمنحه العزاء بأن هناك من لا يقل تعاسة عنه، من يتألم مثله، ألمًا لم يفارقه حتى الآن وهو في السيارة التي تحمل قاطرتها الأربعة المقبوضين وأدلة اتهامهم، بينما يجلس هو في مقدمتها بجوار السائق، يفكر بالغد بعدما تسربت إليه الأخبار عن إلغاء الدستور وإعلان الأحكام العرفية، بعد ساعات قليلة ستأتي لحظة كان ينتظرها بفارغ الصبر كي تسير البلد "صح الصح"، كي نتوقف الفوضى المدعومة بهذا الدستور الغبي، ستتوقف الجرانيل عن بث سمومها باسم حرية الصحافة و...

ينظر للشوارع المكتظة بالناس الذين يختلفون في الملامح والمظهر، في إيقاع الخطى، في نبرة الصوت، لكن سلوكياتهم متشابهة في فوضاها وحماقتها وضجيجها، عدا... هذا الذي ينسل بتلفيعته السوداء، بصمت ونعومة ودهاء وأريحية الثعابين، فلا يشعر به أحد، لا يشبه أحدًا.

- وقف هنا.

يشير بيده ثم يفتح باب السيارة وينزل، ينظر له السائق متسائلًا، فيطمئنه:

- نص ساعة وأحصلكم.

يسرع في أثر الثعبان السوالمي، يصعد درجات الحجر الملتوية كالأفعوان، يجد نفسه في ساحة تؤطرها أبواب خشبية متداعية، يتلفت بقلق لفقده أثر همام، ثم يسمع صوتًا فينحرف يمينًا في أثره ويصعد درجتين أخريين ليجد نفسه في ساحة أخرى، بها بوابة كبيرة لبيت كبير بحديقة صغيرة يلمح همام وهو يقفز فوق سياجها:

- يا ابن الحرامية!!

يتردد في القفز وراءه، لأنه لا يعرف ما أو من بداخل البيت، ولأنه ليس معه قوة شرطية تدعمه، يكمن في انتظاره، بعد دقائق يراه

خارجًا يجذب، بغضب، رجلاً آخر - لا يميز مدكور وجهه - من رقبة جلبابه وينتحي به إلى خلفية البيت، يتبعهما مدكور في صمت، يقترب منهما أكثر فيسمع شجارهما:

- متجوزها على سنة الله ورسوله.

- وليه ما تعرّفنيش يا ابن بلدي؟ ولاّ خلاص بقيت أراجوز ونسيت الأصول؟

- الأراجوز مش عيبة يا همام وإنت شفت إن الدور مافيهش مهيصة ولا قلة قيمة.

همام ساخرًا:

- وفين المرجلة يا عسعس يا بتاع الوطنية الخايبة!

يهمس مدكور لنفسه: - عسعس!! الأراجوووز!!

الحقير الذي يكرهه أكثر من كلب السوالم نفسه، الذي جعله أضحوكة وسط الرعاع، وحتى وسط زملائه الخونة مدّعي الوطنية، يتغامزون بينما يخبرونه عن أراجوز يؤدي دور "عسعس" الشرطي

الذي يعذّب المعتقلين ويسلبهم متعلقاتهم، يسرق حتى الكحل من العين، والابن من أمه.

يحدق فيهما بغيظ:

- الهدفين الوسخين سوا والطبنجة عمرانة وماحدش شايفك يا.. دبور.

يرى همام يجر الأراجوز:

- أيييوه يا همام.. عفارم عليك! جره يلا لغاية الضلمة كده عشان آخد راحتي. يصغي:

- ماحدش يعرف. ما كانش ينفع حد يعرف إني اتجوزتها.

- قصدهم مين يا ترى؟ يفكر مدكور.

سيقتلهما أولاً - قرّر - ثم سيصعد ليرى بنفسه من التي غضب همام لزواج الأراجوز منها، يراقبهما وقد يتوقفان في بقعة هادئة مظلمة، يقترب مدكور منهما:

- مكانك إنت وهو.

يظهر أمامهما، فيرتبكان، ويد همام ما زالت قابضة على .. متولي:

- حضرة الظابط! يا محاسن الصدف.

- سيبه. ابعد عنه. ارفع إيديك فوق.

يترك همام متولي، مدكور ينظر بغيظ لمتولي الخائف:

- إنت كمان ارفع إيديك يا أراجوز الكلب. بقى إنت يا اللي ما تسواش تلاتة أبيض تجرّسني أنا!!

يلمح فرحة في عين متولي رغم الخوف، يفكر بأن هذا الأحمق لا يعي خطورة ما يفعل، فيزداد غيظ مدكور:

- مش هتكفيني فيك موتة. هموّتك ميت مرة يا واطي.

ثم يحدق في همام:

- وانت؟ ازّاي يا له تستجري وتسرق محفظتي؟

- محفظة إيه؟

- انطق. مين اللي بيدفعلك عشان تقتل عساكر الإنجليز؟

- ما قتلتش حد. سرقت سلاح آه لكن دم لأ.

هو التحقيق ع الواقف كده! بيناع القسم وحقق هناك.

- لا يا روح أمك. لا قسم ولا يحزنون خلاص. ولا دستور كمان.

يقهقه، ثم يحرك عينيه بين الاثنين حائرًا:

- مين فيكم أتسلّى بيه الأول؟ ينظر لهمام

- خليك إنت للآخر. هشويك على نار هادية وأمزمز بيك على كيفي.

يطلق رصاصة بينهما ينتفض لدويها متولي. يأتي صوت أقدام فيلتفت مدكور، وربما يصيخ السمع كي يطمئن لعدم وجود أحد، كان همام قد كبش حفنة غبار وفاجأه بقذفها نحوه، فيضغط مدكور الزناد وتخرج طلقة أخرى، عدا أنها في المليان هذه المرة، يلمح همام وهو يميل أمام متولي، وبينما يحرك الزناد ليطلق الثالثة يسمع صوت طلقة فيندهش:

- من هنا؟ من أطلق النار؟ من أصابت هذه الطلقة الغريبة؟

يشعر بتشوش أفكاره متواكبًا مع ألم حاد في صدره، يعجزه عن ضغط الزناد، وحتى عن الإبقاء على الطبنجة في قبضته، تفلت وتقع على الأرض، يترنح وراءها ويميل إلى اليمين قليلاً ثم يتهاوى ويلمح ابن رضوان يقترب. يهمس في نفسه:

- إنت؟

يأتي صوت نسائي مفعم باللوعة، صوت يعرفه، من بين غمام يغشى عينيه أمكنه أن يراها تقترب.

- هي لم تمت! كنت حاسس. آاه. يشعر بالفرح رغم ألم صدره: هي ملتاعة من أجلي.

تتوقف عنده وترمقه بنظرة تخيفه، يخشى وهو يراها تضم شفتيها باشمئزاز أن تبصق عليه، لكنها تعبره ويلمحها تنحني فوق متولي:

- متولي؟ رد عليا يا متولي.

- آآآآه!! الأراجوز يا.. ليلى!!!

أسفه يفاقم من سرعة هروب أنفاسه، لكنه يلمح متولي وهو ينهض ويتجه نحو همام المستند على الجدار والدم يتدفق من صدره:

- ليه كده يا همام؟ ليه تفديني بروحك؟ ليه؟

يغمض لحظة ثم يفتح عينه بصعوبة فيرى فارس يضغط بمنديله صدر همام ليوقف النزيف هامساً:

- إنت!!

ثم يرى النظرات المتبادلة بين ليلى وفارس:

- ليلى!! يهمس فارس مذهولًا.

ثم بينها وبين همام، بلوعة كتلك التي أحسها في رسائلها.

- أيكون هو من كتبت له الرسائل؟ هو من سرق محفظتي؟ هو من دمر سعادتي ثم حياتي؟ هو... يبكونه كلهم الآن ويتركوني، لا يأسف لحالي أحد، لا.... يبتعدون أم أبتعد، أم أنها أمي هذه التي تقترب بإزار أبيض؟ يراها تمد يدها نحوه: تعالى.

يشعر بالغضب، بقسوة الغدر، يغمغم:

- لا، اتركيني، ليس الآن، لا....

هل من خاتمة!؟

إلى الدرب الذي غادره العفريت ابن مبارز مبكرًا يعود، في نعش يحمله متولي من جهة، وفارس من الجهة الأخرى، لم يسعف متولي الوقت ليحضر الطرحة التل لأمّه، وبعض الهدايا لإخوته، وما زال فارس يشعر أنه في حلم، فقد أباه الذي ظنه سيعيش أبدًا، واسترد أختًا ظن نفسه دفنها من سنين، كانت لديه رصاصة ادّخرها سنوات لكي يقتل ابن مبارز، عدا أنها اختارت أن تستقر في صدر قاتله.

في الجانب الآخر من الدرب، عند شجرة اللبخ، كان العمل يجري على قدم وساق بعد التخلص من الثعبان وزوجه وبيضه وسلساله، وأيضًا بعدما نصب حسنين دعائم خشبية حول الشجرة، شجرة ذقن الباشا، التي بدأت تهرم، فتجرّأ عليها البق الدقيقي وحفار ساق اللبخ وغيرهما من الطفيليات والفطريات، فاستخدم حسنين وأتباعه مبيدات ومعالجات

ناجعة، كما عوضها بمغذيات وأسمدة، وغرس بجوارها صفًا من الشجيرات الظليلة من نفس الفصيل بطول الدرب، خاصة بعدما اطمأن لارتفاع الأصوات الداعمة لمشروعه الذي يقوم على أن الدرب ماضٍ لما قُدر له ولن يوقف مساره شيء، ورغم استشراء الاحتجاجات الشبابية على مجمل الأوضاع الجائرة المحنطة من سنين، فذات ظهيرة حارة أُطلقت الأعيرة النارية في الهواء احتفالاً بانتهاء البناء، وأتى المقرئ وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم، فيما وزعت النسوة أكواب "الشربات"، وما إن تعالت الزغاريد وترددت أصداؤها في الفضاء حتى بدأ الفوح.. الذي عجزت ذقن الباشا المزهرة ذات الشذى المميز عن إخفائه، حُفر بعد فترة مصرفٌ هائل بجوار المقام "مصرف بلبيس"، فراح رواد المقام يعزون الرائحة الكريهة إليه، عدا أنه قبل عدة شهور من يومنا هذا، تم غلق المصرف لظروف تتعلق بالبيئة، سمعتُ بهذا من جارتي على المقعد المجاور بالسوبرجيت، ومع ذلك ظلت الرائحة بنفس القدرة على النفاذ، راحت جارتي تغطي أنفها بمنديلها كي تتقي الرائحة الكريهة، أشارت إلى السائق أن يسرع ولم تسترد أنفاسها الطبيعية إلا بعد قطع السيارة عدة كيلومترات، وهذا ما أثار فضولي وأعادني لأتوغل في درب السوالمة الذي أُريد له أن يكون "جنة رضوان"، التقيت أناسًا ودخلت ديارًا، سمعت حكايات عجائزها

عن الشجرة والسراية والبيه وأبناء الدرب، حكايات وذكريات تداخلت بعضها ببعض وشاب أغلبها اختلاط الحقيقة بالخيال والممكن بالمستحيل، في منتصف إحدى الحكايات تبين لي أن البيه الذي تحدث عنه إحداهن ليس هو نفس البيه الذي تحدثت عنه سابقتها على الرغم من تشابههما، وأن دروب اللبخ كثيرة في هذه المنطقة، كما مالت الترجيحات إلى أن السراية لم يسكنها أحد بعد إتمام تشييد المقام، فيما حكت إحداهن عن الأصوات التي ظلت، لسنوات طويلة، تنبعث من داخلها، متنوعة بين قهقهات الغرور وصيحات الغضب وآهات الحسرة و.. شجو الأغاني الحالمة، قيل أيضًا إن السراية تحوّلت قبل ما يقرب من نصف القرن إلى مدرسة لأبناء الدرب، وجعلني منظر زجاج النوافذ المحطم أفكر بصغار بمرايل كاكية اللون وسواعد نحيلة يلعبون في حوش المدرسة "الذي كان ذات يوم حديقة نادرة النباتات" وترتفع سيقانهم بحماسة قاذفة "الكرة الشراب" لأعلى، قيل أيضًا إن المدرسة تم إخلاؤها من فترة قريبة، بعدما صارت آيلة للسقوط، وإن مازالت أعمدة الرخام تسمق بنفس الشموخ، عدا أن نقوشها البديعة الدقيقة دُفنت تحت طبقات وطبقات من الغبار.

بقي أن الشيء الوحيد المؤكد، الذي رأيته بعينيّ، هو رواد المقام الذين ما زالوا يتمسحون في الضريح مرددين: شي لله يا سيدي.. يا ولي الله.

قد يكون درب السوالمة مسرحًا لصراع دار بين الحب والتسامح والجشع والأنانية والولع بالسلطة، أو قد يكون أي شيء آخر، عدا أنه سيظل مثيرًا للدهشة أن تُطلق صفة "جنة" على مكان تندم بعد عشر دقائق من وصولك إليه، لكونك لم تحضر معك كمامة طبية، أو على مكان شهد.. ما تعذر جمعه بين ضفتيّ هذه الرواية.

تمت

المحتويات

الموضــوع	الصفحة
مفتتح	٥
١ – سعاد	٩
٢ – شفاعة	٢٧
٣ – فارس	٦١
٤ – سعاد٢	٨٣
٥ – ابن مبارز	١٠١
٦ – فارس٢	١٤١
٧ – متولي	١٧١
٨ – ليلى	١٩٧
٩ – حسنين	٢٢٩
١٠ – فارس٣	٢٤٥
١١ – صافيناز	٢٦٥
١٢ – شفاعة ٢	٢٨٥
١٣ – جميلة	٣٠١
١٤ – مدكور	٣٢٧
خاتمة	٣٤٧

الكتب خان للنشر والتوزيع)
القــاهرة – المعــادي – دجلـة – 254 شـارع 13.
تليفـــون : 20225170678+ - 20225196569+
بريـــد اليكـــــتروني:info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

حتّى الآن، تبدو الكتابة عن عالم القرية مغامرةً محفوفةً بالمخاطر. فما توفّره المدينة من تعقّد وصراع، يجعل منها حكايات متداخلة ومتشابكة، تحكيها الشوارع والمقاهي والوجوه. أما القرية، ببساطتها وانسجامها الاجتماعي، فتحتاج لقدرةٍ من نوعٍ خاصٍ، حتّى تتمكّن من التقاط الأعماق المضطربة والقلقة، تحت السطح الهادئ الساكن. فتجمع -بنظرة واحدة- ما يبدو منفصلاً وبعيدًا عن مجرى الأحداث، وتنزع أقنعة البساطة عن عالم يموج بالرغبات والشكوك والصراعات. ذلك ما تصنعه عزّة رشاد، بدرايةٍ واسعةٍ، يلمسها قارئ الرواية التي بين أيدينا، منذ السطور الأولى. أهي حكاية رضوان بك، الزوج الحبيب والأب، الفاجر المتسلّط والرحيم الحنون؟ أم حكاية الذين حكوها، فلم نعد نعرف البطل مِن الراوي؟ بين حقيقة رضوان بك، وحقيقة الذين يحكون قصّته، يبحث القارئ عن جنّة رضوان الضائعة، مثلما بحثتْ الكاتبة، بمهارة، عن عالم القرية، وكشفته أمام أعيننا في روايتها "شجرة اللبخ".

الناشر

عزّة رشاد، طبيبة وروائيّة مصرية، من مواليد محافظة الشرقية في ١٩٦١، صدرت لها رواية "ذاكرة التيه"، في ٢٠٠٣، عن دار ميريت، "أحب نورا .. أكره نورهان"، قصص، في ٢٠٠٥، عن دار شرقيات، "نصف ضوء"، قصص، في ٢٠٠٩، عن دار هيفن، و"بنات أحلامي"، قصص في ٢٠١٣، عن سلسلة كتاب اليوم. حصلت على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب، فرع القصة، في ٢٠١٠.

ISBN 978-977-6306-30-1

9 789776 306301 >

الكتب خان للنشر والتوزيع